

شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - الرباط، المغرب

الأحاس مقياس الحضارة والرقة

20 غشت 53
شمولية الحسم في مضمون المنعطف التاريخي الكبير

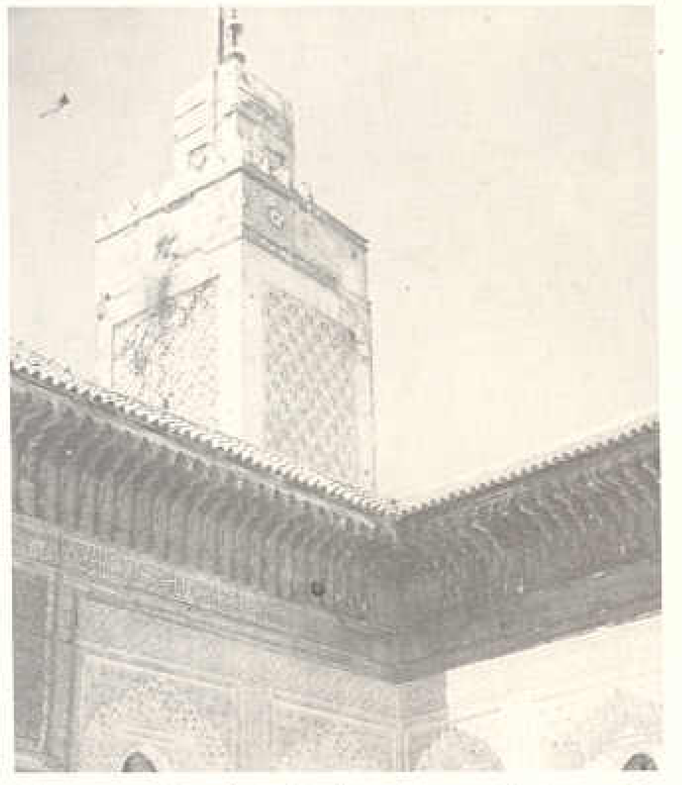
حول مشروعية البنوك الإسلامية

• دعوة الحق • ذي الحجة 1405 ــ غشت 1985 • العدد 251 • الثمن 4.00 درهم •

الأبعاد الإسلامية لانتفاضة 20 غشت

الأحباس مقياس الحضارة والرقة

«من خطاب جلالة الملك الحسن الثاني يوم 9 يوليوز 1985 بمناسبة عيد الشباب



القانون الثاني الذي صادق عليه البرلمان، وهو القانون المتعلق بالهبات الذي لم ينل القسط الوافر من اهتمام الإعلام ولا أقول الدعاية.

لاحظت منذ عشرات السنين كما تعلمون فإن الأحباس كانت دائما في رعاية أمير المؤمنين إلى حد أنه لما دخلت الحماية، كانت لديها مراقبة على جميع أنشطة أمير المؤمنين والدولة إلا على الأحباس والشؤون الإسلامية التي ظلت دائما خاصة بأمير المؤمنين ولاحظت خلال السنين الأخيرة أن عدد المحبسين تضاءل وأن الأحباس لا تتضرر فحسب بل تتقلص مداخيلها، فهل معنى هذا أن أهل الخير انقرضوا ؟ هل معنى هذا أن الناس لم يعودوا يحبسون على اليتامى والعرائس اللواتي لم يجدن المال الكافي لزفافهن ؟ في الحقيقة لو حللنا أحباسنا، لوجدنا أنها لم تراع فقط حقوق الإنسان بل حتى حقوق الحيوانات.

وفي بعض المناطق كانوا يحبسون على العلجوم إذا انكسرت ساقه، ويقال لنا بعد ذلك إن في انجلترا وأمريكا توجد هناك جمعيات للحيوانات وللحفاظ على الحيوانات، والحالة هاته، ويقولون إنهم يعالجون الأمراض العقلية هناك بالموسيقى، أما نحن فمنذ قرون وقرون كنا نحبس على المرستانات، أي المسلمين رحمهم الله الذين حبسوا كانوا يستعملون في المرستانات كل يوم جمعة الموسيقى في علاج الأمراض العقلية كما كان هناك وقف لتعويض كل آنية كسرها طفل حتى لا ينال عقاب والديه، وكذلك أحباس إغاثة الملهوف، وإدخال الفرحة على المكروبين أو الفتاة التي سوف تزف حتى تظهر لزوجها بمظهر لائق ليلة فرحها، بحيث أن الأحباس تشيد المساجد وتؤدي رواتب الأئمة والمؤذنين وتفرج الكربة عن الناس. الأحباس مقياس الحضارة والرقة، رقة شعور الأمة والشعب الذي يحبس وكذلك، على تنوع نيات ولفظ المحبس.

لنعد إلى ما كنا بصدده، رأيت أن رأسمال الأحباس عوضا عن أن يتنامى رغم الجهود التي تبذل - فإن رقعة الأحباس تتقلص، فوجدت على أن من قدم هبة أو أوقف فإنه يكون تحت وطأة الضرائب وإذا ما قدم هبة لمؤسسة خيرية بمبلغ مائة مليون فإن مصالح الضرائب تطالبه بجزء منها، شخص ميسور الحال وأراد أن يساعد مدرسة حرة أو مؤسسة معترف بها فإن الضرائب تطالب بنصيبها حتى أن أحدا لم يعد يحبس أو يقدم هبة، حيث أن الإنسان الذي قدم الهبة أو الحبس في إطار الحبس، لم يعد يوجد ما يقتطع منه.

وهذا القانون سوف يشجع الرواج، وعلى عدة أنشطة أو ميادين كانت مقصورة على الدولة فقط، لأن الدولة لا تستخلص الضرائب لحساب الخاص، بل سوف تفتح أمام الخواص الموسرين، الذين إذا ما أرادوا استثمار أموالهم استخلصت منها الضرائب نصيبها وكذلك الشأن إذا أرادوا أن ينجزوا عمل بر وإحسان كذلك سوف تنزل بهم كارثة الضرائب، بحيث فتح متنفس أمام الأموال المجمدة قصد ترويجها إما في المنشآت الاجتماعية أو الثقافية أو مدارس أو أحباس لإغاثة الملهوف وإرضاء الضمير، حتى يعمل الإنسان لآخرته يوم لقاء ربه : إن الحسنات يذهبن السيئات لعل وعسى أن يلقى ربه بقلب سليم وأن يلاقيه الله سبحانه وتعالى بالثواب وبالأخذ بعين الاعتبار لما خلف من ورائه من سنة حسنة سنها وأجرها عليه ولمن عمل بها إلى يوم القيامة.



شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية
الرباط . المملكة المغربية



أسسها :
جلالة المغفور له
محمد الخامس
قدس الله روحه
سنة
1376 هـ — 1957 م

التحرير :
الهاتف : 601.85

الإدارة و التوزيع
636.93
627.03
627.04
608.10

*

الاشتراكات : في المملكة المغربية : 70 درهماً
في العالم : 80 درهماً

الحساب البريدي : رقم 55-485 . الرباط
Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55
à Rabat

● المقالات المنشورة في هذه المجلة تعبر عن رأي كاتبيها ولا تلزم المجلة أو الوزارة التي تصدرها ●

فهرس العدد 251





الرّسالة الملكيّة إلى حجّاجنا الميامين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

حجاجنا الميامين،

من السنن الحميدة والتقاليد المرعية التي هدانا الله إليها، ودأبنا على التمسك بها في مثل هذه المناسبة أن نتوجه إليكم بوصفنا أميرا للمؤمنين، وحاميا لحمى الوطن والدين برسالة توجيهية، نذكركم فيها بفضل عبادة الحج، ونبذل لكم ما أناطه الله بنا من واجب النصح وإسداء التوجيه، عملا بقول جدنا الأكرم سيدنا محمد ﷺ : «الدين النصيحة» ولاشك أنكم ـ معشر الحجاج ـ تشعرون في هذه اللحظة الثمينة من حياتكم، ونشعر معكم بمنتهى السرور والفرحة، لما خصكم الله به من عناية، وأكرمكم به من سعادة، فيسر لكم في هذا العام أن تؤدوا فريضة الله على عباده بحجة الإسلام، وتنعموا بوجودكم في ذلك البلد الحرام، الذي جعله الله مبعث الرسول عليه الصلاة والسلام، ومشرق أنوار الإسلام، ومنطلق هداية الإيمان.

وها أنتم اليوم تغادرون أرض الوطن على بركة الله وفي حفظ الله ورعايته، ومشيئته ولطفه، قاصدين تلك البقاع المقدسة بنفوس

طيبة، وقلوب سليمة، مليئة بالإيمان والاطمئنان، مفعمة بالشوق ومحبة الرسول وآله عليه الصلاة والسلام، بعدما تجردتم من مشاغل الدنيا وزخرفتها، وتغلبتم على شح النفس وبخلها، وعاطفة الارتباط بالأهل والأولاد ومشاعرها، فسارعتم إلى بذل المال وإنفاقه، وتحمل مشقة السفر وتعبه في سبيل أداء هذه الفريضة الإسلامية لتنالوا البر والرضى، وتبلغوا درجة الصلاح والتقوى، التي هي أحسن ما يتزود به المسلم في الدنيا للحياة الأخرى، ولتكونوا من وفد الله وضيوف الرحمان، وحجيجه إلى المسجد الحرام، الذي جعله الله أول بيت وضع للناس لعبادة الله، ومثابة لهم وقبلة وأمنا، فقال : ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين، فيه آيات بينات، مقام ابراهيم، ومن دخله كان آمنا، ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا﴾.

حجاجنا الميامين،

إن من فضل الله ومنته على بلدنا العزيز أن شرح صدر أهله للإسلام، وفتح قلبهم للإيمان، وسلك بهم المحجة البيضاء، منذ قرون وأجيال وجعلهم جزءا لا يتجزأ من أمة الإسلام التي شهد لها الحق سبحانه بالخير والأفضلية على غيرها من الأمم عندما قال سبحانه : ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتومنون بالله﴾.

وسيبقى بلدنا بحول الله وقوته ذلك البلد المسلم الأصيل، المتشبث بدينه القويم ـ المحافظ على أركانه وواجباته، المدافع عن

مقدساته وحرماته، المتحلي بمكارمه وفضائله، القائم على تثبيت دعائمه، وصيانة معالمه وإعلاء كلمته، التي قال فيها جل جلاله : ﴿وكلمة الله هي العليا، والله عزيز حكيم﴾، ولذلكم ما فتئنا نولي عناية خاصة للجانب الروحي لدى المواطنين، ونعطي اهتماما فائقا لشؤون الإسلام بهذا البلد الأمين، وكل ما من شأنه أن ييسر ويساعد على حفظ وإقامة شعائر الدين، ويجعل المغرب في صحوة إسلامية دائمة، ويقظة دينية واعية متزنة ومتبصرة، قائمة على الكتاب العزيز والحديث الشريف والتزام مذهب إمام دار الهجرة الذي هو مذهب أهل السنة والجماعة، إيمانا منا بأنه لن يصلح أمر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها من التمسك بالدين والاعتصام بحبله المتين، عقيدة وسلوكا، شرعة ومنهاجا، وما توجيه هذه الرسالة إليكم إلا مظهر من مظاهر العناية الخاصة التي نوليها لشعائر الدين وشؤون الإسلام والمسلمين.

إنكم ـ معشر الحجاج ـ مقبلون على عبادة عظيمة، اعتبرها الإسلام نوعا من الجهاد ورفع مكانتها بين أعمال العباد، لما تقتضيه من صبر ومصابرة، ويقين ومجاهدة، واحتساب لله، تهون معه كل مشقة، وينال به المسلم ذلك الثواب الكبير والأجر العظيم الذي وعد الله به عباده المتقين وأخبرهم به رسوله الصادق الأمين، فقال تعالى : ﴿الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج، وما تفعلوا من خير يعلمه الله، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾، وقال عليه الصلاة والسلام : «من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه»، وقال : «العمرة

إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنـة»، وحتى يكون حجكم مقبـولا ومبرورا، وسعيكم محمـودا ومشكـورا، يجب أن تخلصوا لله في هذه العبادة، فإن الأعمال بالنيات وإنمـا لكل امرئ ما نـوى، وأن تحرصـوا على اغتنـام أوقـاتكم في تلـك البقـاع المقدسـة بقضـائها في الـذكر والعبـادة، وحضور الصلاة مع الجمـاعـة، والإكثار من الطواف بالكعبة المشرفة، ومن الدعـاء عنـدهـا وفي موقف عرفة، وغيرها من مناسـك الحج والعمرة فإن الدعـاء فيهـا مستجـاب، والرجـاء عنـدهـا مقبـول. قـال اللـه تعـالى : ﴿وطهر بيتي للطـائفين والقائمين والركع السجود﴾، وقال عليه الصلاة والسلام : «خير الدعـاء دعاء يوم عرفة، وأفضل ما قلت أنا والنبيؤون من قبلي لا إلـه إلا اللـه وحده لا شريك لـه، لـه الملك ولـه الحمـد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير»، وقال ﷺ : «الحجـاج والعمـار وفـد اللـه، إن دعوه أجـابهم وإن استغفروه غفر لهم».

حجاجنا الميامين،

تذكروا أن الله سبحانه أمر بالعبادات، وشرع الطاعات لما فيهـا من إظهار الإيمان بالله والعبودية له، والخضوع له والخشية منه سبحـانـه، فقـال : ﴿ومـا خلقت الجن والإنس إلا ليعبـدون﴾، ولمـا تنطـوي عليـه العبـادات من حكم وأسرار تعـود بـالخير الكثير والنفـع العميم على العبـاد، لمـا تثمره في القلوب من التقـوى، وتهـدي إليـه من صـالـح الأعمال.

وفريضة الحج تشتمل على تلك الحكم والأسرار، وتتحقق فيها تلك المعاني والمقاصد، فهي عبادة لله أولا، ثم هي مؤتمر إسلامي عظيم، يتوافد إليه المسلمون من كل حدب وصوب، ويلتقون فيه على صعيد واحد متساوين كأسنان المشط، لا فرق بين عربيهم وعجميهم، ولا بين أبيضهم وأسودهم، إلا بالتقوى والعمل الصالح، ويجتمعون على كلمة واحدة وعبادة واحدة مستشعرين ما يجمعهم ويؤلف بينهم من رابطة الإسلام وأخوة الإيمان، وما تقتضيه من الترفع عن الأضغان والأهواء التي تفرقهم مذاهب وطرائق قددا، وتستوجبه من غرس روح المحبة والتآخي والتعاون، والتضامن والتآزر، والتناصر والتقارب والتواصل لما فيه منفعتهم وصلاح أمر الدنيا والدين، ونصرة الإسلام والمسلمين، عملا بقول رب العالمين : ﴿وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر ياتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم، ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾، وقوله سبحانه : ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير﴾.

معشر الحجاج،

إن سفركم لأداء فريضة الحج وسنة العمرة بمكة المكرمة ليحتم عليكم أن تجعلوا في نيتكم وتحملوا في عزيمتكم زيارة المدينة المنورة، فهي ثاني الحرمين الشريفين، قضى فيها الرسول ﷺ عشر سنوات من حياته يتلقى فيها الوحي من ربه، ويبلغ رسالة دينه،

ويجاهد في سبيله حتى أتاه اليقين بعدما أكمل به نعمة الإسلام على المسلمين، وجعله أمانة في عنقهم إلى يوم الدين، فهي زيارة مطلوبة ومؤكدة، ينعم فيها المسلم بالقرب منه عليه الصلاة والسلام، ويغنم ثواب الصلاة في مسجده النبوي، ويفوز بأجر الزيارة لقبره الشريف وقبري صاحبيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فقد قال عليه الصلاة والسلام : «صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام»، وقال : «من زارني بالمدينة محتسبا كنت له شفيعا وشهيدا يوم القيامة»، وعليكم وأنتم في مكة المكرمة أو المدينة المنورة أن تكونوا في منتهى الآداب والوقار، والتواضع والإجلال، وخفض الجناح للناس كافة، ولأهل المدينة خاصة، وتتحلون بما أنتم معروفون به ومجبولون عليه من فضائل التغاضي والتسامح، والصبر والحلم والصفح والعفو، وغيرها من محمود الشمائل وكريم الخصال، التي ترفع من شأنكم وشأن بلدكم وتزيد في رصيد سمعته الطيبة، وشهرته الذائعة، ولا تنسوه في تلك الأمكنة من الدعاء أن يديم الله عليه نعمة الخير والبركة، واليمن والسعادة، والهناء والازدهار، فإن الدعاء كلما كان أعم كان إلى الاستجابة أقرب.

وتذكروا ما عليكم من حق الإخلاص في الدعاء لملككم أمير المؤمنين القائم على حماية الوطن والدين، فاستحضرونا في تلك البقاع المقدسة، وزودونا فيها بصالح الدعاء، خاصة عند الكعبة المشرفة، والسعي بين الصفا والمروة، والوقوف بعرفة والمشعر الحرام، وفي المسجد النبوي، وعند الروضة الشريفة، وإذا وقفتم أمام قبره

الشريف فأبلغوه منا السلام، واسألوا الله لنا عنده وفي كل مقام أن يديم علينا نعمة الصحة والعافية، ويرزقنا نصره وفتحه، وعونه وتأييده وسداده وتوفيقه، لما نهدف إليه من خير الوطن والدين، وخدمة قضايا العرب والمسلمين، وخاصة قضيتهم الأولى، قضية فلسطين وتحرير المسجد الأقصى والقدس الشريف، بإعادته إلى حظيرة الإسلام والمسلمين.

واسألوا الله كذلك وادعوه في تلك البقاع الطاهرة لولي عهدنا سمو الأمير الجليل سيدي محمد، وصنوه الأمير مولاي رشيد أن يحفظهما ويصلحهما ويقر بهما العين، وبسائر أسرتنا العلوية الشريفة، وتوجهوا إليه سبحانه أن يتغمد برحمته الواسعة والدنا المنعم جلالة المغفور له محمد الخامس، وأن يسكنه فسيح جناته، ويجزيه أحسن الجزاء على ما قدمه وأسداه من خير ونفع للمغرب والمغاربة والعرب والمسلمين قاطبة، واسألوه سبحانه لأمة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها أن يوحد صفها، ويجمع كلمتها، ويديم عزتها، حتى تكون يدا على من سواها، وكالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا.

جعل الله حجكم مبرورا، وسعيكم مشكورا، وذنبكم مغفورا، وكتب لكم السلامة والعافية في الذهاب والإياب، والعودة إلى أهلكم ووطنكم سالمين غانمين، والسلام عليكم ورحمة الله.

افتتاحية

الأبعاد الإسلامية لانتفاضة 20 غشت

قيض الله سبحانه للأمة المغربية، منذ شرح تعالى صدور أبنائها للاسلام، ظروفا دقيقة ومراحل خطيرة واختبارات وتحديات حاسمة، كانت ابتلاء للمؤمنين، وامتحانا للتصديق، واختبارا لنصاعة اليقين وقوته وصحته في قلوب وصدور المجاهدين الثابتين على العقيدة.

وكانت قمة ما تجلى فيها هذا الامتحان، متمثلة في معاهدة الجزيرة الخضراء سنة 1912 التي فرضت القوى الاستعمارية الباغية عهد الحماية على المغرب، فرضا وقفت وراءه أسباب وعوامل، وقدرته أقدار وبواعث، كان من ضمنها ضعف وسائل الأمة المغربية، وقلة امكانياتها، وقصور عددها وعدتها البشرية والتقنية والطبيعية أمام ما كانت القوى الاستعمارية تتوفر عليه آنذاك من معدات وأعتدة متنوعة.

غير أن ارادة الله سبحانه وتعالى، شاءت أن تكون هذه المحنة بوتقة تاريخية أخرى، انصهر فيها العرش والشعب من جديد ذلك الانصهار الذي حدث به التاريخ ونطق بملامحه سجله الحافل الزاخر بالانتصارات والمكاسب والبطولات النادرة.

اذ لم تكد السنوات القلائل تمضي على هذا الحدث، حتى انبعث في ضمير الأمة المغربية شعور قوي بانتمائها العربي والاسلامي الذي حاولت القوى الاستعمارية الغاشمة طمسه واهالة الغبار عليه، ان لم نقل محوه والقضاء عليه بصفة نهائية كجزء من مخططاتها البعيدة ضد أمة الاسلام.

هذا الشعور بالانتماء العربي الاسلامي، لم ينبعث في قلوب المغاربة ووجدانهم فجأة واعتباطا، ولكنه جاء عملا جليلا ما ونيت فيه جهود العرش العلوي المجاهد وتضحيات ملوكه الأماجد، ولا كلت من أجل انمائه واذكائه، وتثبيته وتقويته، وبعثه وبثه بين صفوف الأمة كأقوى ما يكون البعث والبث اللذان منهما يبدأ اشعاع الدعوة وضياؤها وقبسات ذيوعها وانتشار أفكارها ومبادئها الحقة.

ولذلك، لم تكن سنة من السنوات المشؤومة التي أعقبت معاهدة الحماية، تخلو من الجهاد والكفاح والنضال المستميت، رغم الكابوس الاستعماري الذي جثم على البلاد، ورغم عوامل الانحطاط والانحلال التي رانت على أصقاعها ومناطقها، من الصحراء المغربية الى البوغاز، والتي جاء بها الاستعمار تحت ستار الاصلاح وترشيد الاوضاع، ولكن الحقيقة التي لم تخف بعد على أحد، هي أن هذه العوامل وما رافقها من مظاهر الانحراف الذي كاد يشمل ويعم كل جوانب الحياة في المغرب، انما كانت تمهيدا لتغيير هوية المغاربة عن طريق التبشير تارة، وعن طريق القمع والقوة تارة أخرى.

وما لبثت السنوات أن أظهرت أصالة الأمة المغربية تحت قيادة عرشها العلوي المجاهد، وكشفت عن معدنها الحقيقي والنادر كأمة ذات هوية اسلامية، وانتماء عربي، بالغين في أبنائها من القوة والسطوع والشموخ، مبلغا عز في أمة من الأمم، وقل مثيله في شعب من الشعوب.

وما ذلك، الا لأن العرش العلوي المجاهد، وفي سدته آنذاك جلالة المغفور له محمد الخامس رضوان الله عليه، الى على نفسه بالتضحية واستمرارها، والبذل واطراده، والعطاء وامتداده، ونكران الذات ودوامه، أن يحافظ حفاظا لا هوادة فيه ولا مساومة أو مداهنة عليه، على مقومات المغرب والمغاربة كبلد اسلامي، هو على مدى التاريخ منذ أربعة عشر قرنا ونيف، في مكان مبوأ للدفاع عن الاسلام والمسلمين في هذا الجناح الغربي من العالم الاسلامي، وهو في الصدارة من العمل الجهادي المسترسل حماية للاسلام والمسلمين وذودا للمقدسات والمقومات الدينية والتاريخية والمذهبية لشعب المغرب الذي يسجل له التاريخ، في هذا المضمار، بطولاته الملحمية لنصرة الوجود الاسلامي في هذه المنطقة من العالم؛ كما تتجلى ـ على سبيل المثال لا على سبيل العد، في معركة الزلاقة، ومعركة وادي المخازن، وحرب تطوان، ومعركة أنوال، وحرب أكتوبر، في الجولان وسيناء، ومعركة بئر أنزران... الخ.

وأنعم بها من معارك وحروب بطولية ظلت بيضة الاسلام بها محمية مصونة، وبقي حمى الاسلام بها قويا عزيزا معززا، حتى اذا كانت الفترة التي وقع فيها المغرب فريسة لأطماع ومؤامرات الاستعمار، لم ينحسر فيه المد العربي الاسلامي، ولم يتوقف اشعاعه أو يخب شعاعه ويخفت وميضه وبريقه، بل ان ما بذله وأسداه جلالة المغفور له محمد الخامس قدس الله روحه خلال تلك الفترة الحالكة من مجهودات وتضحيات جسيمة في سبيل سيادة المغرب وحريته واستقلاله وكرامته، لم يكن في واقع الأمر سوى مقدمة لعودة الدور الطليعي للمغرب في نطاق انتمائه الاسلامي وتشبثه بحماية القضايا الاسلامية.

ومن هذه النقطة بالذات، كانت ثورة الملك والشعب في 20 غشت سنة 1953، ثورة اسلامية بالمفهوم الاسلامي الصحيح النقي من الشوائب، وانتفاضة اسلامية

خالصة لوجه الله والمصلحة الاسلامية العليا التي يرعى هذا البلد الاسلامي العريق، تحت قيادة أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني، جميع مقوماتها ومكوناتها، ويسهر على ركائزها ودعائمها لتبقى على الدوام، دعائم وركائز بنيان اسلامي مرصوص يشد بعضه بعضا.

أو لم يهتز العالم الاسلامي كله للفاجعة التي وقعت صبيحة يوم 20 غشت سنة 1953 حين امتدت الأيدي الاستعمارية الى الاسرة العلوية الشريفة، تبعدها ظلما واعتسافا من وطنها وشعبها الى المنفى السحيق؟

أو لم ترتج أركان العالم الاسلامي شجبا واستنكارا لهذه الجريمة الشنعاء في حق الشعب المغربي المسلم حين مست مقدساته، ودنس عرضه، وأبعدت شرعيته، ووقع اهتضام حقوقه المشروعة العادلة في الحياة الكريمة والحرة التي اختارها طوعا تحت قيادة العرش العلوي المجاهد؟

أو لم تقف الأمة الاسلامية، في مشارق الدنيا ومغاربها، متضامنة متكاتفة مع الأمة المغربية في محنتها الشديدة وكارثتها المفجعة بنفي رمز سيادتها وضامن وحدتها وجامع صفها أبيها الصابر المصابر جلالة المغفور له محمد الخامس مع أفراد أسرته الكريمة؟

انطلاقا من هنا، يمكن أن نقول ان انتفاضة 20 غشت عام 1953 في المغرب، كانت بمثابة ايذان بيقظة العالم الاسلامي برمته من الغفلة والسبات الذي ران عليه سنوات طوالا بسبب غارة الاستعمار على شعوبه وأصقاعه، هذه الغارة التي لم يكن الهدف منها، سوى جعل الأمة الاسلامية أمة متخلفة عن الحضارة، منعزلة عن أسباب التمدن، سائرة القهقرى بعيدا عن موكب التقدم والتطور ونشدان العزة والمجد والرفعة في عصر لا ذاتية فيه الا للشعوب القوية والأصيلة والمنتصرة في معارك الحضارة وميادينها.

ومصداقا لما نقول، فان الشرارة التي مهدت وغاظت الاستعمار وأحفظت صدور غلاته على المغرب، انما انطلقت وصدرت جذوة ملتهبة بالحماسة والحرارة في الخطاب التاريخي لجلالة المغفور له محمد الخامس في مدينة طنجة يوم تاسع أبريل سنة 1944، حيث دوى صوت فقيد العروبة والاسلام معلنا انتماء المغرب والمغاربة للهوية العربية والذاتية الاسلامية، ومؤذنا بعهد جديد يرتبط فيه المغرب بعرى شديدة ووثيقة مع قضايا الأمة العربية والأسرة الاسلامية وطموحاتها وتطلعاتها، في التحرر والوحدة، وفي الانطلاق والانعتاق من ربقة التخلف والاستعمار والوصاية والركود الحضاري.

فكان هذا الخطاب، صفعة للاستعمار ودهاقنته، عز عليهم أن يسكتوا عنها، وأن يبتلعوها ولا سيما أن ما كان في صدورهم من الحقد والضغينة والبغضاء على الاسلام والمسلمين، أبى عليهم أن يقفوا مكتوفي الأيدي أمام الصيحة المدوية لجلالة المغفور

له محمد الخامس طيب الله ثراه، في ذلك اليوم التاريخي بمدينة طنجة، وهي يومئذ مدينة خاضعة للحماية الدولية.

وتوالت الأحداث وتعاقبت، على المستويين الوطني والدولي؛ فهي هنا يزداد ضغطها من طرف القوى الاستعمارية على الشعب المغربي لاغتصاب مشروعيته وانتهاب مقدساته واستلاب خصائص مذهبيته في العقيدة والتاريخ والحضارة والتوجه الى استعادة الاستقلال وتوحيد الكيان السيادي للوطن والأمة بهدف التفرغ الى مهام البناء والتنمية التي عطلها الاستعمار وفوت فرصها على الشعب المغربي.

وفي معترك هذه الأحداث والوقائع، كان جلالة المغفور له محمد الخامس رضوان الله عليه، يصل الليل بالنهار من أجل احراز البلاد لاستقلالها، وتحقيقها لحريتها، واسترجاعها لكرامتها، وكان يجاهد قدس الله رحه، جهادا متواصلا وفق الأسلوب الاسلام الفريد والمتفرد الذي أعاد الى الأذهان صورا حية عن ملاحم الجهاد الاسلامي في عصوره الأولى، والذي استحضر لها استحضارا قويا ونابضا، خصوصية القيادة الاسلامية الفذة التي لا تعرف الهوادة في الكفاح، ولا تستكين أو تهن وتضعف وتتراجع ارادتها أمام الأحداث والتحديات.

وكان أن رفضت هذه الوقائع والحوادث على المستوى الوطني، الى مخاض عسير وشاق، كانت فيه القضية الوطنية كلها على شفا جرف لولا ما تحلى به جلالة المغفور له محمد الخامس من خصال وسجايا محمودة، هي من نبع المدرسة النبوية الطاهرة المطهرة؛ مدرسة الايمان بالقضية، والثبات على المبدأ، والرسوخ على الحق والترفع عن سفاسف الأمور والثقة في نصر الله، وعدا منه تعالى للمؤمنين الصابرين المجاهدين في الله حق جهاده.

وعلى المستوى الدولي، كانت حلقات التآمر تتضاعف وتزداد، والمصالح الدولية في هذه المنطقة أو تلك من مناطق العالم، تكشف عن وجهها وترفع النقاب عما تقنعت به في المحافل الدولية ومنابرها المشهورة.

وفي خضم هذا وذاك، كانت المعركة الحاسمة التي خاضها جلالة المغفور له محمد الخامس قدس الله روحه، معركة متسمة بكل الخصائص والسمات التي تجعلها معركة اسلامية في روحها، وفي وسائلها وأهدافها، وفي أدواتها وغاياتها، وفي مبادئها ومنطلقاتها... ....، معركة لتحرير الانسان المسلم في جميع البقاع التي يوجد بها المسلمون، ومعركة ليسترد هذا الانسان كرامته وحقوقه وحريته التي اغتصبها المستعمرون.

وما لبثت شرارة تلك الانتفاضة المجيدة صبيحة يوم 20 غشت سنة 1953، بعد اقدام قوى البغي الاستعمارية على نفي الاسرة الملكية الكريمة وابعادها، أن مس شواظها قوى وسلطات استعمارية أخرى في شتى أصقاع العالم الاسلامي، انتفضت غاضبة

ساخطة، وارتعدت خائفة راجفة، فاهتز كيانها الموهوم ووجودها المزعوم، وانتشر المد التحرري الاسلامي ليؤذن برحيل المستعمرين والباغين عن عالمنا الاسلامي.

هذه هي الهوية الاسلامية وأبعادها التاريخية العميقة لانتفاضة الملك والشعب في 20 غشت 1953، وهي نفسها الهوية والأبعاد الاسلامية التي طبعت المرحلة التاريخية المجيدة لهذه الانتفاضة؛ ولا غرابة أو بدع في ذلك، فان مصدر الانتفاضة هو المباديء والأفكار السلفية التي أوجدت الاحياء الاسلامي في أواخر القرن الماضي، وينبوعها هو اليقين بأن آخر هذه الأمة لا يصلح الا بما صلح به أولها.

وامتدادا لذلك، كانت انتفاضة 20 غشت 1953 وفقا للمواصفات والمنطلقات الاسلامية التي صدرت عنها، منطلقا ومبدأ لبعث اسلامي نادى به، ودعا اليه، وحمل لواء رسالته ودعوته، أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله، وهو بعث اسلامي شامل لكل مناحي الحياة، عام لسائر جوانبها وأوجهها، بل ان شعاعه واشعاعه، عرف بفضل تضحيات ومجهودات جلالته منذ استخلفه المولى عز وجل على قيادة هذه الأمة، امتد وأعرق وتأصل لهما حضور ووجود في ربوع العالم الاسلامي كلها.

ومن هذا ندرك بوعينا وفهمنا، أن انتفاضة 20 غشت 1953، بقدر ما كان الانتصار فيها تتويجا أنعمت به ارادة الله على المغرب وشعب المغرب، بقدر ما كانت الانتصارات والمكاسب التي أحرزها تحت القيادة الحكيمة لأمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني حفظه الله، فضلا وانعاما من الله سبحانه وتعالى الذي قدر جل وعلا بأن تجتاز الأمة المغربية، في ظل الاسلام وفي كنف العرش العلوي المجيد، كل الظروف الدقيقة بنجاح، وجميع التحديات التاريخية بقلب مؤمن موقن صامد، وبأن تنتصر هذه الأمة المسلمة المجاهدة على أعدائها، وتتغلب على الصعوبات والمشاق، انطلاقا من تمسكها بدينها الحنيف، وعرشها المنيف الذي يتربع عليه رمز وحدتها ونضالها أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني كخير خلف لخير سلف في التضحية والبناء، والتحرير والوحدة، ولم شمل الأمة الاسلامية وتوحيد صفها على كلمة سواء.



20 غشت 1953

شمولية الحسم في مضمون المنعطف التاريخي الكبير

للأستاذ المهدي البرجالي

أيام التاريخ - من منظور رصدنا لمدى اهمية الوقائع والتطورات المحملة بها، منها ما يمكن اعتباره عاديا وشبه عادي، ومنها ما يبدو على العكس من ذلك متميزا بصورة تقل او تكثر - عن الايام غيره، ومثل هذه الايام المتميزة بما يقترن بها من احداث وتحولات، تكون اساسا لتغيير مجرى التاريخ، وتكييف حقائق الحياة من خلاله بكيف معين، هي ما يوصف عند المؤرخين عادة بالايام الحاسمة او الفاصلة، او نحو هذا، مما يوذن بمعنى كون اليوم من هذا القبيل هو بمثابة علامة فارقة، بين ما قبله من وقائع الناس والحياة، وما بعده من هذه الوقائع، ومن هنا تبدوا ايام الحسم او الفصل هذه، على انها ليست كغيرها من الايام، اولا لموقعها - كمنعطف تتغير به الصورة في تسلسل مجرى التاريخ، وتنبثق من خلاله حقائق، وتقوم توازنات ومعادلات جديدة، وتتبلور ظروف يتخذ بها المسار التاريخي اوضاعا مختلفة كل الاختلاف مضمونا وملابسات ومترتبات وما الى ذلك، وثانيا لدور الايام الحاسمة في ميكانيكية التطور الذي يتم به الانعطاف من هذا المعنى، حيث يستقطب اليوم الحاسم نتائج التراكم التدريجي الذي يصل قبله في الوقائع والاحداث خلال حقبة من الزمن، ويتأهل - من ثم - لترجمة ما استوعبه من كل ذلك، في شكل حسم تاريخي، محفوز بحوافز التراكمات التاريخية قبله، وحتمية الانتقال - عبر هذه المتراكمات - الى وجهة جديدة، وفصول جديدة من كتاب الحياة الكبير، المتغير ابوابا وفصولا.

وتتضافر عوامل مختلفة في محيط الزمان او المكان، لجعل بيئة من البيات، مجالا مرشحا اكثر من غيره، لاستيعاب متغيرات التاريخ، والتفاعل معها، والاسهام في اثراء ديناميتها، مما يتوافر به ومعه ارضية وموجبات للحسم في مجرى الحوادث والتحولات التي يطرحها الصراع الدائم في ساحة الحياة، وبما يغني - بالتبعية لذلك - تاريخ البيئة المعنية، برصيد من الايام الاستثنائية بهذا المقياس.

واذا تحدث المرء بصدد هذا، عن ملابسات الزمان او المكان في افراز التوجهات التاريخية التي تتكاثف على ايقاع الحسم، ضمن اطار منطقة من المناطق، فإن العامل البشري، عامل القوة الروحية والوجدانية والفكرية التي يثرى بها المناخ الاجتماعي والحضاري في المنطقة المعنية، لذو شان محوري واساسي في مجمل التفاعلات التي ينبثق عن تداخلاتها، وتفجر طاقتها فعل الحسم : وبمتعين هذه الصفة المحورية لموقع الانسان في هذا السياق، فان مسار الحسم في حلقات التسلسل التاريخي، ترتبط ارتباطا صميميا بالنشاط البشري واتجاهاته وبالمؤثرات الناتجة عنه، وهو ارتباط، يشمل منطلقات الحسم - اذا ما توفرت ظروف حصوله - كما يشمل موضوع هذا الحسم، ونتائجه وانعكاساته في أمادها المختلفة.

واتصالا بهذا، ما يظهر واضحا من ان الشعوب - في قديم او في حديث - ليست لها جميعا - فيما يعكسه التاريخ من صور عن نشاطاتها - سجل متماثل في اهميته على صعيد الفعل والتأثير - فكريا او ثقافيا او حضاريا او سياسيا، المؤهلين للاسهام في تيسير موجيات وعوامل الحسم التاريخي : فارصدة المجموعات البشرية في هذا المضمار، متفاوتة الكم والكيف، لتفاوت ظروف هذه المجموعات والملابسات المحيطة بها، واختلاف قابلياتها لاحتواء التيارات التاريخية، وتباين قدراتها على الاضطلاع بالتحملات الجسيمة، التي تقتضي منها - ضمن هذا الاحتواء - المشاركة في تسريع وتيرة الحتميات المؤدية للحسم، وتفجير التراكمات التي تكمن فيها دينامية تفجيره، واستيعاب الافاق والمنطلقات التي تنفتح بالضرورة - كنتيجة له.

والتاريخ المغربي - منظورا اليه من زاوية هذا الاعتبار - لذو رصيد هام - بكل المعايير - تبعا لديناميكية البلاد التي ينتمي اليها هذا التاريخ، وتفاعلاتها البعيدة جذورا في خلال الحقب التي عاشتها مؤثرة في المحيط الجهوي او الاقليمي او القاري المرتبطة به، ومتأثرة في نفس السياق بهذا المحيط، فعبر الدور الذي اخذه المغربي على عاتقه بالاندلس وافريقيا على مدى قرون، ومن خلال موقعه في ساحات المواجهة المبكرة التي طرحها السياق التاريخي عليه، المواجهة مع طلائع الاستعمار الاوروبي التي افرزت موقعة وادي المخازن، تبلورت معالم ايام حاسمة يعتبر بعضها من ايام التاريخ الكبرى على صعيد عالمي، ومن المعارك الفاصلة في تاريخ الاسلام، وهي ايام طبعت بحجم مضمونها، ومؤثراتها، وانعكاساتها - صورة التاريخ المغربي على مدى كبير، واضفت عليه ملابسات نوعية عديدة لها وزنها في مجال تقييمه، واستجلاء مكانته في السياق العام للحياة الدولية اثناء العصر الوسيط وماتلاه : ولقد كان يوم 20 غشت 1953، حيث انطلقت ثورة الملك والشعب انطلاقتها الفاصلة في مجرى الصراع مع الاستعمار - من بين اكثر هذه المعالم مرموقية في سجل قدرة المغرب الحديث على الحسم التاريخي، وابداعية الروح الحافزة له في هذا المجال! وبعد حوالي ما ينيف على ربع قرن، كانت المسيرة الخضراء، التي تندرج في نفس المساق النضالي التحرري للمغرب، والتي اضافت بطبيعة الحال، الى التراث المغربي في مضمار العمل الحاسم - تاريخيا - على مستوى اعلى، اشهادا جديدا، ورائدا بقدر كبير في منطلقاته الفلسفية والمنهجية، وفي محتواه وتأثيراته.

الحسم الذي سجل انطلاقته يوم 20 غشت 1953، وكان بحكم موقعه في مسار المواجهة المغربية للوضع الاستعماري، وباعتبار النوعية الخاصة والمثيرة جدا المتعلقة بالتحدي الذي حصل خلاله ضد المغرب نظاما وسيادة وكرامة وطنية، كان بحكم ذلك كله، حسما شموليا في صورته ومعناه وفي ابعاده وملابساته على اكثر من صعيد؛ لقد كان في مؤشراته الدلالية هذه، حسما نضاليا وقوميا، مثلما كان حسما تاريخيا وحضاريا، وليس من قبيل مجرد التنويع اللفظي، ايراد هذه النعوت، وانما القصد، للاشارة الى سعة المجال الذي استغرقه مدلول هذا الحسم، وهو مصداق صفة الشمولية التي استحق ان تطلق عليه؛ ففيما ينم عنه المدلول النضالي بصدد هذا الطرح، فقد كان يوم 20 غشت، نقطة عبور متميزة تميزا كاملا وفاصلا بين مختلف المراحل النضالية السابقة، وبين المرحلة الجديدة، والتي كان ذلك اليوم، مستهل الدخول فيها، والنفوذ منها - عبر تصعيد نضالي رائد وابداعي، الى الهدف الكبير، وضغط مسافات الزمن واختزالها في اتجاه بلوغه، وهذا التصعيد - ويوم 20 غشت منطلقة وحافزه وشاهده - كان تصعيدا كميا وكيفيا في نفس الحال، وبالنتيجة، فان الاوضاع النضالية المتولدة عنه، ومكامن القوى التي اطلقها، وما افرزه من معادلات جديدة على مسرح المواجهة بين ثورة الملك والشعب، وبين الوجود الدخيل في البلاد، كل ذلك قد اهل المرحلة الجديدة المنطلقة ذلك اليوم لتكون الاكتمال الاقصى لمسلسل المراحل السالفة، لتكون تتويجا نهائيا لتلك المراحل، وتجسيدا كثيفا لشتى مضامينها الفعلية والدلالية.

وفيما يعبر عنه المدلول القومي للحسم يوم 20 غشت 1953، فان المنطلق الذي صنع المسار النضالي الجديد ذلك اليوم، كان قاعدة بعث وطني جديد، اشد حرارة في حوافزه الفكرية والوجدانية، واكثر تركيزا في استمداداته من المثل والقيم التي ألهمت دوما ارادة النضال القومي المغربي، ضد التدخلات الخارجية، لقد كان هذا الوجه الجديد في التحفز الوطني بالبلاد، جذريا وحاسما اكثر من اي وقت مضى، قدرما كان التطاول الاستعماري في يوم 20 غشت 1953، عنيفا حاقدا فيما ينطوي عليه من تحد لايطاق للكيان وللمصير المغربي، كان هذا التطاول الذي فجر المرحلة الفاصلة من ثورة الملك والشعب، يعني في ضمير الشعب وفي اعمق اغوار شعوره، ان المغرب كوطن، وكدولة، وكتاريخ، وكحضارة قد غدا في مهب الرياح، وان التهديد الذي يواجه على هذا الصورة، الكيان المغربي، تهديد مصيري وكاسح بالمعنى المطلق لوصف من هذا القبيل، ومن ثم كانت قد تجمعت في افق المواجهة مع الاستعمار، كل العوامل المتضافرة - فكريا وسيكولوجيا وغيره - على تعميق حدة التصادم الاقصى، الذي كان مجاله قد فتح على مصراعيه، التصادم والحاسم بين النزعة التسلطية للدخيل، وبين احساس وطني عارم، الاحساس المغربي بمصيرية المعركة، وجوهرية ارتباطها - موضوعا ومسارا - بما يمثله المغرب، وما يتشبث به، وما يحرص عليه، وما يصبو اليه، وتحدوه كل الدواعي للاستبسال والتفاني، والتحمل اللامحدود في الدفاع عنه وصيانته، وما كان استشفاف للمدلول القومي للمعركة، استشفاف في مثل هذا العمق، وبعد الغور، الا ان يستقطب في محتواه كل مضامين القضية الوطنية دفعة واحدة، وبكل ابعادها تحريرا وتوحيدا، واجلاء لمختلف مظاهر التواجد الاجنبي المتناقض مع سيادة الكيان وحريته وتكامل حوزته، وعلى هذا شكل التصعيد الذي اضطلعت به ثورة الملك والشعب غداة التطاول على العرش في 20 غشت 1953 صورة كانت - بالضرورة - ردا على سلسلة التحديات كلها، التي وجهت الى المغرب منذ 1912 الى ذلك اليوم، وكان الرد بشكله المركز ذاك، في مستوى المقدرة على استيعاب الاهداف المرتبطة بالقضية التي دار حولها الصراع على مدى اكثر من اربعة عقود، وكفيلا بحل العقد والاشكاليات التي لابست ذلك الصراع، واكتنفت اجواءه من خلال المنعرجات الكثيرة التي مرت بها

اشواطه، وبالنتيجة، كانت العودة الملكية من المنفى الى ارض الوطن، مقرونة بعودةٍ فورية للاستقلال والتحام الشمال بالجنوب الذي افضى فيما بعد الى استكمال وحدة التراب. كما تضمن هذا التطور التاريخي في فترات لاحقة، جلاء قوى الاحتلال، وتحرير مرافق الحياة الوطنية وفعالياتها من الهيمنة الاجنبية، وانشاء الهياكل والبنيات اللازمة لممارسة السيادة، وربط العلاقات الخارجية في مستوياتها المختلفة.

ولقد كان الحسم الذي انجزته بابعاده القومية هذه، انطلاقة غشت 1953 ذا ابعاد تاريخية كذلك، ابعاد ترى من زوايا تقدير مختلفة، ومكمن هذا الاعتبار الخاص، للمداخلات التاريخية للحدث، يرجع ـ فيما يرجع له ـ الى موقع الكيان المغربي في الاوضاع الدولية التي كانت قائمة، قبل ان يتعرض للاحتلال، والى الملابسات النوعية التي اثارتها حيثيته هذه، في سياق الظروف التي وقع فيها استعماره، ثم الى ما يعنيه الامر من وجهة النظر للأحوال المترتبة عن مقاومته للمستعمرين وتحرره من هيمنتهم.

لقد كان التسلط الاستعماري على المغرب، تسلطا على دولة كاملة السيادة، وذات حضور فعلي ومؤثر ـ على شتى المستويات ـ في حظيرة الاسرة الدولية ساعتئذ، وبذلك كان امر هذه البلاد حين احتلالها، مختلفا عن عدد من المناطق الافريقية والاسيوية التي لم يكن لها من مقومات الدولة بعض ما كان له، ومن ثم، فقد كان الكيان المغربي من اخر الكيانات التي وقع استعمارها في غمرة الموجة الامبريالية التي عمت معظم العالم في خلال القرون الاخيرة، وبالنظر للاهمية الخاصة للمغرب ـ من حيث امكانياته الموقعية (ستراتيجية ومواصلاتية) او بحسبان مقدراته الطبيعية وغيرها، فان المنافسات الاستعمارية للسيطرة عليه، استمرت ـ لامد طويل ـ مدعاة لصراعات وازمات دولية واسعة النطاق، كان من جرائها، ان شاركت دول عديدة (باعتبار طنجة) في بسط نفوذها عليه، وتعرض ـ بهذا الصدد ـ الى تجزئة ترابية، لم يتعرض لمثلها غيره، كما لم يكابد غيره كذلك من اختلاف وتباين الاوضاع الاستعمارية التي اخضعت لها اقاليمه من قبل المحتلين لها في شماله وجنوبه.

واذا كان هذا الوضع، قد انعكس على المغرب في شكل طرح تحملات شديدة عليه بصدد سعيه للاستقلال، حيث كان مطلوبا منه ـ طوال عقود ـ ممارسة الكفاح التحرري على عدة جبهات في الوسط وفي اقاصي الشمال وفي الجنوب واقاصي الجنوب، فانه ـ على اي حال ـ قد استطاع ـ عبر استرجاعه لاستقلاله ـ ان ينجز حسما طلائعيا، وعميق المغزى على صعيد التاريخ، الذي زخرت فصول كثيرة منه ـ فيما بين اواخر القرن الماضي واوائل هذا القرن ـ بصور المناورات الدولية حول هذا البلد، وقصص التقسيمات الاستعمارية التي مورست ضد وحدة ترابه، والتي ارتبطت بسياسة قوامها تقليص الدور التقليدي للمغرب في المنطقة، وفصمه عن جذوره الموصولة بافاق افريقيا السوداء، وبموجب هذا الحسم، طويت صفحة كاملة ومثيرة من صفحات هذه السياسة الاستعمارية ذات الطابع الخاص بشمال غرب افريقيا وهي سياسة كان هدفها المركزي، المغرب، كما ذكر وتتصل بما كانت تتبناه الرؤية الامبريالية انئذ من تطويق الكيان المغربي، وبعثرة مجرى التفاعل الثقافي والفكري، عن طريق بعثرة التواصل الجغرافي والبشري في مجمل المنطقة، وذلك بالقدر الذي يمكن من عزل الاشعاع العربي الاسلامي عن المحيط الافريقي الأسود من جهة الغرب، ويحشر في نطاق مقفل، بريق هذا الاشعاع واطيافه.

ويسترسل بنا ـ بعد هذا ـ استعراض ابعاد الحسم الذي تم من منطلق غشت 1953 فنلمح في هذا النطاق بعدا مهما اخر في الصورة، هو البعد الحضاري للحسم، والواقع ان الموضوع الحضاري في الصراع مع الاستعمار ـ ويرتبط هذا الموضوع بامر الهوية الحضارية وبالتالي الهوية القومية للبلد الواقع استعماره ـ كان مطروحا باستمرار في جوهر ذلك الصراع وبواعثه، وخلفياته، وفي سياق هذا، درجت العقلية الاستعمارية على اعتبار ان «تأمين» الوجود الدخيل بالبلاد، يجب ان يرتكز على قاعدة مبناها موازاة سياسة الاستيطان الفعلي بسياسة مواكبة ومتممة لها، تتعلق بالاستيطان الحضاري كسبيل لمحاولة استبدال مكونات وملامح شخصية المجتمع المستعمر (بالفتح) وافراغ ركيزته البشرية من مضمونها المتميز. واذا كان النهج الاستعماري قد اعتمد ـ على امتداد عقود من السنين ـ تكتيكات من هذا القبيل، دون ان يجد مجالا لمركزة اثارها بالقدر المأمول، فان التفجير الكلي الذي احدثته ثورة الملك والشعب قد بلور بهذا الصدد، حقيقتين اساسيتين، اولاهما : تأكد عبثية المشروع الاستعماري بشأن امكانية تحويل الانتماء الفكري والحضاري المغربي عن وجهته المرتبطة بجذور نسبه وعراقتها، وثانية هاتين الحقيقتين، اقتران الاستقلال ـ فور حصوله ـ بتداعي بناء السياسة التي قام عليها «الاحتلال الحضاري» للمغرب، واستعادة القيم الحضارية الوطنية نصاعتها وفاعليتها ـ وهي فاعلية حية ومؤثرة ـ في حظيرة المجتمع المغربي.

على هذا النحو الذي تعرض صورته جملة الامثلة الانف ذكرها، يتكامل مظهر الشمولية في دلالات الحسم الماثل من خلال الاوضاع التي احداثها منطلق يوم 20 غشت 1953، في مجال تصحيح مسار التاريخ، وبناء قنواته الجديدة، وهذه الصفة الشمولية للحسم، لم تكن الانتاجا مطابقا لشمولية الجهد النضالي الذي كان اساسا لانجازه، فبقدر ما كان هذا الجهد جسيما باهظا مكلفا وطويل النفس، ومغمورا باجواء مفعمة بدواعي المكابدة والمعاناة، بقدر ما كانت قوة الحسم الناتج عن كل ذلك عميقة الوقع، وذات طبيعة جذرية فيما لها من اثار مباشرة على مستوى التحرر الوطني، وانعكاسات ابعد، على الصعيد الاقليمي والقاري وغيره.

عندما انبثقت الانطلاقة التاريخية ليوم 20 غشت 1953، كان الوضع العالمي ـ ساعتها ـ شيئا اخر، مختلفا شديد الاختلاف عن صورة العالم كما يعرف اليوم، كان النظام الاستعماري التقليدي لايزال محتفظا ـ في اثناء الظرف ـ بالكثير من مواقعه في افريقيا اساسا، وفي غيرها بنسب متفاوتة، ولو انه كان قد انحسر فعلا في عدد من الجهات هنا او هنالك. وكان ما يدعى اليوم بالعالم الثالث، لايزال لم يتبلور ـ بعد في ملامحه السياسية والايديولوجية الراهنة، المرتبطة بالتسميات المطلقة حاليا عليه

(تسميات العالم النامي مقابل العالم الصناعي او عالم عدم الانحياز مقابل عالم التكتلات والاحلاف، او عالم الجنوب، مقابل عالم الشمال او ما شابه ذلك) وبالفعل، فان الطروح والمفاهيم التي تعبر عنها هذه التسميات لم تكن قد بارحت نطاق النظريات المنعزلة، الضئيلة - تأثيرا الى حد بعيد جدا - في السياسة الدولية، وكانت الحرب الباردة بين الشرق والغرب، تكاد تشكل - وذلك مظهر من مظاهر غياب اية مجموعة دولية او قوى لها اعتبار ما، خارج معسكري القوتين الاعظم - محور الاستقطاب الوحيد في مجال الاهتمامات والمشاغل العالمية، ولم تكن الحال مختلفة عن هذا بصورة لها اهمية، حين حصول المغرب على استقلاله حوالي سنتين وبضع اشهر بعد ذلك، الا ان التحرر المغربي كان بمثابة موعد مع التاريخ في تطوره الواسع والشامل، الذي انطلق منذ اواسط الخمسينات في اتجاه تصفية النظام الاستعماري، وما اتصل بالامر، من بروز توازنات ومعادلات دولية جديدة، نتيجة لشمول الاستقلال معظم بلدان العالم، وتغير تركيبة الامم المتحدة والمنظمات المتفرعة، ونتيجة كذلك، لتبلور رؤى ومعطيات ومضامين مستجدة على مسرح الحياة العالمية في مناحيها السياسية والاقتصادية، وعلى صعيد العلاقات بين الامم، لقد انحسر الاستعمار عن منطقة المغرب العربي بالذات، غداة انحساره عن المغرب، وما ان انقضى بعد ذلك عقد من الزمن، حتى كانت اقطار افريقيا السوداء، قد اصبحت في معظمها دولا مستقلة، ومتعاونة في نطاق رابطة اقليمية تنتظمها، هي منظمة الوحدة الافريقية قبل ان تتسرب اليها المناورات المعروفة، وتعزز وزن واعتبار الجامعة العربية، بعد انضمام الجناح الغربي للعالم العربي اليها، مع الجناح الشرقي، واصبح للعالم الاسلامي، منظمة دولية جامعة لشتاته، كان رائدها المغرب بالذات.

□ لقد كان المغرب من بين آخر بلدان العالم الثالث، وقوعا تحت وطأة الاستعمار، وفي طليعة الاقطار التي تحررت - مبكرا - منه.

□ ولهذا التوقيت، التوقيت المبكر لاستقلال المغرب بالنسبة لكثير من البلدان خلافه.

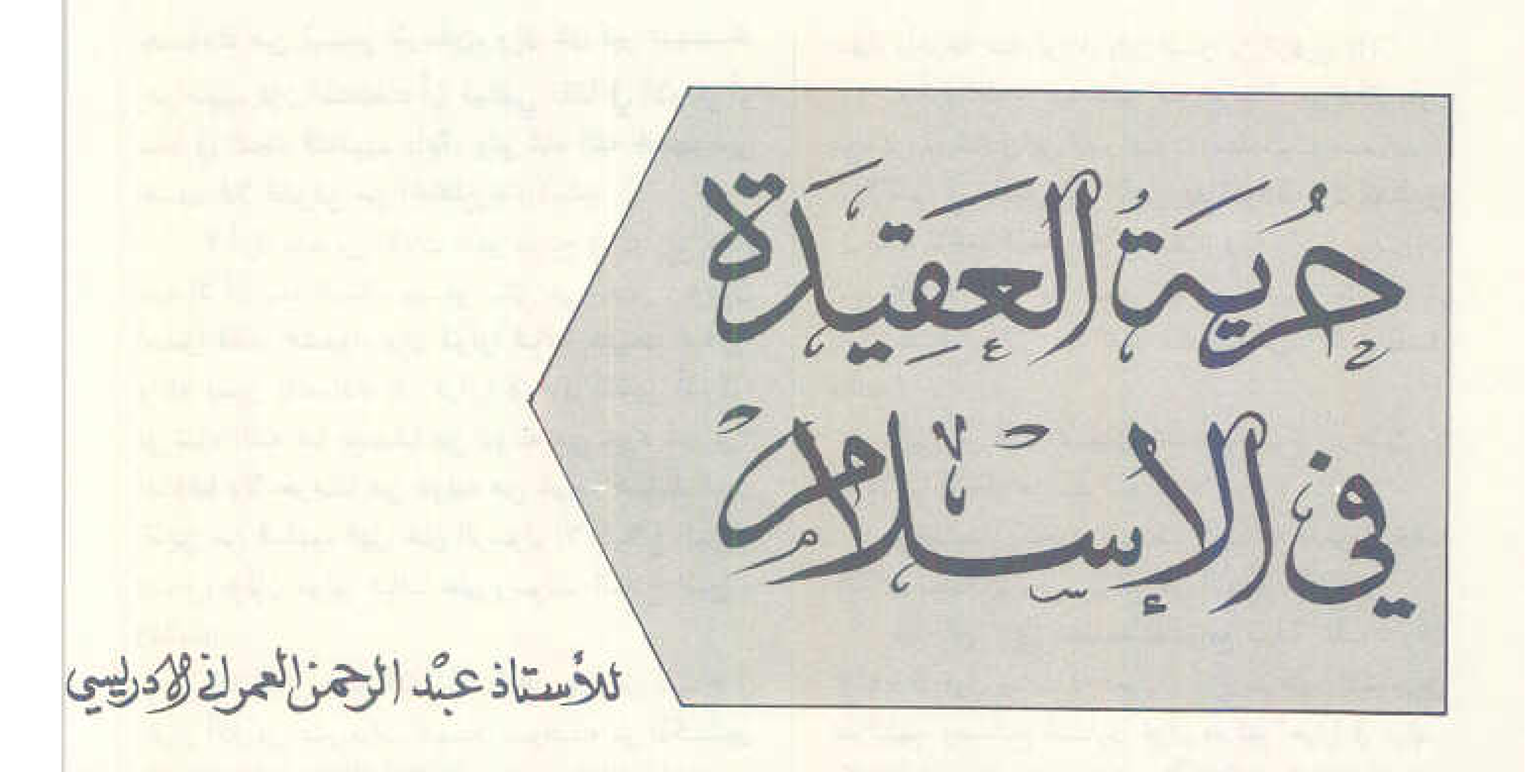
□ ثم ولخصوية اشعاع المثال النضالي المغربي وإلهاميته، ومقدرته - بالتالي - على ان يكون قدوة للاحتذاء، قدوة موحية لتيارات التحرر بافريقيا وسواها، وحافزة وهادية.

□ لهذا ولغيره، كان انعتاق هذه البلاد من ربقة الاستعمار، ارهاصا مباشرا بتراجع المد الاستعماري تراجعا سريعا وكثيفا في شتى الانحاء، افريقية وغير افريقية.

□ ولقد كانت ثورة الملك والشعب، طليعة رائدة في هذا السبيل.

□ وكان يوم 20 غشت 1953 موعدا مع التاريخ، تاريخ انطلاقة مرحلة الحسم، في مضمون هذا المنعطف النضالي الكبير.

المهدي البرجالي



لعل الإسلام أول دين ألزم أهله ومعتنقيه احترام حرية عقيدة ودين الآخرين، فليس بـــائغ للمسلم أن يحمل غيره بطريقة الإكراه والقسر على ترك عقيدتـه ودينـه ليكون مسلما؛ لأن مثل هذا الإسلام - ان حدث - لا يتجاوز في حقيقة أمره أن يكون اكذوبة وفرية، إذ الإيمان الصحيح ما كان نابعا من القلب والضمير، وليس مجرد كلمات تنطق بها الشفاه، ويتحرك بها اللسان.

قال تعالى في أوائل ما أنزل على نبيه سيدنا محمد ﷺ :

﴿ولو شـاء ربـك لآمن من في الارض كلهم جميعـا. أفـأنت تكره النـاس حتى يكـونـوا مـومنين﴾ سورة يونس أي لايجوز لك أن تفعل ذلك.

وهكـذا أصبح محظـورا على رسـول الإسـلام منـذ اللحظات الأولى من عهد الرسـالـة أن يحمل النـاس قسرا على إتباع دينه بالرغم من أنه الدين الحق عند الله، وكيف يبيح الله لنبيه أن يفعل ذلك، وقد جرت سنته سبحـانـه على أن لايكره عبـاده - وهـو خـالقهم ورازقهم ومحييهم ومميتهم - على الإيمان به بل انه ترك لهم حرية الاختيار ليتحملوا مسؤولية ذلك وتبعته، وهذا ما يشير إليـه صدر الآيـة، كا يشير إليـه قوله تعالى : **﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله﴾** (الإنسان)

أي ما تشاءون الإيمان والهداية وفعل الخير إلا أن يشاء الله لكم ذلك بأن يكرهكم عليه مخالفا لما جرب به سنته من ترك حرية الاختيار لعباده، وعدم أخذهم بالقسر والغلبة.

وعلم الله سبحانه ما يصيب نفس نبيه - وقد أمر بعدم إكراه الناس على إتباع دعوته - من ضيق وحرج نتيجة عدم إيمانهم جميعا به، وعدم مسارعتهم لتلبية مادعاهم إليه؛ فأنزل عليه من أوامر الصبر والتحمل، وقصص من سبقه من الرسل الذين تعرضوا المثل مـا تعرض ويتعرض لـه من الجحود والادبار ما كان له فيه تسلية وسلوى وهدوء وطمأنينة.

﴿ولقـد نعلم أنـك يضيـق صدرك بما يقـولـون فسبح بحمد ربك، وكن من السـاجدين﴾ (الحجر).

﴿فلعلك باخع نفسـك على آثـارهم إن لم يومنوا بهذا الحديث اسفا. إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبـولهم أيهم أحسـن عملا، وانـا لجاعلـون مـا عليهـا صعيدا جرزا﴾ (الكهف).

﴿قد نعلم أنـه ليحـزنـك الـذي يقـولـون فـإنهم لايكذبونك، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدن ولقد كذبت رسل من قبلك، فصبروا على ما كـذبوا واوذوا حتى أتـاهم نصرنـا، ولا مبـدل لكلمـات اللـه، ولقـد

جـاءك من نبـإ المرسلين، وإن كان كبر عليـك إعراضهم، فإن استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتاتيهم بآية، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى، فلا تكونن من الجاهلين﴾ (الأنعام).

كما أنزل عليه من الآيات ماهو صريح في أنه ﷺ ليس عليه إلا أن يبلغ الرسالة، ويدعو بالتي هي أحسن : ﴿فإن أسلموا فقد اهتدوا، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ. والله بصير بالعباد﴾ (آل عمران) ﴿وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء، كذلك فعل الذين من قبلهم، فهل على الرسول إلا البلاغ المبين﴾ (النحل) ﴿فإن تولوا فإنما على رسولنا البلاغ المبين﴾ (المائدة).

وقد تكرر هذا القصر لمهمة الرسول على البلاغ في القرآن أكثر من عشر مرات محددا موقفه من المكذبين والمعرضين بما يؤصل المبدأ الإسلامي في حرية الاعتقاد.

﴿فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا، إن عليك إلا البلاغ﴾ (الشورى) وما شرع القتال في الإسلام إلا دفاعا عن النفس، وحماية لحرية العقيدة، ولم يقع ذلك إلا في السنة الثانية من الهجرة، وبعد أن أصاب المسلمين ما أصابهم من أذى واضطهاد، وظلم وتعسف؛ فأنزل الله قوله : ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا، ولينصرن الله من ينصره، ان الله لقوي عزيز، الذين إن مكناهم في الارض أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور﴾ (الحج).

فقد نقل الواحدي وغيره أن المشركين كانوا يأذونهم، وكانوا يأتون النبي ﷺ بين مضروب ومشجوج، ويتظلمون إليه صلوات الله تعالى وسلامه عليه؛ فيقول لهم : أصبروا فإنني لم أومر بالقتال حتى هاجروا فأنزلت هذه الآية، وهي أول آية نزلت في القتال بعدما نهى عنه في نيف وسبعين آية على ما روى الحاكم في المستدرك عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرجه عبد الرزاق وابن المنذر عن الزهري (1).

ثم أنزل الله ما فيه الأمر الصريح بقتال من قاتل دون غيره ممن لم يقاتل ممن التزم السلم؛ وذلك قوله سبحانه : ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم، ولا تعتدوا ان الله لايحب المعتدين﴾ (البقرة) ولهذا لم تكن غزوات النبي ﷺ إلا دفاعا عن النفس وحماية للعقيدة حتى أنه مر بامرأة مقتولة؛ فقال : «ما كانت هذه لتقاتل» (2) أي فلماذا قتلت ؟

ونهى عن قتال الصبيان والنساء والشيوخ والرهبان إلا ان يقاتلوا كما جاء عن عبد الله بن عمر مرفوعا (3).

ولقد سار المسلمون وفق هذا المبدأ واحترموه احتراما كاملا في معاملاتهم وحروبهم مع أهل الأديان الأخرى.

فهذا النبي ﷺ عقد معاهدة مع قبيلة تغلب ـ وكان الإسلام قد قوي ودانت له العرب ـ أباح لهم فيها البقاء على نصرانيتهم، وصالح نصارى نجران فتركهم أحرارا في دينهم، وكان المسلمون من بعده يتركون لأهل البلد الذي يفتحونه حرية التمسك بدينهم.

جاء في المعاهدة التي عقدها عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع أهل بيت المقدس يوم فتحه : «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عمر أمير المومنين أهل إيلياء من الأمان : أعطاهم أمانا لأنفسهم ولكنائسهم وصلبانهم، لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صلبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم» (4).

وورد في معاهدة عمرو بن العاص رضي الله عنه مع أهل مصر بعد فتحها : «بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم لا يدخل عليهم شيء من ذلك، ولا ينتقص، ولا يساكنهم النوب وعلى أهل

---

1) الألوسي : روح المعاني : 17 / 146 ـ 147.
2) مسند الإمام أحمد.
3) أخرجه البخاري ومسلم.
4) الطبري : 3 / 105. مطبعة الاستقامة ـ القاهرة.
تاريخ اليعقوبي : 2 / 147. مطبعة دار صادر، ودار بيروت 1379 هـ ـ 1960 م.

مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح...» (5)

وإذا كان بعض المستشرقين والمؤرخين ممن أعماهم التعصب تعبوا في إثبات غير هذه الحقائق، وزعموا كذبا وزورا أن انتشار الإسلام السريع مدين لقوة السلاح، وأن القوة والعنف وحدهما أوجبا اعتناق الشعوب المغلوبة للإسلام، فإن بعض فضلاء أولئك - كما يقول «حيدرباشات» في كتابه «مجالي الإسلام» «قد ثاروا في كل وقت على هذه النظرية المبسطة الحاقدة» ثم نقل عن «روبرتسن» قوله : «إن المسلمين وحدهم هم الخمس الذين جمعوا بين التسامح وغيرة التبشير، فلما حملوا السلاح لنشر مذهب نبيهم أباحوا للذين لم يريدوا اعتناق هذا المذهب أن يبقوا متمسكين بدينهم» ونقل عن «ميشود» قوله : «منع محمد قواده من قتل الرهبان، لأنهم رجال صلاة ولما استولى عمر على القدس لم يمس النصارى بسوء، ولما صار الصليبيون سادة هذه المدينة المقدسة ذبحوا المسلمين بلا رحمة، وأحرقوا اليهود».

وقال رئيس الدير ميشو في كتابه «رحلة إلى الشرق» : «إن من المحزن لدى الأمم النصرانية أن يكونوا قد تعلموا من المسلمين التسامح الديني الذي هو دستور الإحسان من شعب إلى شعب».

وأصرح من ذلك غستاف لوبون فقد قال «في حضارة العرب» : «لم تكن القوة عاملا في انتشار القرآن قطعا، فقد ترك العرب المغلوبين أحرارا في المحافظة على دينهم، وإذا حدث أن اعتنقت الشعوب النصرانية دين غالبيهم فذلك لأن الفاتحين الجدد بدوا أكثر عدلا نحوها مما كان عليه سادتها السابقون، ولأن دين هؤلاء الفاتحين كان من البساطة البالغة ما لم تعرفها الشعوب النصرانية حتى ذلك الحين... ولم يفرض القرآن بالقوة بل بالإقناع.. والإقناع وحده هو الذي كان يمكن أن يجلب إلى اعتناقه الأمم التي قهرت العرب مؤخرا كالترك والمغول، وبلغ من انتشار القرآن في الهند التي لم يكن العرب فيها غير عابري سبيل في الحقيقة أن زاد عدد أتباعه فيها اليوم على خمسين مليون (كان هذا سنة 1884 عندما كتب غوستاف لوبون تلك السطور، وقد صار عدد المسلمين بالهند اليوم يناهز مائتي مليون، ويرتفع عدد هؤلاء يوما

5) الطبري : 3 / 199.

فيوما، ومع أن الإنجليز هم سادة الهند الحقيقيون في الوقت الحاضر (سنة 1884 م) يجهزون فيها جيشا حقيقيا من المبشرين لتنصير المسلمين، فإنه لم يعرف مثال واحد على التنصير كللت به جهودهم نجاحا.

وقد لاحظ المسيو إدوارد مونته الذي درس تقدم الإسلام في المستعمرات وفي بلاد الحماية الفرنسية بافريقيا على الخصوص : «أنه يستنتج من الملاحظات التي عرضناها والوقائع التي لخصناها أن الإسلام يتقدم وينتشر، حتى أن من الممكن أن يقال إن الإسلام يشغل المكان الأول في زمرة الأديان القائمة على الدعاية. كما يؤكد ذلك شهادة مبشري النصارى.

وذلك على الرغم من خلو بلاد الإسلام من كل جهاز رسمي قائم بنشر الدين مشابه لمنظمة الدعوة إلى الإيمان بالكنيسة الكاثوليكية، أو للجمعيات التبشيرية الكنسية البروتستانية التي تمارس رسالتها في جميع أنحاء العالم؛ فتستند إلى موازنات تبلغ أرقامها الملايين.

وتلك الوقائع بليغة لا تحتاج إلى تعليق، وليست قضية الإكراه مما يدافع عنه، وهي إذا كانت مخالفة للحقيقة التاريخية بالنسبة إلى أدوار سلطان الإسلام فإنها مجردة عن كل معنى بالنسبة إلى أدوار تفتت البلاد الإسلامية وقهرها، والحق أن ما تم للإسلام من نجاح رائع في بدء أمره مدين لعلل أخرى أبعد غورا وأكثر إنسانية معا» (6).

وعلى أساس احترام حرية الدين أباح الإسلام للمسلم أن يتزوج الكتابية مع بقائها على دينها، ولم يكتف بأن يمنعه من إكراهها على دينها بل منعه أيضا من أن يرغمها على ترك أداء عبادتها ومزاولة شعائرها في بيته فلزوجة المسلم الكتابية أن تباشر طقوس دينها في بيت زوجها وعلى مرأى ومسمع منه من غير أن تخشى غضبه بل وحتى تبرمه الباطني ما دام دينه لا يتبرم من ذلك ولا يكرهه.

وكما لم يرض الإسلام أن يعتنقه الناس عن إكراه وجبر ولكن عن رضى وطواعية لم يرض أن يعتنقوه عن تقليد واتباع ولكن عن يقين واقتناع؛ فدعا إلى إعمال النظر والفكر، وأهاب بالناس أن ينبذوا طريقة التقليد ويسلكوا

6) مجالي الإسلام / 39 - 41. تعريب عادل زعيتر. طبع دار إحياء الكتب العربية - القاهرة 1956 م.

سبيل الدليل العقلي، والبرهان المنطقي، ومن ثم عاب على المشركين ما كانوا يتمسكون به من تقليد لآبائهم وأجدادهم، قال تعالى : ﴿**وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون**﴾ (البقرة) وقال : ﴿**وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا. أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون**﴾ (المائدة) كما نصح المسلمين أن يكون عمادهم في الدعوة إلى الله التذكير بالحكمة والموعظة الحسنة، وفي مجادلة خصومهم قرع الحجة بالحجة، واستعمال المنطق قال تعالى مخاطبا نبيه : ﴿**أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة. وجادلهم بالتي هي أحسن**﴾ (النحل) وقال مخاطبا المومنين : ﴿**ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن**﴾ (العنكبوت).

ودعا أهل الأديان الأخرى لا إلى المبارزة بالسيف والحراب ولكن إلى مجابهة الدليل بالدليل والبرهان بمثله، قال سبحانه : ﴿**قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين**﴾ (البقرة) ﴿**قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا**﴾ (الأنعام) ﴿**قل ارأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السماوات، ائتوني بكتاب من قبل هذا أو اثارة من علم إن كنتم صادقين**﴾ (الأحقاف).

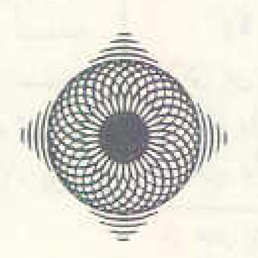
وكوسيلة لإغراء هؤلاء الخصوم على ولوج ميدان المناقشة والمحاججة تظاهر القرآن جدلا بأنه لا يدري : أهم على الباطل والمومنون به على الحق، أم العكس هو الواقع قال تعالى : ﴿**وانا وإياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين**﴾ (سبأ).

وإن دل هذا التظاهر والتنازل على شيء فإنما يدل على مدى وثوق القرآن من قوته وقوة دعوته بحيث لا يستطيع خصومه منازلته في ميدان البرهنة والمحاججة ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا.

ولم يعترف الإسلام بالرسالات السماوية التي سبقته فقط، ولكنه جعل ذلك الاعتراف بعض الإيمان وجزء منه، فلن يكون المسلم مسلما حتى يومن برسالة كل الرسل ويصدق بكل ما جاءوا به : ﴿**ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيئين** ...الآية (البقرة)، ﴿**إن الذين يفرقون بين الله ورسله، ويقولون نومن ببعض ونكفر ببغض، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقا، واعتدنا للكافرين عذابا مهينا**﴾ (النساء) ﴿**نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه، وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان**﴾ (آل عمران).

إلى غير هذا من الآيات الواردة في هذا المعنى ﴿**قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيئون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم، ونحن له مسلمون**﴾ (آل عمران).

عبد الرحمن العمراني الإدريسي



دور أعلام من دكالة في ربط الصلات الثقافية بين المغرب وجهات من العالم الاسلامي

للأستاذ محمد المنوني

مدخل :

كانت منطقة دكالة خلال العصر الوسيط الرابع (1)، تستوعب الرقعة الممتدة بين نهر أم الربيع شمالا، إلى نهر نسيفة جنوبا، في طول يبتدئ من منحدرات الأطلس المتوسط شرقا، إلى المحيط غربا.

وبهذا فهي تستقطب دكالة الحمراء : عبدة وما إليها، كما تشمل دكالة البيضاء وهي الشمالية، حيث تميزت هذه - مع مر الزمن - باسم «دكالة».

وسيتجاوب هذا التدخل مع الفترة المعنية، فيلم بملامح عن النشاط الثقافي بدكالة الكبرى إلى بداية المد البرتغالي، وذلك ما يواكب - تقريبا - نهاية العصر الوسيط الرابع.

غير أن قلة المصادر التي تؤرخ لهذه الحقبة : تترك - في العروض - فراغات لا مناص منها، في انتظار الكشف عن معلومات جديدة.

وأول ظاهرة لهذا الفقر في المستندات : أن المراكز التعليمية في هذا العصر : لا يزال المعروف منها محدودا.

ويأتي في طليعتها «رباط تيط» : مدينة الأشراف بني أمغار ومن إليهم.

وبعدها مدينة «يمويمن»، وكانت مزدهرة العمران إلى أواخر العصر الموحدي.

وثالثا «قرية تافرنت» : في بلد بني دغوغ.

ثم «رباط أبي محمد صالح» بآسفي : المدينة التي ازدهرت - في العصر المريني - بالمدرسة والمارستان.

مع «مدينة الغربية» : مسكن قبيل مشتنزاية.

على أن أشهر هذه المراكز التعليمية : هي مدينة أزمور، حيث المدرسة المرينية.

وبالإضافة إلى تيط والرباط الصالحي : كان بالمنطقة رباطات للتربية الصوفية والتعليم.

---

1) هذا تقسيم جديد للعصر الوسيط اقترحه كفوتي دالشي، على أن يمتد العصر الوسيط الرابع من نهاية دولة الوحدين إلى قيام السعديين، «مجلة البحث العلمي» بالعدد 10 سنه 1967/1387 : ص 116.

ومن الإشارات العابرة لنشاط التعليم بدكالة خلال فترة من هذا العصر : ما يجله ابن قنفذ القسطيني (2)، فيلاحظ أنه وجد بها - عام 769 هـ - خمسة وعشرين مدرسا.

ويذكر عن عالم من صنهاجة أزمور : أنه أعرف أهل قبيله بإقراء كتاب «التلقين» للقاضي عبد الوهاب البغدادي (3).

وعن مدينة أزمور بالذات : ترد ترجمة قصيرة عند ابن القاضي (4) هكذا : «إسحاق الزموري : من المقرئين بأزمور، وكان هو وأخوه يتكلمان على كتاب «التهذيب» للبراذعي، وأخذا - معا - عن الإمام إبراهيم الأعرج، وكانا صالحين فقيهين جليلين».

ويقول الصومعي (5) عن بني أمغار سكان رباط تيط : «إنهم أعلام اما في الصلاح والعلم، أو في الصلاح».

هذا إلى أنه يتخلل كتاب «بهجة الناظرين» إشارات للحركة العلمية بالرباط المنوه به، مع ذكر بعض مؤلفات قدمت لخزائن بني أمغار.

وقد درس على أحد هؤلاء الأشراف عالم جليل : هو أبو عمران الزناتي : موسى بن أبي علي الأزموري، فيذكر أنه قرا المدونة : (كتاب التهذيب) للبراذعي وجملة من فنون العلم على أبي الحسن علي بن أبي عبد الخالق ابن أمغار.

ويعد أبو عمران الزناتي من مفاخر دكالة في عصره : براعة في علوم الفقه والحديث واللسانيات، وتدريسا لهذه المواد، وتدوينا فيها لمؤلفات لا يزال بعضها بقيد الوجود.

وقد انتقل عن بلده إلى مراكش، فكان من الآخذين عنه ابن البنا المراكشي.

وبقاعدة الجنوب كانت وفاته عام 714 (7) «14 - 1315».

وإلى أبي عمران الزناتي : يرد ذكر أعلام شعت معارفهم على جهات من المغرب، ومن نماذجهم يحيى الدكالي، كان بقيد الحياة - عام 723 «1323» - بسبتة، حيث صار زعيم فقهائها، إلى معرفة بأصول الفقه والأدب (8).

كما أن أبا زيد عبد الرحمن الصنهاجي الأزموري : انتقل - خلال المائة الهجرية السابعة - للسكنى بمليلية، ومنها انتقل عقبه إلى فاس، فكان هو جد قبيل بني المليلي : العائلة العلمية المعروفة بهذه المدينة (9).

وفي أوائل القرن الهجري التاسع : سكن بالمدينة الأخيرة إبراهيم بن موسى المشنزائي، وبها تناسلت منه أسرة علمية مرموقة، كانت هي بيت بني إبراهيم الدكاليين بفاس (10).

☆ ☆ ☆

والآن بعد هذا المدخل : ستتركز هذه المساهمة على تحليل ظاهرة يتسم بها إقليم دكالة، فكان لعدد من أعلامه رحلات واسعة ساهموا بها في ربط الصلات الثقافية - تلقائيا - بين المغرب وأجزاء من العالم الإسلامي : بالسودان وتونس، إلى مصر والشام والحرمين الشريفين، وإلى الهند.

---

2) «أنس الفقير» : منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي بالرباط 1965 : ص 71.

3) «المصدر» ص 72.

4) «جذوة الاقتباس» دار المنصور بالرباط 1973 : رقم 118.
«درة الحجال» دار التراث بالقاهرة 1970/1390 : رقم 291، وتصحف فيها أزمور بأزروا.

5) محمد الكانوني : «أسفي وما إليه» مطبعة مصطفى محمد بالقاهرة 1353 هـ : ص 16.

6) انظر عنه خاتمة هذا البحث عند رقم 12.

7) ترجمته وبعض مصادرها ومراجعها عند ابن إبراهيم في «الإعلام» المطبعة الملكية بالرباط 1977 : 299/7 - 300.
مع إضافات جديدة في ترجمة له دفينة قبيل بداية مخطوط «شرح البردة» للجادري : في خزانة القرويين رقم 643، وهي التي اعتمدت في تحديد وفاة المترجم.

8) ترجمته في «جذوة الاقتباس» رقم 630، مع «نيل الابتهاج» المنشور في القاهرة بهامش الديباج 1351 هـ : ص 356.

9) «بيوتات فاس الكبرى» دار المنصور بالرباط 1972 : ص 47 - 48، مع سلوة الأنفاس» 348/1.

10) المصدر الأخير 355/3.

ويبدو أن معظم السبب في ذلك يرجع إلى جماعة أبي محمد صالح دفين أسفي، فكان من سيرة شيخها دعوة الداخلين في طريقته لأداء شعيرة الحج، ولا يعذر في ذلك بالعجز والفقر، ولم يزل هذا - بعد وفاته - سيرة من خلفه من شيوخ الرباطات الصالحين (11).

1 - ومن معطيات هذه الدعوة في ربط الصلات بين المغرب والمشرق : ما يذكره مؤلف «المنهاج الواضح» (12) قائلا عن أبي محمد صالح : «ولم تزل جملة من تلاميذه - رحمه الله - مقيمين ببلاد مصر والشام، فمتى ورد من المغاربة أحد وأراد الإقامة بهما قبل أن يحج : فإن كان ذلك لعدم أعانوه وتسببوا له، وإن كان لغير ذلك هجروه وزجروه وقاطعوه حتى يحج».

وكان أبناء أبي محمد صالح وأحفاده من السباقين في وصل المغرب بالمشرق، فيتردد عدد منهم للحج والزيارة ورعاية المراكز الصالحية، المنبثة - عبر طريق الحاج - إلى مصر والشام.

2 - ويأتي في مقدمة هؤلاء : أبو العباس أحمد بن الشيخ أبي محمد صالح، المتوفى عام 660 «1262»، حيث تكرر سفره للحج (13)، ووصل إلى بغداد فأخذ بها عن شهاب الدين أبي حفص عمر السهروردي (14).

3 - ثم أخوه عبد العزيز بن أبي محمد صالح، وقد استوطن القاهرة إلى أن توفي بها عام 646 «1248»، حيث دفن في المحلة الكبرى.

وكان له اتصال بمجموعة من الأعلام المشارقة : منهم الشيخ عبد العزيز بن أحمد الديريني (15)، وكذلك شرف الدين البوصيري : محمد بن سعيد الصنهاجي صاحب قصيدتي «البردة» و«الهمزية»، ومدح هذا الأخير عبد العزيز الصالحي ومعه أسرته : بقصيدة مطولة (16) يقول في مطالعها :

قفا بي على الجرعاء من جانب الغرب
ففيها حبيب لي يهيم به قلبي

قريب إلى سري بعيد مرامه
فنيت به وجدا على البعد والقرب

إلى أن يقول :

وما أنا من دكالة غير أنني
نسبت إليهم نسبة الصدق في الحب

كنسبة سلمان لبيت نبيه
وما كان منهم في قبيل ولا شعب

4 - وبعد عبد العزيز الممدوح بهذه القصيدة : يسكن بالإسكندرية ابن أخيه : إبراهيم بن أحمد بن أبي محمد صالح.

5 - وبها ولد ابنه أبو العباس أحمد مؤلف «المنهاج الواضح»، فنشأ هذا الأخير ببلدة مولده، ودرس بها وفي بجاية.

6 - وحين جاء دور أحمد بن يوسف الصالحي : ربط بين المغرب والمشرق عن طريق الركب الحجازي المغربي، حيث ولي مشيخته أيام أبي الحسن المريني (17).

7 - ومن تلامذة أبي محمد صالح المقيمين بجهات أخرى : محمد بن أبي القاسم السجلماسي العالم الموحد : في بجاية (18)، وكان بها - فيما يبدو - رباط صالحي يشرف عليه المنوه به.

8 - على أن الشيخ إسحاق المغربي من نفس الطائفة : مدد مجال سياحته حتى استقر بالهند، وبأحد مدنه كانت وفاته عام 776 «1375» بعد ما ناهز عمره 120 سنة (19).

---

11) «المنهاج الواضح» تأليف أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن أبي محمد صالح، المطبعة المصرية بالقاهرة 1352 / 1933 : ص 352.

12) ص 353.

13) «المنهاج الواضح» ص 144.

14) «المصدر» ص 294 - 295.

15) «المصدر» ص 145 و340.

16) «المصدر» ص 152 - 158، حيث وردت القصيدة كاملة.

17) «المصدر» في مواضع متفرقة، مع «ركب الحاج المغربي» ط. تطوان ص 8.

18) ترجمته عند الغبريني في «عنوان الدراية»، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر 1970/1398 : ص 132 - 133.

19) «نزهة الخاطر وبهجة المسامع والنواظر» تأليف عبد الحي بن فخر الدين الحسني : الجزء المنشور منها عن تراجم علماء الهند وأعيانها في القرن 8 هـ، تذييلا على الدرر الكامنة لابن حجر : مطبعة دائرة المعارف العثمانية في حيدر آباد الدكن 1350 هـ : ص 13.

ومن دفين الهند مضافا له الأسماء الواردة قبله : يتبين مدى مساهمة الجماعة الصالحية في تنظيم الصلات الثقافية بين دكالة وأجزاء من العالم الإسلامي.

وبذلك مهدوا للاخرين حتى يقوموا ـ تلقائيا ـ بنفس الدور، فكانوا أعدادا من دكالة نجتزي منهم بهذه النماذج :

السودان الغربي :

9 ـ بدءا من مملكة مالي القديمة غربي إفريقيا، فيتجول بين جهاتها أبو عثمان سعيد الدكالي، ويسكن في عاصمتها «ملتي» خمسا وثلاثين سنة، ثم يسافر إلى المشرق فيتصل به ابن فضل الله العمري، ويفيد منه في التعريف بغرب السودان، حيث يصفه بالشيخ الثقة الثبت خلال نقوله عنه في «مسالك الأنصار» (20).

وقد عاش الرحالة الدكالي في النصف الأول من القرن الهجري الثامن، علما بأن العمري الناقل عنه توفي عام 749 هـ، بعدما عاش تسعا وأربعين سنة.

وإلى قريب من هذه المنطقة يسافر العالم الدكالي : عبد الله بن أحمد بن سعيد بن يحيى الزموري شارح الشفا، وقد وصل إلى بلاد «ولاتة» وأقرأ أهلها (21)، وكان ممن أخذ عنه عمر بن محمد أقيت التنبكتي، حيث أجازه بكتاب «الشفا» للقاضي عياض، وكذلك أجاز به المختار بن الفقيه أيد محمد (22).

بجاية :

11 ـ ومن المغاربة الذين استوطنوا «بجاية» أبو سعيد بن تونارت الدكالي : من المائة الهجرية السابعة، ويقول عنه الغبريني : (23) «كان من المدرسين ببجاية، وحافظا للفقه، محصلا للمدونة، جيد الإلقاء، مليح التفهيم...».

تونس :

12 ـ أقام بها ـ في طريق الحج ـ محمد الدكالي العالم السني، وكان يحفظ موطأ الإمام مالك (24)، وهو صاحب المناقشة مع ابن عرفة في تونس، ثم مع البرزلي بالإسكندرية (25)، وبالبلدة الأخيرة كانت وفاته عام 799 «96 ـ 1397» (26).

13 ـ وفي طريق الحج ـ أيضا ـ أقام بتونس أحمد الماجري العالم الصالح، وبها لقيه محمد بن قاسم الرصاع، فذكره في فهرسته (27) ونوه بفضله، ثم ترجمه السخاوي (28) هكذا : أحمد بن محمد بن علي : أبو العباس المصمودي الماجري ـ بجيم معقودة بينها وبين القاف ـ المغربي نزيل المدينة النبوية، قرأ عليه ابن أبي اليمن : «البخاري»، بروايته له عن أبي عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق شارح البردة... ورأيت سماعه له ـ أيضا ـ على الجمال الكازروني ـ بالمدينة ـ سنة سبع وثلاثين (وثمانمائة) «33 ـ 1434».

والظاهر أن هذا هو رفيق إبراهيم التازي في وجهته للبلاد المشرقية، وهو ـ أيضا ـ المذكور بين أشياخ محمد بن محمد بن علي الشهير بالفرواصني (30).

القيروان :

13 ـ كان بها محمد بن سحنون الدكالي المتوفى عام 696 «1297»، وبها أخذ عنه مؤرخها العواني، فيقول

---

20) الجزء الأول مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة 1342 / 1924 ص 70، مع مواضع أخرى بالقسم المخطوط من «مسالك الأبصار».

21) «نيل الابتهاج» ص 161.

22) «فتح الشكور» تأليف محمد بن أبي بكر الصديق بالرتلي الولاتي دار الغرب الإسلامي في بيروت 1401 / 1981 : ص 113 و177.

23) «عنوان الدراية» ص 222.

24) «فهرست الرصاع»، نشر المكتبة العتيقة بتونس 1967 : ص 73.

25) «نوازل البرزلي» خ، س 8441 : أوائل السفر الأول، ونقل ذلك الحطاب في «شرح المختصر الخليلي» مطبعة السعادة بمصر 1328 هـ : 457/1 ـ 458.

26) «إنباء الغمر بأنباء العمر» لابن حجر العسقلاني مطابع شركة الإعلانات الشرقية بالقاهرة 1389/1969 : 543/1.

27) ص 192.

28) «الضوء اللامع» نشر مكتبة القدسي بالقاهرة 53 ـ 1355 هـ : 156/2، مع «التحفة اللطيفة» لنفس المؤلف مطبعة دار نشر الثقافة بالقاهرة 1399 / 1979 : رقم 289.

29) «النجم الثاقب» لابن صعد خ.س 2491 ص 14.

30) «نيل الابتهاج» ص 322.

عن شيخه من فقرة مطولة : «وكان عالما بأصول الدين والعلوم الظاهرة والباطنة...».

ومن القيروان انتقل إلى سوسة حتى توفى بها (31)، حيث لا يزال مشهده معروفا تميزه قبة عالية جوار زاوية الإمام يحيى بن عمر عند باب البحر من مدينة سوسة (32)، ورثاه يحيى بن عتيق الهواري بقصيدة يقول في مطالعها :

أيا سوسة الغراء نورك يلمع
بنور إمام في ترابك يضجع

بك العالم المشهور في الناس فضله
إمام جليل القدر عالم مرفع

إلى أن يقول :

لدكالة الغراء يعزى وإنه
لشمس الضحى والبدر في الأفق طالع (33)

14 - وإلى محمد بن سحنون يستوطن القيروان عبد الملك بن عبد القاهر الدكالي، وهو من طبقة رجال الصلاح والزهد (34).

ليبيا :

15 - لمع فيها اسم العالم الصالح عبد الواحد بن محمد الدكالي : أستاذ الشيخ عبد السلام الأسمر، عاش إلى صدر القرن الهجري العاشر، ومدفنه في مسلاتة (35).

الإسكندرية :

15 - أبو القاسم سحنون : عبد الرحمن بن عبد الحليم بن عمران الأنصاري الأوسي ثم الدكالي المتوفى - بالأسكندرية عام 695 «1296»، وكان من أئمة المذهب المالكي، مفتيا مقرئا متفننا.

أخذ عنه شمس الدين الذهبي، وهو يعرض جملة من تلامذة أستاذه هكذا : «روى عنه ابن الظاهري وولداه، والمزي، والبرزالي، وابن سيد الناس، والشيخ رافع، وابن شامة، وغيرهم».

وزاد الذهبي قائلا : سألت شيخنا المزي عنه فقال : شيخ جليل فاضل صاحب سنة» (36).

دمشق :

17 - وهذا أحد رجال دكالة يلقى أحد الأعلام المرموقين بالشام، فيذكر الأبلي عبد الله بن إبراهيم الزموري، حيث أخبره أنه سمع ابن تمية ينشد بيتين من الشعر، يذم فيهما محصل الفخر الرازي (37).

مكة المكرمة :

18 - يترجم السخاوي (38) لأبي بكر بن عبد الرزاق الدكالي المتوفى عام 827 «1424»، وكان تفقه بالإسكندرية وسكنها مدة، ثم انتقل منها إلى مكة المكرمة حتى توفي بها ويضيف هذا المصدر : أن الجمع في تشييعه كان وافرا، ومشى فيه صاحب مكة ومعه مقدم عسكرها.

19 - وقد سكن مكة المكرمة أيضا : ابن سارة الزموري : محمد بن سعيد بن محمد التامردي، المتوفى عام 860 «1456» : من أعلام مدينة أزمور، ثم شيخ رباط

---

31) «معالم الإيمان» للدباغ المطبعة الرسمية العربية بتونس 1320 هـ : 39/4 - 42.

32) محمد البهلي النيال : «الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي» نشر مكتبة النجاح بتونس 1384 / 1965 : ص 256، غير أن هذا المصدر جعل المترجم في عداد شيوخ الفتوة، والتبس عليه بشيخها أبي علي سالم القديدي.

33) «معالم الإيمان» 43/4.

34) «المصدر» /102.

35) ترجمته في «مواهب الرحيم في مناقب الشيخ سيدي عبد السلام بن سليم» تأليف محمد بن محمد بن عمر مخلوف التونسي، نشر الحاج صالح العلي الكتبي بتونس 1325 هـ : ص 321 - 323.

36) «معرفة القراء الكبار» للذهبي مطبعة دار التأليف بمصر 1969 : ص 555، وله ترجمة عند ابن الجزري في «غاية النهاية» دار الكتاب اللبناني 1351 / 1932 : 371/1. ثم السيوطي في «حسن المحاضرة» المطبعة الشرقية بمصر 1327 هـ : 216/1، مع «شذور الذهب» نشر مكتبة القدسي بالقاهرة 50 - 1351 : 431/5، وفيها - مع الذهبي - سمى والد المترجم بعبد الحليم باللام، بدلا من عبد الحكيم بالكاف عند ابن الجزري والسيوطي.

37) «نيل الابتهاج» ص 246، مع «نفح الطيب» المطبعة الأزهرية المصرية 1302 : 116/3.

38) «الضوء اللامع» 47/11، مع «العقد الثمين» للتقي الفاسي مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة 1388 / 1969 : رقم 2816.

الموفق بمكة المكرمة، قال السخاوي : (39) «ووصفه ابن عزم بشيخنا، وفي موضع بفقيهنا».

20 ـ وفي ترجمة أحد أعلام مكة المكرمة : (40)

جاء بين أشياخه ذكر مغربيين بهذه التحليات : «العلامة الفهامة سعيد الدكالي، وولده العلامة الحافظ محمد بن سعيد الدكالي» غير أن هذا الأخير هو المذكور ـ وشيكا ـ عند رقم 19.

المدينة المنورة :

21 ـ كان بها محمد بن محمد الأنصاري الزموري، وبها توفي بعد عام 840 «36 ـ 1437» وثابر ـ فيها ـ على تدريس الفقه والعربية، وممن أخذ عنه الشهاب أحمد بن عقيبة القفصي (41).

حلب :

22 ـ وخارجا عن الحرمين الشريفين : نشير إلى أبي العباس أحمد بن محمد الماجري المصمودي الحنبلي، المتوفى عام 838 «34 ـ 1435»، ويذكر عنه ابن حجر أنه ولي قضاء الحنابلة بحلب مرارا، وبهذه المدينة كانت وفاته (42).

☆ ☆ ☆

23 ـ وهناك جملة من الدكاليين الراحلين للدراسة بالمشرق ثم يعودون إلى المغرب، ونشير إلى نموذجين منهم، بدءا من محمد بن سعيد بن عثمان الصنهاجي الهنائي الزموري قاضيها شهر بأنقشابو، كان بقيد الحياة أواسط عام 761 / 1360.

وقد رحل إلى القاهرة ومكة والإسكندرية، وحضر ـ بالمدن الثلاث ـ على مشايخها قراءة المختصر الفقهي لابن الحاجب، وكان عالما بالفقه والحديث، مدرسا مؤلفا (43).

24 ـ أما النموذج الثاني من الراحلين للمشرق : فهو الحاج الزموري : محمد بن أحمد بن محمد بن عيسى، استمر بقيد الحياة حتى صدر المائة الهجرية العاشرة (44)، وهو مؤلف رسالة موسعة باسم «قول من لا يرائي ولا يمنع الماعون. في الوافد الوبائي المسمى بالطاعون»، ويتبين من قراءة هذه الرسالة أن مؤلفها عالم، واسع المشاركة في فروع من المعرفة، ومنها مخطوطة فريدة في المكتبة العامة بتطوان رقم.

وسيكون الحاج الزموري آخر الأسماء التي يقدمها هذا العرض، تحليلا لظاهرة مساهمة القبيل الدكالي : في ربط الصلات الثقافية بين المغرب وجهات متعددة من العالم الإسلامي.

تعقب بالإشارة إلى أسماء من نفس القبيل استوطنوا بالشرق العربي، غير أنهم استمر عليهم اللقب الدكالي، ومن نماذجهم أسرتان بمصر والحجاز :

الأولى : أسرة النقاش الدكالي بالقاهرة، وبين أعلامها نشير إلى ستة :

أ ـ محمد بن علي بن عبد الواحد الدكالي ثم المصري المتوفى 763 «1362» (45).

ب ـ ولده أبو هريرة : عبد الرحمن، ت 819 «1417» (46).

---

39) «الضوء اللامع» 252/7 : عند ترجمته التي لخصها في «نيل الابتهاج» ص 312، غير أنه تصحف فيه ابن عزم بابن عرفة.

40) «نيل الابتهاج» ص 337.

41) «الضوء اللامع» 41/10 ـ 42، مع «نيل الابتهاج» ص 305، حيث وردت به كلمة الزموري على الصواب، بدلا من الزنوري بالنون في الضوء اللامع.

42) «إنباء الغمر» 555/3.

43) ترجمته عند ابن الخطيب في «نفاضة الجراب» : السفر الثاني دار الكاتب العربي بالقاهرة دون تاريخ : ص 75 ـ 77، ومنها يستفاد تحديد التاريخ الذي كان فيه المترجم بقيد الحياة، وهي إشارة خلت منها ترجمته في كل من «جذوة الاقتباس» رقم 217، ونيل الابتهاج ص 271.
وفي افتتاحية شرح المترجم لمختصر ابن الحاجب الفقهي آتي الذكر : ينوه برحلته المشرقية، ودراسته بها لهذا الكتاب على المشايخ، حسب السفر الأول من «معتمد الناجب في إيضاح مبهمات ابن الحاجب»، خ.ع.ق 650.

44) نوه به أبو زيد عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي عند الباب الرابع من «تحفة الأكابر»، خ.س 643.

45) ترجمته عند ابن حجر في «الدرر الكامنة» مطبعة دائرة المعارف العثمانية في حيدر آباد الدكن 48 ـ 1350 هـ : 71/4 ـ 74.

46) ترجمته في «الضوء اللامع» 140/4 ـ 142.

ج ـ ابن أبي هريرة : أبو أمامة : محمد، ت 845 «1442» (47).

د ـ ابن أبي هريرة : أبو اليسر : محمد، ت 877 «1472» (48).

هـ ـ أختهما : فاطمة بنت أبي هريرة، توفيت ـ تقريبا ـ قرب سنة 890 / 85 «1486» (49).

و ـ فاطمة بنت أبي أمامة محمد، تاريخ وفاتها غير مذكور (50).

الثانية : أسرة عبد المومن الدكالي بمكة المكرمة، ومن النابهين بها :

ز ـ عبد المومن بن خليفة بن عبد الملك الدكالي نزيل مكة المكرمة، ت 741 «1341» (51).

حـ ـ ابن عبد المومن : خليل، ت 749 «1349» (52).

ط ـ ابن عبد المومن : البهاء محمد، ت 769 / 67 «1368» (53).

ي ـ ابن البهاء : أبو الخير : محمد، ت 791 «1339».

ك ـ ابن البهاء : أبو العباس : أحمد، ت 823 «1420» (55).

ل ـ ابن البهاء : أبو الفضل : محمد، ت 823 «1420».

م ـ ابن البهاء : الجمال : محمد، ت 827 «1424» (57).

تذيل بذكر نماذج من المؤلفات التي تتصل بأعلام من دكالة، وعددها 17 : واحد منها مطبوع، وباقيها مخطوطا :

أ ـ «شرح الرسالة القيروانية» لأبي عمران الزناتي، سابق الذكر.

ذكره بلوشة في «فهرس مخطوطات المكتبة الوطنية» بباريس : رقم 5336.

ب ـ ولنفس المؤلف «اقتضاب السهل في اختصار أحكام ابن سهل»، خ،ع،ق 2/742.

مكتبة الزاوية الحمزية 2/305.

ج ـ «معتمد الناجب في إيضاح مبهمات ابن الحاجب» : اسم شرح المختصر الفقهي لابن الحاجب، تأليف محمد بن سعيد الزموري، سابق الذكر عند رقم 23.

خ،ع،ق 650 : النصف الأول إلى آخر باب الرضاع، في مجلد كبير : 514 ص بخط مغربي مدموج يتخلله تصحيف، وتم نسخه عام 995 هـ.

مع مجلدين من نفس الشرح : خ،ع،ق 879.

خ،ع،ق 1148.

د ـ ولنفس المؤلف : «التحفة الظريفة في الأسرار الشريفة».

خزانة القرويين 1343 : في سفر ضخم.

هـ ـ وللمؤلف ذاته «كنز الأسرار ولواقح الأفكار» : معارف منوعة : العالم العلوي والسفلي، وأحوال المعاش والمعاد...

خ،ع،د 555، 639.

خزانة القرويين 586، 846.

المكتبة العامة بتطوان 410.

خ،س 4956.

بعض مخطوطات كنز الأسرار تسمى المؤلف بعبد الرحمن، وهو غلط. نقل عنه أبو الحسن المالكي في «شرح عقائد الرسالة القيروانية».

47) ترجمته في «نفس المصدر» 38/8 ـ 39.
48) ترجمته في «نفس المصدر» 39/8.
49) ترجمتها في «نفس المصدر» 94/12.
50) ترجمتها في «نفس المصدر» 103/12.
51) ترجمته في «العقد الثمين» رقم 1897.
52) ترجمته في «المصدر ذاته» رقم 1142.
53) ترجمته في «المصدر ذاته» رقم 287.
54) ترجمته في «المصدر ذاته» رقم 408.
55) ترجمته في «المصدر ذاته» رقم 638.
56) ترجمته في «المصدر ذاته» رقم 409.
57) ترجمته في «الضوء اللامع» 134/9 ـ 135.

و ـ «أنس الوحدة في شرح البردة» : تأليف أبي القاسم بن إبراهيم بن حسين الماجري الزموري، كان حيا بين أواخر القرن الهجري الثامن وأواخر التاسع.

خ،س 1/321.

ز ـ «اغتنام الفحاص لمحاذي درر الغواص» : تأليف محمد بن محمد بن إبراهيم ابن القاضي الأنصاري الخزرجي النجاري ثم الزموري، نزيل الحرمين الشريفين، ت 839 «35 ـ 1436» بالمدينة المنورة.

ذيل به على «درر الغواص في محاضرة الخواص» لإبراهيم ابن فرحون.

مكتبة الزاوية الحمزية 3/547 ـ غير تام.

حـ ـ للمؤلف ترجمة عند السخاوي (58) نسب له فيها مؤلفا ثانيا باسم «مساطع الأنوار في استخراج ما في حديث الإسراء من الأسرار».

ط ـ تعليق على كتاب الجامع من الجواهر الثمينة لابن شاش : تأليف أبي القاسم الفتوح بن عيسى بن أحمد الصنهاجي الزموري، ت 48/852 ـ 1449.

خ،ع،ج 458 : في جزءين أول مجموع، وفرغ من تأليفه في 18 صفر عام 816 بمدينة آزمور.

ي ـ والمؤلف هو شارح القصيدة الخزرجية في العروض والقوافي، وشرحه هو المنشور الوحيد من المؤلفات التي نعرضها، فتكرر طبعه في المطبعة الحجرية الفاسية.

ك ـ بهجة الناظرين وأنس العارفين لمحمد بن عبد العظيم الزموري استمر بقيد الحياة بعد 46/850 ـ 1447.

خ،ع،د 1343 و1501.

خ،ع،ج 377.

خزانة القرويين 871.

ح،س 1358.

علق عليه د. صباح إبراهيم الشيخلي في مجلة «البحث العلمي» (59).

ل ـ «شرح الشفا» لعياض : ابتدأ تأليفه أحمد بن سعيد بن يحيى الزموري، وكمله ـ بعد وفاته ـ ابنه عبد الله سابق الذكر.

يحمل في خزانة القرويين هذا الرقم 2798 5، وفرغ من إخراجه من المبيضة 10 محرم 882 هـ.

م ـ «قول من لا يرائي ولا يمنع الماعون. في الوافد الوبائي المسمى بالطاعون» : تأليف الحاج الزموري، سابق الذكر عند رقم 24.

المكتبة العامة بتطوان.

ن ـ «شرح مقالات كوشيار» (في الأحكام الفلكية) : تأليف أبي عبد الله بن عبد الكريم الدكالي ؟

دار الكتب الوطنية بتونس 00526 : 148 ورقة.

☆ ☆ ☆

ص ـ شرح القواعد لعياض : تأليف أبي الفضل محمد بن محمد بن شعيب العثماني.

أشار في افتتاحيته إلى أن تأليف القاضي عياض للقواعد كان برغبة من أبي محمد عبد السلام بن عبد الله بن آمغار دفين تيطنفر.

خزانة القرويين 356 : السفر الأول، وفرغ منه مؤلفه عشي الجمعة 19 جمادى الأولى 744 ـ بخط المؤلف.

ع ـ السفر الرابع من الصحاح للجوهري : من باب الميم وفصل الحاء إلى النهاية.

كتبه ـ بخط أندلسي جيد ـ إبراهيم بن محمد الدكالي عام 717 هـ بسبتة.

خ،س 11761.

---

58) ترجمته في «نفس المصدر» 301/8.

59) العدد 33 ص 167 ـ 180.

توضيحات :

المصادر والمراجع الواردة بالهوامش : تذكر وضعيتها عند الإحالة الأولى : مخطوطة ومكانها ورقمها، أو منشورة مع ذكر المطبعة أو الناشر، وبلد ذلك.

وترد بالهوامش والدراسة إشارات للمخطوطات هكذا :

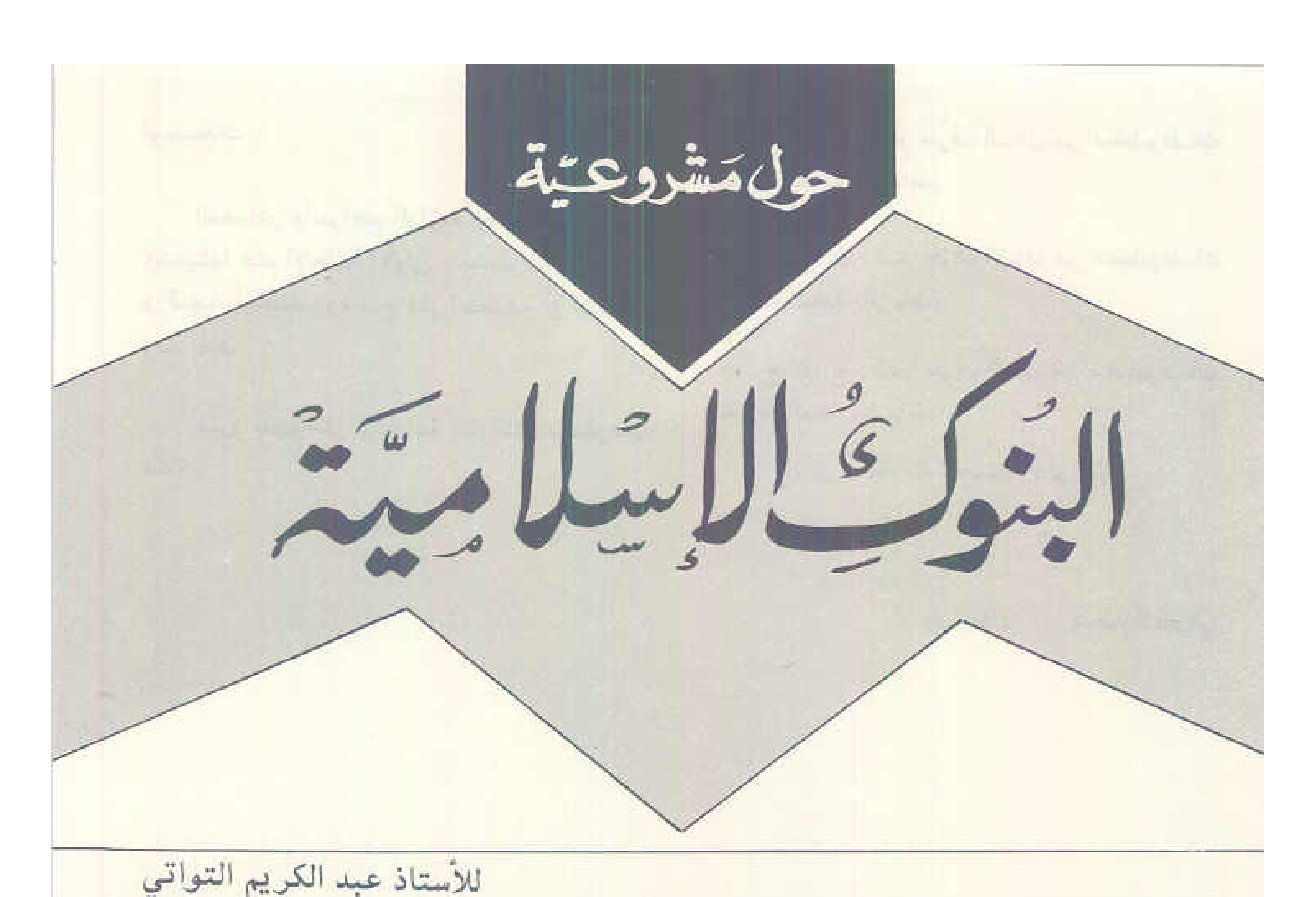
خ، ع، د : قسم حرف الدال من مخطوطات الخزانة العامة بالرباط.

خ، ع، ق : قسم حرف القاف من مخطوطات الخزانة العامة بالرباط.

خ، ع، ج : قسم حرف الجيم من مخطوطات الخزانة العامة بالرباط.

خ، س : الخزانة الحسنية بالرباط.

الرباط : محمد المنوني



للأستاذ عبد الكريم التواتي

... قد سعدت بقراءة تعقيب أستاذنا الكبير الدكتور إبراهيم دسوقي (أباظة) في جريدة (العلم) العدد : 12240 / ص / 7 / بتاريخ الجمعة : 17 / فبراير : 1984 / حول ما سبق أن نشرته صحيفة : (الشرق الأوسط) تذييلا أو حاشية أو تعقيبا على بحث الربا والتعامل مع الأبناك أو بالخصوص (البنوك الإسلامية)... فرأيت إن سمح صدر الأستاذ، وفتح (العلم) حضنها أن أعقب عليه بالملاحظات التالية :

أولا : إذ يعترف أستاذنا (أباظة) بوجود انحرافات وتجاوزات في أنشطة العديد من (البنوك الإسلامية) التي بلغت : 27 / بنكا في 14 دولة إسلامية، كان ينبغي الافصاح عن هذه الانحرفات مع تقديم طرق تصحيحها أو كيفية التفصي منها.

ثم إذا كانت التجربة هي الكفيلة بإثراء النظرية وإثراء الواقع، فإن مالوحظ من تجاوزات ومن سيطرة بعض الأسر على عدد من هذه البنوك مما يثبت أحدى الأسباب التي تحرم التعامل بالرباض، هذه الأسباب المشار إليها أو إلى بعضها في القرآن الآية : 7 / من سورة الحشر : (لئلا يكون دولة بين الأغنياء منكم).

ثانيا : كون المشروع درس من جهات عديدة ذات مستويات عليمة محترمة، - ومهما أحيطت بهالات - لا يعطي المشروع شرعية مطلقة. وقد تكون التجربة التي عرى آثارها البيئة كاتب : (الشرق الأوسط) هي التي حملت بعض الحكومات الإسلامية وبعض الجهات على التنكر له، والعمل على اجهاضه، ما دامت قد لمست - بالواقع - مجافاته للشريعة الإسلامية، وقديما قال ابن عرفة، جمركي أبواب الفقه في المذهب المالكي : (أعرف الرجال بالحق، ولا تعرف الحق بالرجال)، ولهذا فقد كان على أستاذنا (أباظة) أن يترك جانب الكاتب أو المستكتب وشخصيته، وأن يناقش آراءه الواردة في الدراسة مناقشة متأنية وبموضوعية وتجريد، ويستعرض المنافع والمضار

والمصالح والعيوب حتى تفيدنا نحن الذين لا يهمنا، أولا نبحث إلا أن عن الحقيقة المجردة والموضوعية.

وتبني نظرية ما من أي جانب أو آخر، لا يمنحها - كما قلنا - القداسة بله المشروعية إذا لم تكن تستند إلى شرع الله - فتخلى المتحمسين أولا للمشروع، قد يكون بسبب ما اكتشفوه مما رأوه متعارضا والنظرية التي انطلق منها ذلك المشروع، والرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل، وما أشاره له (أباظة) من تجاوزات وانحرافات واندساس (بعض أصحاب المصالح، والمتأجرين بالإسلام، ليركبوا هذا المد الجارف، وينطلقوا به بغير قواعد أو ضوابط، واتجاههم في الاستعانة بأطر تقليدية، وخبرات من بنوك ربوية، واستفادة هذه البنوك الربوية من العاطفة الإسلامية لجذب المدخرات إلى خزانتها، حتى اختلط الحابل بالنابل، واضطربت الرؤية وانحرفت المسيرة) ربما كان ذلك هو ناقوس الإنذار الذي نبه أولئك المتقاعسين عن تأييد هذا المشروع إلى ما في تجسيم النظرية من أخطار.

ثالثا : الدعوة إلى عدم إمكانية تطبيق الشريعة الإسلامية في غمضة عين اتكاء على أسباب النزول في القرآن وسيرة الرسول ﷺ في الدعوة تجديف ينآى بأستاذنا عن جادة الصواب وصدور مثل هذه القالة من مثله يدعونا إلى مزيد من البيان والتوضيح إذ هناك فرق كبير بين التدرج في التشريع في حياة الرسول ﷺ وبين التدرج في تطبيق النظريات الاجتهادية المستحدثة من البشر سوى الرسول ﷺ من حيث أن الرسول ﷺ معلم ومشرع يوحى إليه من الله، وما ينطق عن الهوى، ومن هنا صح التدرج في التشريع، وصح ما يعبر عنه بالناسخ والمنسوخ في القرآن، مثبتا، المحكم منه الثابت والمتغير.

والنظريات الاجتهادية يصار إليها عندما تنعدم النصوص الصريحة من كتاب أو سنة صحيحة، - ويستبعد هنا الاجماع لأنه مهما قيل عنه وعن حجيته فلن يخرج عن دائرة الاجتهاد البشري، والبشر يصيبون ويخطئون.

على أن الأوضاع الآن قد استقرت، ولم يبقى تشريع جديد سوى ما يتوصل إليه العلماء المختصون من استنباطات يكون مستندها ذينك الدليلان أعني القرآن والسنة الصحيحة، ما دام القرآن يقول : **﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾**، المائدة : 3 ويقول : **﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله وأطيعوا الرسول، وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا﴾**، النساء : 59 ولهذا فليس لأحد بعد ذلك أن يشرع ما لم يشرعه الله ورسوله، ولا أن يحمل النصوص ما يخرجها عن الغاية المتوخاة منها... وتحريم الربا بجميع فروعه وأنواعه بما فيها ربا الفضل قضية مفروغ منها، وحتى ما نسب لابن عباس ومعاوية من تجويزهم لربا الفضل ثبت تاريخيا وعلميا رجوعهما عن هذا التجويز لما بين لهما كبار الصحابة، يقول ابن تيمية في فتاويه الكبرى : «وإذا كان قد خفي - على ابن عباس ومعاوية ومن نحاهما من جلة الصحابة (ض) - ربا الفضل، فأجازوه، فإنهم عندما وقفهم صحابة آخرون، كعبادة بن الصامت وأبي سعيد الخدري على أضراره ومفاسده، حرموه كربا النسيئة، وتبينوا لماذا حرم رسول الله ﷺ التعامل بالربا، بل ولعن آكله وهو : الآخذ، وموكله وهو المحتاج المعطي للزيادة، كما لعن شاهديه وكاتبه لإعانتهم عليه. ذلك لأنه من البدهيات أن من بين الأهداف التي يتوخاها الإسلام من تحريم بعض العقود - كبيع الغرر، وبيع حبل الحبلة، والملاقيح، والمضامين، (أي بيع اللبن وبيع الثمرة قبل بدو صلاحهما وبيع الملامسة، والمنابذة، - في الغالب هي الحيلولة دون إيقاع العداوة والبغضاء بين الناس، وعدم استغلال الإنسان لأخيه الإنسان وعدم ظلمه، وعدم غبنه بأي وجه من الوجوه إذ يرى أن يحفظ ما له ككل حقوقه وكل هذه المحذورات موجودة في التعامل مع الأبناك القائمة حاليا، ولذلك فلاشك أن الربا بنوعيه : النسيئة والفضل استغلال الإنسان لأخيه الإنسان ومنع لحقوق المحتاج، فإن الموسر - كما يقول ابن تيمية : (الفتاوي : ج / 3 / ص / 415 مطبعة دار المكتبة الحديثة) (لا يأخذ ألفا حالة، بألف ومائتين مؤجلة، إذا لم تكن له حاجة بتلك الألف، وإنما يأخذ المال بمثله مع زيادة إلى أجل، من هو محتاج إليه،

فتقع تلك الزيادة ظلما لمحتاج) ولدفع هذا الظلم فرض الله في أموال الأغنياء للفقراء نصيبا معلوما، ليدفع عنهم الحاجة ويقيهم الفاقة، ولاشك أن الإنسان متى ضمن حاجياته الأساسية والضرورية من المأكل والمسكن والملبس وكل ما يدخل تحت باب (الضمان الاجتماعي) لم يجد ضرورة للبحث عن دخول أخرى بطرق غير مشروعة، وهذا الذي يقبل أن يأخذ الأقل ليدفع أكثر في مقابل الأجل والتأخير، إنما يدعوه إلى ذلك الحاجة التي قد تكون ملحة، وغالبا ما يكون ذلك من جراء عدم إعطاء الغني لهذا الفقير ما أوجبه الله وفرضه في ماله لحق الفقراء، فإذا أربى الغنيي منع الفقير يكون - وكما يقول : ابن تيمية أيضا : بمنزلة من له على رجل دين، فمنعه دينه، ثم ظلمه زيادة أخرى.

ومع ذلك فما أجدر بالعلماء أن يضعوا تحديدا مبسطا لهذا الربا الذي يحرمه القرآن ويتوعد مرتكبيه بأوخم العواقب، أهو نها وصفهم بالجنون : ﴿**الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس**﴾، البقرة : 275 وأخبثها أكلهم النار وصليهم بها ومحاربتهم لله : ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله**﴾ البقرة : 278.

على أن العلماء لو تمكنوا - وهذا لا يتم إلا إذا غادروا أبراجهم العاجية وشاركوا عمليا وبحماس في الحياة الاجتماعية العامة - في حمل السياسيين والاقتصاديين الإسلاميين على تفهم الغاية المتوخاة من تحريم الإسلام للربا - وسياسيونا والحمد لله لهم نفس اليقين والحماس والغيرة التي لبقية شرائح المجتمع الإسلامي ولهم نفس الرغبة في تطبيق الشريعة، والتقيد بنصوصها التي لا تقبل التأويل - لأمكن الاستغناء عن هذا الخضم للجي من المواقف المتعارضة حول مفهوم الربا وأنواعه، ولأمكن إيجاد أبواب أخرى غير أبناك تسد الحاجيات المالية، وتقوم بالأدوار التي وضعت لها الأبناك دون الارتكاس في حمأة الربوبات.

وهذا ممكن بالتخلي عن أي نوع من أنواع الربا، مهما أحيط مصدره بهالات الأطراء عن طريق إشاعة مبادء الرحمة والأخوة والتكافل الاجتماعي والتكامل الاقتصادي، ثم باقناع الناس بالتقصير من الشره، وبالابتعاد عن تقليد الغرب في هذا السعار الاقتصادي الذي لا يقوم إلا على مبدإ المنافسة تحت شعار التنمية، واعداد الظروف الحياتية لعام الفين وما بعد.

على أن المشكل إنما حل بالعالم الإسلامي حين حاولنا - وتحاول - تقليد الغرب في فكرة الفصل بين الدين والدنيا، فلو أنا آمنا بإطلاق بأن الإسلام يرفض هذه الفكرة، ويصر على أن الأمرين : الدين والدنيا - مرتبطان، وأن الدين إنما جاء لإصلاح هذه الدنيا بما يجعلها تنال رضا الله، إذن لأمكن فهم النصوص الشرعية بروح بعيدة عن التأثر بغير الجو الإيماني الخالص المراد منها، ثم الهروب من تطبيق الشريعة كلية ودفعة واحدة وبدون تباطؤ بدعوى أن الظروف الراهنة هي غير الظروف التي كانت لعهد رسول الله ﷺ سيدنا محمد عليه السلام فيه :

أولا : ما يصم الإسلام بالمادية التاريخية أي أنه دين وضع لزمن خاص ولأوضاع خاصة وأنه لذلك قد استنفد طاقته، بمرور الزمن، ويعني هذا تصديق قالة أعداء الإسلام المعارضة للفكرة التي نؤمن بها نحن والتي يؤكدها الواقع التاريخي والمعيش، أي أن الإسلام دين صالح لكل زمان ومكان وفيه :

ثانيا : تجزئة التشريع إلى ما هو واجب الانجاز فورا، وما يمكن تأخيره إن لم نقل التساهل فيه ومعنى هذا أن لا إلزامية على المسلمين بالتشريع وأن الدين مجرد تكملة، ﴿**أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما يعملون**﴾ البقرة : 85.

والإسلام دين الوحدة والتوحيد، ليس من صنع البشر، ولكن من صنع الله الذي أتقن كل شيء، وهو شريعة لا يمكن فصل بعض أجزائها عن بعض، ولذلك فهو إما أن يؤخذ كله، بتشريعاته ونظمه وقوانينه الجزائية : الثواب والعقاب، وبحياتيه : هذه التي على الأرض، وتلك المنتظرة يوم الديمومة وبعد الحساب، وإما أن لا يكون

إسلام ولا شريعة، لأن خالق الإنسان وباعث الرسل الذين آخرهم سيدنا محمد عليه السلام، لم يترك الشريعة ناقصة أو مبتورة، ولم يترك لمن أسلم وجهه له حرية التخلي عن شريعته التي اختارها له هو بنفسه.

واتهام كل من يصر على تطبيق الشريعة بالغيرة على الإسلام دون بقية الناس اتهام باطل، ذلك لأن غيرة الغيورين لا تعني أكثر من إيمانهم بوجوب التمسك بفكرة ضرورة تطبيق هذه الشريعة ما أمكن، لصلاح معاش الناس ومعادهم. أما المضي مع الآخرين - ولو على حساب تفتيت الشريعة - لمجرد أن يقال إننا تقدميون وإننا نساير ركب الدول المتمدينة المعاصرة، فهذا شيء لا نستيغه، حتى وأن كنا - أمام صولة الباطل - لا نستطيع اعاقته عمليا.

ثم يجب أن لا ننسى أنه بفضل (جمود) أولئك الغيورين على تطبيق الشريعة الإسلامية : كليا وجزئيا، استطاعت شعلة المقاومة للتيارات الهدامة أن تستمر مشتعلة وقادة متوثبة جذلى في كل الفترات المدلهمة من تاريخ الإسلام منذ ظهوره إلى الآن.

ثم ماذا حققت النظم البنكية في أوروبا نفسها مما علق عليها من آمال وأحلام ؟ سوى أن حولت الحياة إلى سعار وتكالب على المال من أجل تكديسه فحسب، ومنعه من التداول إلا بين مالكيه ليخضعوا به رقاب عباد الله لما تمليه عليهم انا نيتهم، وهل استطاعت أن تقضي على الفقر كما يزعم أصحابها ؟ وهل استطاعت أو تمكنت من تحقيق الجنة الاقتصادية التي ما انفك أنصارها يعدون بها ؟

إن أغنى دول العالم أبناكا، ومن توجد على قائمة النظام البنكي الرأسمالي الذي يعتمد النظريات البنكية المتطورة جدا، والتقنية جدا، والمتقدمة جدا، يشكو من الاحتياج، وسوء النظام النقدي العالمي، ومن التضخم، ومن كل ما ينشأ عن عدم تطبيق النظريات الإسلامية في كل مرافق الحياة : سياسية واجتماعية واقتصادية، بل ويشكو من تفاقم ديونه المتراكمة والمتضاعفة على الدوام ونحن - البلاد الإسلامية - التي أصر ويصر بعض مغتربيها أن يحولونا إلى النظام الأوروبي حتى لا نتهم بالتخلف ولا نوسم بالتحجر والجمود، هل قدرنا أن نقف على سوقنا ؟ أو أن نتفصى من هذه التبعية الاقتصادية للغرب وأمريكا، بل وللروس في كل شيء حتى في غذائنا ؟ بعد أن طبقنا هذه النظم البنكية ؟.

ولهذا فهؤلاء الدعاة إلى تطبيق الشريعة كاملة، ودفعة واحدة، يصدرون في مواقفهم عن الإيمان بأن الإسلام - ونكرر هذا - وحدة واحدة متكاملة لا يمكن تجزئتها إلى شرائح (ساندويشات) أو جرعات دواء تعطى للمريض على مراحل وفترات، لأن الطبيب الذي ركب الدواء، ووضع أسسه ونظمه - في الشريعة الإسلامية - هو الله، وما كان الله، ولا كان رسوله المعصوم من الخطأ في العقائد والأصول، أن يصدر عنهما ما يحتمل الخطأ سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبرا.

رابعا : يلاحظ أن الدكتور (أباظة) تحاشى التعريج على تقييم التجربة القائمة في هذه البنوك الإسلامية، فلم يفصح عما إذا كانت صالحة بكليتها، أو - على الأقل - ما هي الجوانب الصالحة فيها والموجبة وتلك السالبة فيها والفاسدة أو الضارة، مما يشعر - أن لم يؤكد - بأنه هو نفسه يشعر بتجافي التجربة القائمة على الأسس والأهداف التي حاول أولئك الدعاة للبنوك الإسلامية توفيرها...

والقول بأن المصارف الحديثة لم تكن معروفة زمن نزول القرآن كما هي الآن في حالتها الحاضرة ووفقا لقوانينها العالمية، وان حاجات الناس ومصالحهم في أمور الحياة لا تتم إلا بها - من بنود محكمة النقض بأبوظبي (الشرق الأوسط) عدد / 1907 / ص / 1 العمود الثالث فيه.

أولا : أنه إنكار لواقع تاريخي معلوم بالضرورة، فإن الإسلام لما جاء، كانت مكة والجزيرة العربية مرتكسة في التعامل بالربا وكانت مكة خزانا عظيما للتجارة العالمية، وكان من أبرز الأسباب التي حملت عتاة قريش على محاربة الإسلام هي بدعوى المحافظة على أوضاعها الاقتصادية المزدهرة إذ كانت تعتقد أن نشر الدعوة الإسلامية سيحرمها مما كانت ترفل فيه من رفاه لأن غيرها قد يستمر على إشراكه فيعمل على تقويض مركزها التجاري، ومع ذلك لم يقف الإسلام مستسلما أمام الوضع القائم وإنما حاربه ولإعطاء المثل بدأ ﷺ بتحريم رباعمه

العباس وعندما تبين أولئك القرشيون أن الإسلام لم يأت لتحطيم ما ينعمون به في رخاء وإنما جاء ليضع له الأسس الكفيلة بإبقائه ومنحه المشروعية الإلهية، بتصحيح مساره وإبعاد كل ما من شأنه أن يجعل هذا الازدهار مؤقتا بالدنيا أو سببا لفاقة آخرين أو عوزهم، استجابوا لله وللرسول ولما يحييهم فكانوا عصب الحركة الإسلامية في العالم كما يقول الدكتو (أباظة) نفسه... فآمن أولئك العرب بالإسلام وطبقوه عمليا بكلياته وجزئياته، ثم فيه :

ثانيا : أنه إنما يصح ذلك الزعم أن لو كان محمد عليه السلام هو المشرع من عندياته وبدون وحي من الله، إذن لجاز لغير الغيورين أن يقولوا إن الظروف المستجدة في العصر الذي نحيا أحداثه هي غير تلك التي كانت لعهده ﷺ، حيث كان يخطط ويشرع ويضع القوانين في عرف هؤلاء، لخصوص عهده ومجتمعه وزمانه، ومكانه، مما يعني أن تشريعاته (الوضعية) لم تكن تستهدف ـ الإنسان في كل ابعاده والدنيا الحياة والمعاشي والمعاد ـ ولاشك أن قالة من هذا القبيل في محل المنع، ولا يمكن أن تصدر عمن يؤمن بالإسلام لأنها ستنتهي بقائلها إلى أن الإسلام ظاهرة تاريخية محددة ـ كما قلنا قبل ـ وليست صالحة لكل زمان ومكان وأنها ليست للناس كافة، ولكن الواقع أن محمدا عليه السلام ما كان يقول شيئا من عندياته إلا أن يكون تبيينا أو توضيحا أو تفسيرا لما نزل عليه من الوحي، ومن هنا أصر القرآن على أنه مجرد مبلغ (إنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد) آل عمران : 20 / ﴿**إن عليك إلا البلاغ**﴾ الشورى : 48 ﴿**قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم أن اتبع إلا ما يوحي إلي، وما أنا إلا نذير مبين**﴾ الأحقاف : 9 ولكن الواقع أيضا ـ وفي معتقد المسلمين ـ أن الإسلام جاء للناس كافة وجاء رحمة لهم ﴿**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾ الأنبياء : 107 ﴿**وما أرسلناك إلا كافة للناس بشرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾ سبأ : 28 ثم أن منزل الكتاب سبحانه وتعالى ـ وهو خالق الزمان والمكان وما فيهما ـ ولا تاريخ له لا ماضيا ولا حاضرا ولا مستقبلا، إذ الزمن في حكم الله واحد، كله حاضر، ما كان لينسى ويشرع ما لا يتساوق وفترة زمانية ما، أو لا يتفق وما يصلح للإنسان ﴿**أيحسب الإنسان أن يترك سدى**﴾ مع تأكيده سبحانه وتعالى بأن محمدا ﷺ هو خاتم الرسل والأنبياء، وأن الإسلام هو خاتمة الرسالات السماوية، ثم هو سبحانه ـ قبل وبعد أعلم بمصالح عباده وحاجياتهم، ولم يكن القرآن ينزل لتبرير أعمال الناس، مهما تكن هذه الأعمال صالحة أو طالحة، بقدر ما كان ينزل توجيها لما ينبغي أن يأتيه هؤلاء الناس أو يذروه، ثم كان هذا القرآن في النهاية الدستور الذي قال منزله : ﴿**لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد**﴾ وقال : ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا**﴾ وقال : ﴿**ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه**﴾ وقال : ﴿**إن الدين عند الله الإسلام**﴾.

وبعد فنستمح الدكتور (أباظة) أن نهمس في أذنيه بأن مركزه العلمي ما كان يسمح له أن يستعمل تلك اللغة التي استعملها في تعقيبه، لقد كانت لغة انفعالية، وإن كنا نحن نوافقه على ما ذكره عن موقف جريدة (الشرق الأوسط) فيما يخص اعلامها إغلاق البحث في الموضوع، فمثل هذا الموقف من مثلها تعسف لا مبرر له، ولا يليق بها كمؤسسة تحترم نفسها وقراءها ولذا نود مخلصين أن تتبرأ منه، وتعيد فتح صدرها لنشر المزيد من النقاش البناء لمن يريد أن يدلي بدلوه في الموضوع، على أن يبتعد عن الأساليب الاستعراضية والمتشنجة.

وللدكتور (أباظة) منا عظيم التقدير والاحترام، مع الوعد بالعودة إلى الموضوع لتحليل الفكرة الأساسية التي قامت عليها حلية البنوك الإسلامية، أي (مبدأ المرابحة) في المذهب المالكي.

فاس : الأستاذ عبد الكريم التواتي



للدكتور محمد كمال شبانه

2 ـ دمشق :

لقد عرف عن دمشق أنها كانت قبل الفتح الإسلامي بنحو سبعة قرون مقرا لحاكم الروم، وهي بموقعها في طرف بادية الشام تكتسي أهمية استراتيجية، من حيث أنها ملتقى الطرق العسكرية والسبل التجارية القديمة، وهي من أقدم مدن العالم، فقد أشارت إليها المؤرخات المصرية والآشورية وبعض الكتب المقدسة.

فتحها العرب بعد حروب سجال بينهم وبين الروم، بحيث عد الاستيلاء على دمشق تتويجا لفتوحاتهم في منطقة الشام، وقد تم ذلك في اليوم الذي توفى فيه الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه، في السنة الثالثة عشرة للهجرة (634م)، وعقب انتصار العرب في معركة اليرموك الشهيرة، في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وقد استردت دمشق زمن الحكم العربي ـ رخاءها الذي فقدته زمنا، وبلغ هذا الرخاء أوجه في العهد الأموي والصدر الأول من العصر العباسي.

لقد تولى معاوية بن أبي سفيان الخلافة عام 40 هـ / 660م، ومن يومئذ أصبحت دمشق عاصمة للخلافة الإسلامية، وبذلك انتقلت من المدينة إليها، وبلغت شأوا رفيعا عظيما، عن فن العمارة، وامتازت من دون المدن الأخرى بوفرة أنهارها وينابيعها.

يروى ياقوت الحموي في (معجم البلدان) «أن دمشق قد أحاطتها الأسوار المنيعة، والتي بلغ ارتفاعها ثمانية أمتار وعرضها خمسة عشر قدما، ذات أبواب سبعة متميزة بأبراجها الساحقة، بحيث يمكن للقادم من مسافة بعيدة أن يبصر هذه الأبراج. وقد أسس بها معاوية «قصر الخضراء» مقر إقامته، وبذل الوليد بن عبد الملك جهدا كبيرا في تجميل المدينة بالمرافق العامة، لدرجة أن سارت عنايته هذه بدمشق مسار الأمثال، فقيل : إن الناس في دمشق كانوا في عهده يتكلمون عن العمارات وجمالها، وفي عهد سليمان عن الطعام والنساء، وفي عهد عمر بن عبد العزيز عن الدين والقرآن» (2).

هذا، وقد ترك الأمويون بصماتهم التاريخية الخالدة في دمشق، فقد شقوا القنوات المائية المختلفة، ومن أشهرها نهر بردي الذي يمد المدينة بالماء، وقد كان للأمويين هندسة بالغة الدقة في تخصيص نافورة لكل دار بالمدينة، حيث شقوا سبع قنوات رئيسية، لإمداد دمشق بما تحتاجه من مياه من كافة نواحيها، بالإضافة إلى القناطر والجسور.

أما عن الجانب الحضاري فقد «روى المؤرخون أن سورية لم تلبث أن ازدهرت بعد أن فتحها العرب، فجد العرب في نقل كتب اليونان والرومان إلى لغتهم مثلما جدوا في ميادين القتال، وأنشأوا المدارس في كل مكان، وصاروا أساتيذة بعد أن كانوا تلاميذ، وأنهضوا العلوم والشعر والفنون الجميلة أيما إنهاض.

«وظلت دمشق مركزا كبيرا للتجارة والعلوم والصناعة في الشرق، حتى بعد أن غدت غير عاصمة لدولة العرب، وكان لمدرستها الطبية ومرصدها الفلكي وقصورها ومساجدها شهرة عالمية.

---

1) الأغاني، للأصفهاني، ص 35 ـ 36 حـ 2.
2) معجم البلدان، انظر لفظ «دمشق».

«تبدو دمشق ذات المآذن الجميلة وغوطتها للناظر من بعيد ذات منظر ساحر، أجمع السياح على امتداحه...» قال مسيواد افيد :

«يرى السائح الذي يقترب من دمشق أنه لا شيء يعدل عظمتها وروعتها وسحرها، فلدمشق غوطتها النضرة التي تقع بين سهل واسع فتتخللها منازل القوم وحدائقهم، فتحيط بأغرب ما في الدنيا وأسطع ما فيها من أسوار، خلافا لمعاقل الغرب الشاحبة الكالحة القذرة، فتبدو هذه الأسوار - المؤلفة من حجارة صفر وسود ذات ألف شكل بانسجامها - خميلة موشاة بالزبارج كما وصفها شعراء الشرق.

«وليس ذلك النطاق كل ما يبدو للأعين، فهنالك أسوار في داخل المدينة تفصل بين أحيائها، وهنالك أسوار ذات أبراج مربعة قائمة على جوانبها، وهنالك أسوار تعلوها زخارف على شكل عمائم.

«وليس ذلك سوى المرحلة الأولى من المنظر، فصميم المدينة أسنى وأبهى، فهو يتألف من أشجار متألقة من بيوت، فهنا صف من شجر السرو، وهنا محل للنزهة، وهناك أقواس عربية، وهناك سوق للأخذ والعطاء، وهناك نخيل باسقات، تهز رؤوسها الجميلة فوق حوض على شكل نصف دائرة لعين عظيمة، وهناك أشجار مثمرة مصفوفة على شكل رقاع - الشطرنج داخل قصر إسلامي، ثم هنالك ألوف القباب التي تعلوها الأهلة النحاسية والمآذن الرفيعة على جوانبها.

«لتلك الروضة المزهرة أشجار عالية، وحدائق جميلة ذات وقع في النفوس، كأشعة الشمس الوهاجية، ولها شعب بردى السبع المتلوية الفضية التي تهب دمشق الألوان أيضا.

«تلك هي دمشق التي يسميها العرب بالشام، والشام ما يسمى به العرب بلاد سورية» (3).

المسجد الجامع :

فإذا ما قصدنا المسجد الجامع الكبير - وهو ما كان يمثل الجامعة الإسلامية الثقافية يومئذ - فسنجد أنه - بادئ ذي بدء - يعد أقدم مباني دمشق، إذ يرجع تأسيس جزء منه إلى ما بعد الهجرة بفترة قصيرة، على أنقاض معبد وثني حوله النصارى إلى كنيسة، ثم أصابه حريق عام 461 هـ (1069م) فجدد بناؤه - وهو يتألف - كبقية المساجد الإسلامية الأخرى - من ساحة كبيرة قائمة الزوايا، ذات أروقة خصص بعضها للصلاة، وأقيمت المآذن على أركانها.

إن أول من اختط هذا المسجد هو القائد الحربي أبو عبيدة بن الجراح، ثم أقامه الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك بين عامي 88، 96 هـ، حيث كان الوليد مولعا بفن العمارة ولا سيما عمارة المساجد الكبرى، حتى لقد روى أنه أنفق على عمارة مسجده هذا ما يوازي خراج الدولة لمدة سبع سنوات.

ويروى المسعودي قائلا :

«وحكى عثمان بن مرة الخولاني، قال : لما ابتدأ الوليد ببناء مسجد دمشق وجد في حائط المسجد لوحا من حجارة فيه كتابة باليونانية، فعرض على جماعة من أهل الكتاب فلم يقدروا على قراءته، فوجه به إلى وهب بن منبه، فقال : هذا مكتوب في أيام سليمان بن داود عليهما السلام، فقرأه، فإذا فيه : «بسم الله الرحمن الرحيم. يا ابن آدم، لو عاينت ما بقي من يسير أجلك لزهدت فيما بقي من طول أملك، وقصرت عن رغبتك وحيلك، وإنما تلقى تدمك إذا زلت بل قدمك، وأسلمك أهلك، وانصرف عنك الحبيب، وودعك القريب، ثم صرت تدعى فلا تجيب، فلا أنت إلى أهلك عائد، ولا في عملك زائد، فاغتنم الحياة قبل الموت، والقوة قبل الفوت، وقبل أن يؤخذ منك بالكظم، ويحال بينك وبين العمل. وكتب زمن سليمان بن داود».

«فأمر الوليد أن يكتب بالذهب على اللازوردي في حائط المسجد : «ربنا الله، لا نعبد إلا الله. أمر ببناء هذا المسجد، وهدم الكنيسة التي كانت فيه عبد الله الوليد أمير المؤمنين، في ذي الحجة سنة سبع وثمانين». وهذا الكلام مكتوب بالذهب في مسجد دمشق إلى وقتنا هذا، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة» (6).

ويروى المؤرخون - في صدد عمارة المسجد - أنه قد استخدم الرخام النادر في أسفل جدرانه، وأن القسيفساء كانت تغطي الجزء الأعلى من الجدران، أما السقف فقد

3) حضارة العرب لجوستاف لوبون، ص 206 - 208.

4) مروج الذهب، جـ 152/2.

كان من الخشب المموه بالذهب، تتدلى منه مصابيح من الأبريز بلغت ستمائة مصباح، كما كان المحراب يزدان بالأحجار الكريمة، ويزين نوافذه زجاج متعدد الألوان، وإن كان لم يبق من تلك الزينة في مجموعها سوى الشيء القليل.

إن هذا المسجد ـ الذي عرف من بعد بالمسجد الأموي ـ يعد تحفة من الفن العربي والبيزنطي، ولبعض العرب من أهل دمشق وصف له يدل على ما بلغه المسجد من الروعة والبهاء، يقول : «هو جامع المحاسن، كامل الغرائب، معدود من إحدى العجائب، قد ازور بعض فرشه بالرخام، وألف على أحسن تركيب ونظام».

ونعود إلى عمارة المسجد لنتعرف على فن المآذن به، فنرى أنه قد اشتمل على مئذنتين مربعتي الشكل، وهناك أخرى ثالثة مثمنة الشكل ذات أورقة منضدة، تعلوها بكرة وهلال. ويعتقد أن هذه الأخيرة هي أقدم مآذن المسجد الثلاث، فقد أقيمت في القرن الأول من الهجرة.

وبالمسجد ساعته المشهورة في كتب المؤرخين، ولعل وصف ابن جبير لها هو أدقها، ومنه نستدل على مقدار ما بلغه العرب في فن «الميكانيكا»، بالإضافة إلى سبقهم غيرهم في اختراع الساعات ذات الأثقال. وتردد المؤرخات مقدار البذخ والإسراف الذي أتاه الوليد من أجل هذا المسجد. وتهامس الناس في عهده بما كان منه في ذلك، ولما تسامع الخليفة بما يدور في أوساط الناس من نقد في هذا الشأن ـ خطبهم في المسجد، فقال : «بلغني أنكم تقولون وتقولون...، وفي بيت مالكم عطاء ثماني عشرة سنة، إذا لم يدخل لكم فيها حبة قمح».

ثم ولي الخلافة عمر بن عبد العزيز، فألفى أن المال الذي أنفقه سلفه على المسجد قد جانبه فيه الصواب، فقد تأثر بيت المال بسببه، فأخذ على عاتقة أن ينقذ بعضا من هذه ـ الأموال، وذلك بأن نزع الفسيفساء، واستعاض عن السلاسل الذهبية التي كانت تعلق بها المصابيح ـ بالحبال.

تلكم هي دمشق عاصمة بني أمية، وذلكم هو المسجد الأموي الجامع، تظللهما حضارة هذه الدولة، حين وسعت معارف الإنسانية، وأبرزت بدورها العلماء الأجلاء الذين ارتبطت حياتهم بذلك العصر، وفيهم من ارتقى به علمه إلى مناصب الدولة العليا حتى مرتبة الحكام. وقد قيضت الظروف آنئذ أن يكون للمسجد الكبير هذا دور هام في تخريج ذوي المواهب في شتى المعرفة.

وإن اتخاذ معاوية دمشق مقرا لخلافته لأمر حالفه فيه التوفيق إلى حد بعيد، فقد كانت الشام تحتفظ بالدم العربي والعصبية العربية، وعمل معاوية ـ منذ كان واليا عليها في عهد عمر بن الخطاب ـ على ترسيخ نفوذه في بلاد الشام، بوساطة الأقارب والأتباع والأنصار ممن تألفهم بالأموال والعطايا، حتى أضحت دمشق صالحة للخلافة الأموية، بالإضافة إلى العوامل الجغرافية، كاتصالها بشبه الجزيرة العربية، وما عرف عن خصوبة أرضها ووفرة محصولاتها، لأن قرب حاضرة المسلمين عن بلاد الحجاز لما يسهل تجنيد الجيوش ـ إذا دعت الحاجة في أقرب الأوقات وأيسرها، على أنه من العوامل الاستراتيجية كذلك قرب دمشق من حدود الامبراطورية البيزنطية، تلك الحدود التي كانت مثارا للنزاع بين حين وآخر بين العرب والروم، بحيث لم تكن تنطفئ جذوة الحرب بين الطرفين هذين إلا لفترات الاستعداد للاقتتال.

هذا، وقد اتسعت مدارك علماء الإسلام في هذا العصر لعلوم شتى، كعلم القراءات ـ والتفسير، وعلم الحديث ورجاله، وعلم النحو، وعلوم الأدب، وما إلى هذه الثقافات من فروع.

وفي مجالات العلوم العملية برزت طوائف من الرواد في علوم الكيمياء والطب وغيرها، مما اعتمد فيه علماء المسلمين على التجربة والترصد.

كذلك أخذ المسلمون على عاتقهم يومئذ تدوين السير والفتوح الإسلامية، فظهرت مؤلفات في السيرة النبوية وكتب المغازي، وقد استهل معاوية عهده بتشجيع كتاب السير والمغازي، ببذل العطايا والمنح، إيمانا منه بأهمية كتب التراجم والغزوات.

3 ـ بغداد

تولى الخليفة أبو جعفر المنصور الخلافة العباسية عام 136 هـ (754م)، فلم يشأ أن يبقى على دمشق عاصمة للدولة الإسلامية، وربما كان له العذر في هذا التحول عنها إلى غيرها، وذلك لعوامل داخلية وأخرى خارجية، فمن

العوامل الداخلية أن بني أمية وأتباعهم وأنصارهم كانوا يعمرون دمشق، الأمر الذي سوف لا يساعد العباسيين على تثبيت دعائم دولتهم على المدى البعيد. ومن العوامل الخارجية أن حاضرة الأمويين كانت ـ كما ذكرنا ـ قريبة من حدود الدولة البيزنطية، فكانت بذلك هدفا بين الحين والحين لغارات جيوش بيزنطة. يضاف إلى هذا أن العباسيين كانوا يومئذ في حاجة إلى مقر لخلافتهم يكون قريبا من بلاد الفرس الذين كانوا مصدرا لقوتهم، حيث لم تكن للعباسيين عصبية بين العرب، وإنما اعتمدوا في الوصول إلى مركز الخلافة على الموالي من الفرس.

لذلك حاول المنصور أن يتخذ حاضرة جديدة قرب نهر دجلة، حيث خصوبة الأراضي المحيطة به، وفي بقعة تسهل فيها المواصلات بين أطراف الدولة، وتنتعش فيها أسباب الرزق للرعية، وهكذا بعث برجاله الذين انطلقوا في مناطق قريبة من الموصل، مقارنين بين بقعة وأخرى، حتى استقر رأي المنصور باستشارتهم واستطلاع رأي سكان تلك المناطق ـ على اختيار إحداها على طريق دجلة والفرات وفروعها، وحيث ترد إليها المؤن من الشرق والجزيرة ومصر والسند والبصرة وواسط وأرمينية وأذربيجان (5)، ويقال لهذه البقعة «بغداد»، والتي كانت ـ قبل اتخاذها ـ مصرا عبارة عن قرية قديمة ينسب تأسيسها لبعض ملوك الفرس على الشاطئ الغربي لنهر دجلة.

ويؤيد البحث الحديث وجود بغداد القديمة، «وقد ذكر لي سترينج أن المنقب الإنجليزي سيرهتري رولينسون عثر في سنة 1948م في وقت انخفاض نهر دجلة على سور من الآجر بحذاء بشاطئ هذا النهر الغربي، ومنه يظهر أن مدينة قديمة كانت تقوم في هذا المكان، وقد وجد إسم «بختنصر» وألقابه وغزواته منقوشة على قطع الآجر، كما ظهر في الثبت الجغرافي الآشوري لحكم «سرد انابالوس» لفظ يقارب تماما لفظ بغداد» (6).

وقد سميت المدينة بمدينة السلام، هكذا دعاها المنصور، تفاؤلا وإحياء لذكرى جزء منها درس، وكان قد أنشأه أحد ملوك الفرس. كذلك كان يسمى الجانب الغربي من بغداد ـ «الزوراء»، لازورار واضح في اتجاه القبلة بها، وقيل لازورار نهر دجلة عند مروره بها، ويؤيد هذا الاتجاه ما جاء عند المسعودي من أن أهل هذه المدينة كانوا يطلقون عليها الزوراء ـ والروحاء في عصره، والروحاء بالذات كانت تطلق على الجانب الشرقي من المدينة لانبساط نهر دجلة عنده، كما دعاها المؤرخون أيضا «المدينة المدورة» لاتخاذها شكل للدائرة، كما عرفت بدار السلام تشبيها بالجنة (7).

هكذا بدأ المنصور يخطط لمدينة بغداد، بأن جند لذلك المهرة من المهندسين والفعلة والصناع وأصحاب الحرف المختلفة من البلاد المجاورة في الشام والكوفة وواسط وبلاد الديلم والكوفة والبصرة، بالإضافة إلى طائفة من الموثوق بهم فضلا وعلما وأمانة ومعرفة بالهندسة والحسابات، أمثال عمران بن وضاح والحجاج بن أرطأة.

وضع أبو جعفر المنصور أول لبنة للمدينة، مستفتحا بقوله : «بسم الله، والحمد لله، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين»، ثم أردف قائلا مخاطبا من حوله : «ابنوا على بركة الله» (8)، وذلك من خلال احتفال عظيم، حضره كبار ورجال الدولة من الأمراء والوزراء والعلماء، والقواد وأعيان القوم، ثم حفر الأساس عام 145 هـ، بعد أن روعي فيه الاستجابة لرغبة المنصور في أن تأخذ المدينة شكل الدائرة، وأن يكون قصره ومسجده في وسطها، وهو تقليد غير مسبوق في إقامة المدن الإسلامية، مما يستنتج منه أنه يمكن أن يكون مقتبسا من الهندسة المعمارية الفارسية. وكان من الطبيعي أن يجعل المنصور حول القصر والمسجد بناية خاصة بالحرس من ناحية باب الشام، بالإضافة إلى سقيفة كبيرة أقيمت على أعمدة، واختص بها كلا من صاحب الشرطة وصاحب الحرس، وبالقرب من هذه البنايات شيدت منازل أولاد الخليفة، تحيط بها دور الخدم والعبيد الذين يقومون بشأنهم، وحولهم شيدت كذلك القصور الخاصة بالأمراء ورجال الدولة

5) الخطيب البغدادي، «تاريخ بغداد» جـ 21/1.

6) Baghdad During the Abbasid Caliphote, PP. 9 – 10 وتاريخ الإسلام، د. حسن إبراهيم، جـ 361/1.

7) البغدادي، تاريخ بغداد، جـ 77/1 ـ 78.

8) الطبري في «تاريخ الأمم والملوك» جـ 241/9.

وأصحاب الدواوين المختلفة، ومن بعد ذلك أقيمت الدور العامة تتخللها الأسواق والمرافق العامة، بعد أن روعي في البداية أن تكون الشوارع الرئيسية للمدينة أربعة، ومنها تتفرع الشوارع الأخرى، ويحيط بالمدينة سور عظيم مزدوج بلغ ارتفاعه قدر قامة، تتخلله البوابات الرئيسية ذات الأبراج العالية (9)، بحيث أجمع المؤرخون على أن بناء بغداد قد تم عام 146 هـ، ولكن بناء السور والخندق لم يتم قبل سنة 149 هـ (10).

ويذكر أنه سرعان ما ازدحمت بغداد بالسكان من مختلف الطوائف، وقصدها العلماء والأدباء من كافة الأنحاء المجاورة خاصة، وغصت بها فئات شتى من أرباب الحرف والصناع، الأمر الذي رأى معه المنصور أن يهجر قصره داخل المدينة، إلى حيث أنشأ لنفسه دارا ـ خاصة خارج المدينة، إذ بنى «قصر الخلد»، عام 157 هـ في مكان طيب الهواء بعيدا عن اكتظاظ السكان (11).

هكذا أصبحت بغداد أم المدائن في الشرق يومئذ، وبلغ عدد سكانها مليوني نسمة، وحيث ازدهرت فيها الصناعات المختلفة، وتطورت بها الفنون في شتى ألوانها، ولقد بالغ الأدباء والكتاب في مدحها، فمن ذلك قول بعضهم : «بغداد جنة الأرض ومدينة السلام، وقبة الإسلام، ومجمع الرافدين، وعزة البلاد، وعين العراق، ودار الخلافة، ومجمع المحاسن والطيبات، ومعدن الظرائف واللطائف، وبها أرباب الغايات في كل فن، وآحاد الدهر في كل نوع».

وقد امتدحها من الشعراء الكثيرون، نذكر منهم وصف طاهر بن المظفر بن الخازن بالأبيات التالية :

هي البلدة الحسناء خصت لأهلها
بأشياء لم يجمعن مذكن في مصر
هواء رقيق، في اعتدال وصحة
وماء له طعم ألذ من الخمر
ودجلتها شطان قد نظما لنا
بتاج إلى تاج، وقصر إلى قصر

9) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد، جـ 76/1.

10) الطبري : جـ 241/9.

11) تاريخ بغداد، للبغدادي، جـ 75/1.

ثراها كمسك، والمياه كفضة
وحصباؤها مثل اليواقيت والدر

ويقول الجاحظ عن بغداد أيضا :

«قد رأيت المدن العظام، والمذكورة بالاتقان والأحكام، بالشامات وبلاد الروم، وفي غيرهما من البلدان، فلم أر مدينة قط أرفع سمكا، ولا أجود استدارة، ولا أنبل نبلا، ولا أوسع أبوابا، ولا أجود فصيلا من الزوراء، وهي مدينة أبي جعفر المنصور، كأنما صبت في قالب، وكأنما أفرغت إفراغا» (12).

ولقد ظلت بغداد حاضرة العباسيين طوال أيامهم، وبقيت بعدئذ حتى عام 656 هـ تاريخ سقوط الدولة، حيث عاث فيها التتار وخربوها بقيادة زعيمهم هولاكو. ويذكر في هذا الصدد أن الخراب كان قد أصاب المدينة مرتين قبل التتار، أولهما خلال الفتنة التي نشبت بين الأمين والمأمون أواخر القرن الثاني للهجرة، والثانية حين أغار البويهيون على بادية العراق، وأطبقوا على بغداد عام 334 هـ، وفي كلتا المرتين أصاب بغداد الجسيم من الهول، والخراب، بحيث أنفق الكثير في سبيل الإصلاحات المختلفة بها، ولم تعد مع ذلك كما كانت مدينة المدائن الشرقية».

العلم والعلماء في بغداد العباسية :

يتفق المؤرخون على أن بغداد قد بلغت ذروة الرخاء في عصر هارون الرشيد (786 ـ 809م) وابنه المأمون (813 ـ 833م)، ففي عهد الأول انتشرت الثقافة وعمت الدولة الإسلامية وخاصة بغداد، فقد استدعى الأساتذة من مختلف أقطار العالم، ونقلت إلى اللغة العربية كتب علماء اليونان واللاتين ولا سيما كتب الفلسفة والرياضيات، وأضحت تدرس في كافة المدارس، واشتغل الغرب آنئذ بدراسة تاريخ القدماء، فسبقوا الأوربيين في هذا المضمار وغيره ببضعة قرون.

«وأقدم العرب على تلك المباحث التي لم يكن لهم عهد بها بشوق ونشاط، وأكثروا من إنشاء المكتبات العامة والمدارس والمختبرات في كل مكان، فكانت لهم اكتشافات

12) المصدر السابق، 77.

مهمة في أكثر العلوم.

«كان حب العرب للعلم عظيما، فلم يترك الخلفاء في بغداد طريقا لاجتذاب أشهر العلماء ورجال الفن في العالم إلا سلكوها، فمن ذلك أن أشهر أحد أولئك الخلفاء الحرب على قيصر الروم، ليأذن لأحد الرياضيين المشهورين في التدريس ببغداد. «وكان العلماء ورجال الفن والأدباء من جميع الملل والنحل، من يونان وفرس وأقباط وكلدان، يتقاطرون إلى بغداد، فيجعلون منها مركزا للثقافة في الدنيا، وكان المأمون ابن هارون الرشيد يعد العلماء أناسا اختارهم الله لتنوير البصائر وإضاءة العالم وهداية الناس، فيرى أن الناس لولا هم لعادوا إلى الجاهلية الأولى، كما روى أبو الفرج» (13).

ونتيجة لهذا نلمس بوضوح مقدار رقي المعارف والعلوم في شتى أنواعها وألوانها، ففي **الميدان الشعري** نرى من أئمة الشعراء أبا تمام والبحتري وابن الرومي والمتنبي والمعري والشريف الرضي. وإنه ليروى في هذا الصدد أنه قيل لأبي العلاء المعري : أي الثلاثة أشعر : أبو تمام، أم البحتري، أم المتنبي ؟ فقال : المتنبي وأبو تمام حكيمان، وإنما الشاعر البحتري (14).

وفي الميدان النثري نرى من أعظم كتاب النثر أثرا وتأثيرا أبا عثمان الجاحظ، بفضل أسلوبه وغزارة إنتاجه وتنوعه، وحسبنا فيه شهادة المؤرخ المسعودي حول مؤلفاته المتعددة، وذلك حين يقول : «ولا يعلم أحد من الرواة وأهل العلم أكثر كتبا منه، مع قوله بالعثمانية (أي تشيعه لعثمان بن عفان)، وقد كان أبو الحسن المدائني كثير الكتب، إلا أن أبا الحسن المدائني كان يؤدي ما سمع وكتب عن الجاحظ، مع انحرافه المشهور، لأنها (أي مؤلفاته) تجلو صدأ الأذهان، وتكشف واضح البرهان، ولأنه نظمها أحسن نظم، ووصفها أحسن وصف، وكساها من كلامه أجزل لفظ، وكان إذا تخوف ملل القارئ أو السامع، خرج من جد إلى هزل، ومن حكمة بليغة إلى نادرة ظريفة، وله كتب عدة، منها : كتاب «البيان والتبين»، وهو أشرفها، لأنه جمع فيه المنثور والمنظوم، و... و... ومستحسن الأخبار، وبليغ الخطب مما لو اقتصر عليه مقتصر لاكتفى به، مثل «الحيوان»، وكتاب «الطفيليين والبخلاء»، وسائر كتبه في نهاية الكمال، لم يقصد إلى نصب، ولا دفع حق، ولا يعلم ممن سبق وخلف من المعتزلة أفصح منه» (15).

ويعتبر القرن الرابع الهجري عموما عصر النهضة الأدبية، لكثرة علماء البيان ووفرة إنتاجهم، وقد سمت هذه الموهبة، بكثير منهم إلى درجة ارتقاء المناصب المرموقة في بلاط الخلفاء، وإلى اختيار الوزراء والسفراء منهم.

كما نبغ في **الفلسفة** كثيرون من علماء الإسلام، فمن أعلام هؤلاء ابن إسحاق الكندي وأبو نصر الفارابي (339 هـ)، ومن أشهر فلاسفة هذا العصر جماعة «إخوان الصفا» التي أخذت على عاتقها إتمام رسالة المعتزلة، ولا سيما فيما يتصل بالتوفيق بين العلم والدين، وتحقيق الانسجام بين الشريعة الإسلامية والفلسفة اليونانية.

كذلك ضرب العرب يومئذ بسهم وافر في **العلوم العملية، كالطب** الذي اشتهر فيه كثيرون، أمثال حنين بن إسحاق (260 هـ)، والذي أعجب به الخليفة الواثق، وطلب منه أن يؤلف له كتابا يشتمل على كافة ما يحتاج إلى معرفته صحيا «فصنف له كتابا جامعا ثلاث مقالات، يذكر فيه الفرق بين الغذاء والدواء والمسهل وآلات للجسد» (16).

ومن أئمة الطب كذلك أبو بكر محمد بن زكريا الرازي المتوفى عام 311 هـ الذي طلب منه حاكم الري منصور بن إسحاق بن أحمد بن نوح الساماني أن يضع له كتابا في الطب، فألف له كتاب «المنصوري» في الطب - وهو على صغر حجمه - من الكتب المختارة الجامعة بين العلم والعمل، ولا يستغنى عنه إنسان (17).

وذلك إلى جانب العديد من المؤلفات الطبية المشهورة، وقد أسندت إلى الرازي مارستان بغداد في عهد الخليفة المكتفي العباسي، وله آراؤه الصائبة في الشروط الواجب توافرها في الطبيب الماهر.

---

13) حضارة العرب، لجوستاف لوبون، ص 217 ـ 219.

14) ابن خلكان، جـ 2 ص 176.

15) مروج الذهب، جـ 2 ص 439 ـ 445.

16) نفس المصدر، ص 863.

17) ابن خلكان، جـ 2 ص 78.

ومن العلوم التي مارسها العرب في ذلك العصر **علم النجوم والفلك**، وكان للأول تأثير مأثور في توجيه السياسة العامة عند بعض الخلفاء والأمراء الذين كانوا يعولون على ما يقوله المنجمون فيما يستشيرونهم فيه، كاعتماد أبي جعفر المنصور على المنجم أبي سهل بن نوبخت حينما أراد تأسيس مدينة بغداد، فقد أخبره هذا المنجم بما أشارت به النجوم من أن بقاء هذه المدينة سيطول، وستعمر بالبنايات العظيمة، وأنه لن يموت بها خليفة لبني العباس، وقد نبغ من علماء النجوم طائفة، منهم أبو عبد الله محمد بن جابر التباني الصابي، المتوفى عام 319 هـ، وأبو جعفر بن محمد بن عمر البلخي، وأبو الريحان البيروني المتوفى عام 440م.

كذلك من المعارف التي نبغ فيها علماء العصر **علم الرياضيات**، وقد اشتهر فيه ثابت بن قرة الحراني (221 - 288 هـ)، فمن مؤلفاته في هذا كتاب «حساب الأهلة»، وكتاب في استخراج المسائل الهندسية، وكتاب الأعداد، وغيرها. ومن هؤلاء أيضا أبو الوفا محمد بن إسماعيل بن العباس، المولود عام 328 هـ، ومن مؤلفاته : كتاب «ما يحتاج إليه العمال والكتاب، في صناعة الحساب»، وهو سبعة أقسام، بكل قسم سبعة أبواب سملت كافة أنواع الرياضيات، وكتاب الخوارزمي في الجبر والمقابلة، وغيرها من الكتب.

ولقد حفل القرن الثالث والرابع الهجري - وهو العصر الذهبي للثقافة الإسلامية - **بجمهرة من المؤرخين**، فمن أشهر مؤرخي القرن الثالث الهجري اليعقوبي المتوفى عام 282 هـ، وكتابه المعروف بـ «تاريخ اليعقوبي» من المصادر المعتمدة، كما أن مؤلفه «البلدان» من الكتب الجغرافية الهامة.

ومن هؤلاء المؤرخين أيضا البلاذري المتوفى عام 269 هـ، صاحب كتاب «فتوح البلدان»، ومنهم الطبري المتوفى عام 310 هـ، صاحب كتاب «الأمم والملوك»، وهو من الأصول التاريخية التي يعتمد عليها، «ولا غرو فإن الطبري أكثر تحقيقا ممن سبقه من المؤرخين، فضلا عن أنه انفرد بذكر حوادث لم يذكرها أحد قبله، وقد تكلم عن الحوادث التاريخية منذ بدء الخليقة إلى سنة 302 هـ، ثم جاء غريب بن سعيد القرطبي المتوفى سنة 336 (976 - 977م)، فوصل الحوادث في كتابه المسمى «صلة تاريخ الطبري»، من سنة 290 هـ إلى نهاية عهد الخليفة المقتدر العباسي سنة 320 هـ (18).

ومن المؤرخين المشهورين في القرن الرابع الهجري أبو عبد الله محمد بن عبدوس المعروف بالجهشياري، صاحب «كتاب الوزراء والكتاب»، وهو مؤرخ قديم من طبقة ابن جرير الطبري والمسعودي، ويعتبر كتابه هذا من أشهر كتبه، من حيث أنه من أول ما ألف من نوعه، وقد جرى على منسقه بعدئذ طائفة من المؤرخين، منهم هلال بن المحسن الصابي (359 - 448 هـ) في كتابه الفريد «تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء»، وقد وصل به كتاب الجهشياري إلى سنة 393 هـ، ومنهم ابن منجب في كتابه «الإشارة إلى من نال الوزارة».

ومن كتاب التاريخ البارزين في هذا العصر أبو بكر محمد بن يحيى الصولي المتوفى سنة 335 هـ، صاحب كتاب «الأوراق»، في تاريخ الدولة العباسية، وما كان من أخبار شعرائها، ونذكر أيضا بصفة خاصة من هؤلاء المؤرخين - أبا الحسن المسعودي صاحب «مروج الذهب».

وإن الإشارة - بهذه المناسبة - لجديرة بالتنويه بالحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، المتوفى سنة 463 هـ، حيث يرجع إليه الفضل في تأليف مصدر هام وضخم، تناول فيه تاريخ بغداد «وهو من أهم الكتب التي يعتمد عليها في دراسة تاريخ الدولة العباسية، منذ تأسيس مدينة بغداد في عهد الخليفة المنصور سنة 145 هـ إلى سنة وفاة هذا المؤلف. ويشتمل هذا الكتاب على وصف ضاف لمدينة بغداد، كما يمدنا بأخبار من عاش فيها من الخلفاء والأمراء والوزراء وغيرهم ممن عاش فيها أو رحل إليها من أهل العلم والفضل. ويقع الكتاب في أربعة عشر مجلدا، ولا غنى عنه لطلاب البحث في تاريخ الدولة العباسية في أزهى عصورها إلى سنة وفاة المؤلف» (19).

أما علم **الجغرافية** فقد تعددت المؤلفات فيه بصورة

---

18) د. حسن إبراهيم «تاريخ الإسلام السياسي» جـ 398/3.

19) مروج الذهب، جـ 3 ص 408.

واضحة إبان العصر العباسي الثاني، وأقدم جغرافي المسلمين في هذا العصر هو ابن خرداذبة، معاصر النصف الأول من القرن الثالث الهجري، وكتابه «المسالك والممالك» غني عن التعريف لسبقه في ميدان التأليف بالعربية في هذا الميدان، وهو كدليل للمسافر بحرا من مصب نهر دجلة حتى بلاد الهند والصين.

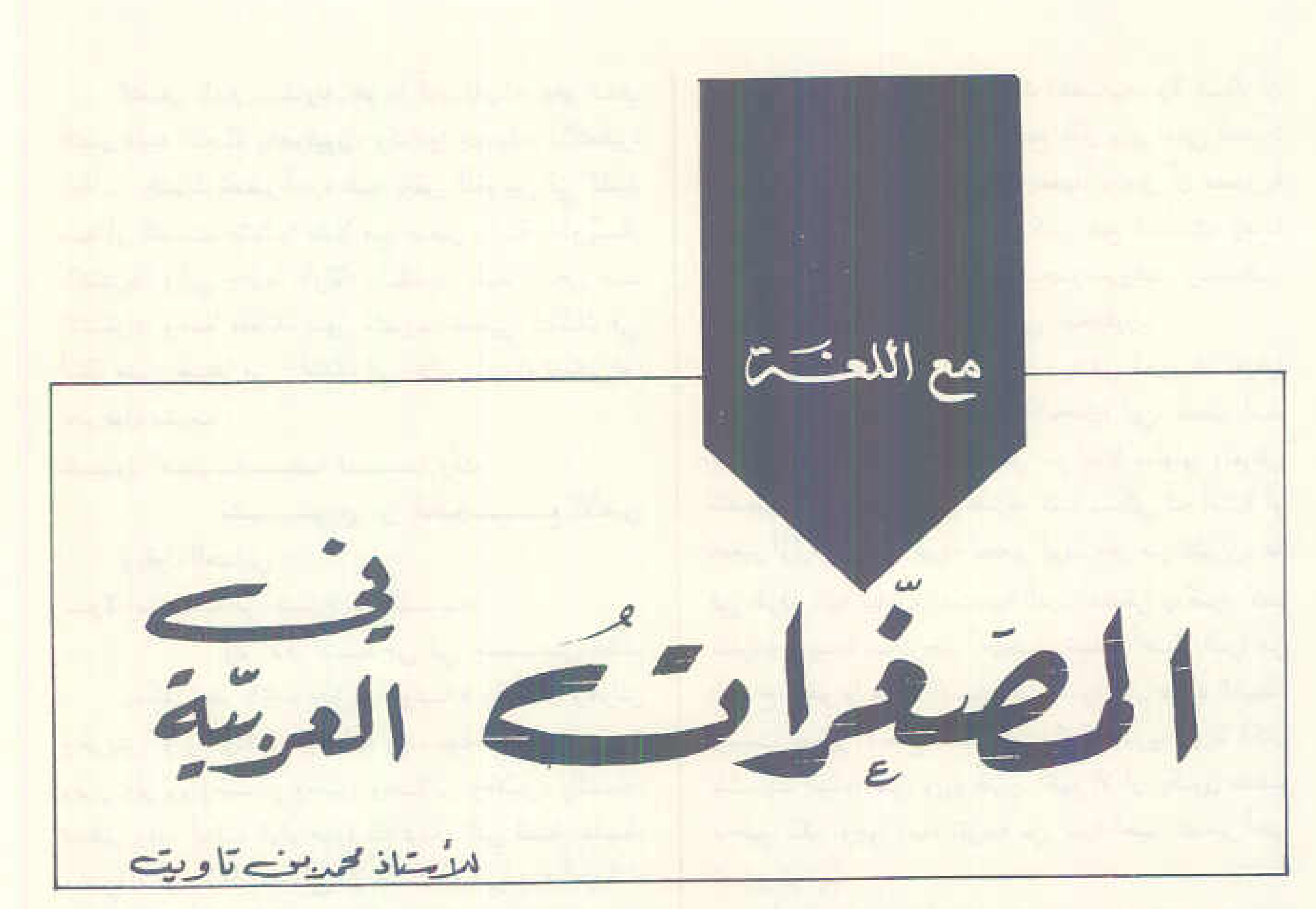
وأما اليعقوبي «المتوفى عام 282 هـ، فقد قام برحلات في بلاد أرمينية وإيران والهند ومصر وبلاد المغرب، وسجل أسفاره هذه في كتابه «البلدان»، وكذلك الهمداني المتوفى عام 334 هـ صاحب كتاب «صفة جزيرة العرب»، وقد دون فيه زياراته التي قام بها إلى معظم بلاد العالم، كبلاد الفرس والهند وبحار الصين، وسواحل إفريقية الشرقية والسودان، إلى جانب رحلاته في إقليم بحر قزوين وآسيا الصغرى، وبالإضافة إلى الشام، كما زار مصر في عصر كافور الأخشيدي سنة 330 هـ، وجال بين أقاليمها وآثارها، مسجلا وصفه لفن العمارة لدىالفراعنة، والبلاط المملوكي، وطبقات الناس يومئذ، كما تحدث عما اهتم به المصريون في التنقيب عن آثار الفراعنة، واكتشافهم بعض المقابر الفرعونية ذات التوابيت والموميات، مما كان له شأن عظيم في توجيه الأنظار في العصور المتأخرة إلى متابعة تلك الكشوف عن آثار القدماء المصريين (20).

«يتبع»

القاهرة : د. محمد كمال شبانه

---

20) مروج الذهب، جـ 1 ص 112 ـ 213، 228 ـ 229.



كثيرا ما تحملني مناسبة طارئة على دراسة أو استقراء مسألة من المسائل العديدة وقد كان من ذلك أخيرا، استقراء كلمة «فُعُل» بضمتين، سينشر قريبا في مجلة «اللسان العربي»، ثم موضوعنا هذا، الذي انبثق من استغراب طالبة، وجود كلمة «بُثينَة» بدون ياء في نص أندلسي، وهي تحضر موضوعا أشرف عليه، فأجبتها، إن هذا هو الأصل، أما الياء، فإنما جاءت للتصغير.

والحق أن استغرابها لا يستغرب، في مثل هذه الكلمة التي لم تعرف عندنا إلا مصغرة «بثينة» جميل (المنسوب إليها) كما لا يستغرب من غيرها، إن وقع، عدم التنبيه، إلى كون كثير ورقية وسكينة وسمية وقريظة، ونحوها كلها مصغرة بالياء فيها.

وكثير من المصغرات، بالياء جهل أصلها، حتى قال في بعضها ابن دريد، وهو يتناولها بكتابة الاشتقاق، «إن هذه الأسماء المستشنعة مشتقة من أحرف قد أميتت» يريد بالحروف الكلمات، والمراد بالممات منها، هو الذي تنبهت له المعاجم الأوربية، بعد ابن دريد، بمئات السنين، أو عشرها، فسمتها بالكلمات الميتة «dead word» بدل المماتة،،

وقد غم على بعض الفحول السابقين في اللغة، أصول لكلمات منها في التصغير الذي نحن بصدده، كلمة

«الدقيش» فقد ذكر عن الخليل، أنه سأل أبا الدقيش؛ ما الدقيش ؟ فقال : لا أدري، إنما هي أسماء نسمعها ولا نعرف معناها».

ورد هذا الكلام في مقدمة «الاشتقاق» وقال ابن دريد فيه : «هذا غلط عن الخليل» ومما غمض مكبره «لجين» الوارد في الفرنسية بمعنى العملة الفرنسية ولا يهمنا إن كان خطأ أم لا، إنما يكفينا في هذه المشكلة ابن دريد نفسه حيث يقع في شك من أصل كلمات وردت بكثرة في كتابه المذكور، وهذا من نتاج القرن الرابع، الذي استيقظ فيه اللغويون على جلبة من هذا الاشتقاق، تجدها عند الفارسي وابن جني فابن فارس، ثم الراغب.

التصغير الذي سنتناوله، هو ما كان بالياء، وهو الذي اقتصر عليه النحاة والصرفيون، وكانوا يسمونه بالتحقير، بادئا... وهناك تصغير آخر، نبه بعض اللغويين في كلمة منه أو كلمات، فقالوا مثلا في تصغيز «دابة» «دُوَيْبَّة» بالتشديد، وإلى جانبها «دُوابَّة» بالتشديد، طبعا، ونحن عند الاستقراء، وجدنا «فعالة» بدون تشديد، تصغيرا كذلك في أمثلة منها، نجدها في : أُمامة، إلى جانب أميمة، تصغير أم، نحو قول سديف :

تقــول أمـــــامـــــة لمــــا رأت

نشـــــوزي عن المضجــــــع الأنفس

ويقول الحماسي :

لــولا أُمَيْمَــــة لم أجــزع من الهــــدم

ولم ألاق الــــدجى في حنــدس الظُّلم

وهكذا نجد «ذؤاب وذُؤيب، وعبادة وعُبَيْدة، وحراش وحُريش، ودُؤاد ودُؤَيْد، وجداعة وجديعة، وعُمارة وعميرة وقُرار وقُرَيْر، وجُبــار وجُبَير، وجـلاس وجُلَيْس، وأتـــاد، تصغير وَتِد، أبدلت الواو همزة للقاعدة، التي تطبق عليها، مضمومة أول الكلمة، على أن هناك تصغيرا ورد أحيانا، مرادا منه التعظيم والتكبير، وذلك في البيت مثلا :

وكـل أنـــاس سـوف تـــدخـــل بينهم

دويهيــــة تصفر منهـــا الأنـــامــل

وقـد يجـاب في هـذا بـأن البلاغـة تـدخلت في الموضوع، فجعلته من قبيل الاستعارة التهكمية، كما تقول عاميتنا : «دايَا نَعْمَلْ لَكْ واحدا الْخُوَيْتْمة قَدْ يدَّكْ» ناتي بهذا التصغير للخاتم في معرض التهديد بها، وهو تعظيم طرق في قول المتنبي : «أُيَيْلِتنا المنوطة بالتناد» ولكن فيما عدا هذا، نجد «فعيلا» تحل محل «فعول» أو العكس، كما في هذا البيت الذي يستشهد به النحاة:

أظلـــــوم إن مصــــــابكم رجــــــلا

أهــــــدى الـــــسلام تحيــــــة ظلم

وقد تكرر ذكر هذا البيت في كتاب الاشتقاق هكذا:

«أظَلَيْم إن مصـــــــابكم رجــــــلا»

كما أن ذكر بعض الأسماء التي يقصد بها التهويل، تفاؤلا، جاءت بالتصغير، كما جاء جمعا، مثل كليب، وكُلاَب أو جمع هذا على كُلُب. فهذا الجمع، إنما قصد به التكبير، كما هو في قولهم «بلد اخصاب»، ولا شك أن مصدر الفعول، كثير منه كان جمع فَعْل وإن ادعى النحاة والصرفيون أن المصادر لا يمكن جمعها، والحق أن مصدرية كثير منها تتناسى، فيقع الجمع، كما يقع التأنيث، وهذا مبحث سنرجئه لما بعد، لما نستجمع شروطه، ونستقطب شواهده الحقة، أو الحق، كما يدعي المحققون.

ومهما يكن، فهذه أمثلة، لما ورد في العربية، مصغرا بالياء، نستعرضها حسب الترتيب الأبجدي؛ أُبي، تصغير أب، أبير، تصغير وَبْر فالقاعدة أن كل اسم يُبدئ بالواو، وتعرض للتصغير، تحولت الواو إلى همزة، كما ستأتي له أمثلة أو تصغير أُوَبْر، مُرَخما. أبيرد، تصغير أبرد، وهو من الثيران، ما في طرف ذنبه بياض، سمت به العرب مصغرا ومكبرا، كما صغرته بريدا بالترخيم أحيحة، تصغير أحة، المرة من الاحاح، وهو ما يجده الإنسان في صدره من حرارة الغيظ، وليست تصغير الاحاح نفسه، كما قال ابن دريد، وإلا لكان بتشديد الياء، على وزن فُعَيْل. اللهم إلا أن يكون تصغير ترخيم، لكن وجود الياء تقربه من المرة أحيم، تصغير أحم، تصغير ترخيم.

أخيشن، تصغير أخشن، وقد صغر هذا تصغير ترخيم، كما سيأتي في خشين.

أدى، تصغير ودى.

أدية، تصغير ودِّية، كذلك وهي كما يقول ابن دريد : الغسيلة، والجمع ودي. أما الغسيلة فهي النخيلة تقطع من أمها لتغرس.

أُذينة، تصغير اذن، العضو، لتأنيثها.

أُسيد، تصغير أسد.

أُسيد، بالتشديد، تصغير أسود، والنسبة إليه بالتخفيف، كراهية اجتماع كسرتين، الأولى للتصغير والثانية للنسب أطيط، تصغير أطيط، والأطيط تصويب الابل حنينا، ومنه «أطن الإبل، في لامية الأعشى. ويقال «صم أهل أطيط وصهيل إبل وخيل

أُقيش، تصغير وقش، وهو الحركة الخفيفة.

أُقيشر، تصغير أقشر، وهو الشديد الحمرة، وهو المقصود في المناظرة التي كانت بين كسرى ووفود العرب وهو الأبرص كذلك.

أكيدر، تصغير أكدر، من الكدر، وقد سمت العرب به مكبرا، كما صغرته، تصغير ترخيم، كدير.

أميمة، تصغير أم، وتقدم ذكر ذلك.

أمية، تصغر أمة، قال ابن دريد : والنسب إليه أموي بضم الهمزة، فأما من قال أموي (فتحا) فقد أخطأ، وفي بني كنانة،، أمة والنسب أموي (1).

أنيف، تصغير أنف، العضو، أو أنف الجبل، ولعل هذا المقصود، في أنيف بن جبلة، فارس الشيظ.

أويس، تصغير أوس، سمي به القروي، التابعي الزاهد، وهو عمرو بن جزء ويسمى به الذئب :

يــــاليت شعري عنـــــك والأمر أمم

مــــا فعــــل اليــــوم أويس في الغنم

بجير، تصغير بجر، أو أبجر، تصغير ترخيم، وبهــــذا سمي ولده، وهنوا والد حجّار، الذي أسلم على يد عمر.

بديل، تصغير بدل

بريدة، تصغير بردة بضم وسكون، أو بفتحتين، كما يذكر ابن دريد، وأرى أنه تصغير أبرد، تصغير ترخيم، وهو الثور الذي في طرف ذنبه بياض، وتقدم هذا في أبيرد، الذي لم يرخم في تصغيره هذا، ورخم في بريدة، كما تقدم لابن دريد نفسه والغريب منه أنه اقتصر هنا، على الأولين، مع تعرضه لابرد، وذكره لتصغيريه.

بريك، تصغير برك، الذي هو الصدر، كالبركة، ولكن الباء تكسر هنا، من برك البعير، والبريكان رجلان من الفرسان.

بقيلة، تصغير بقلة.

بكير، تصغير بكر.

بوى، تصغير بو وهو جلد الفصيل، الذي يملأ تبنا، فيقدم لأمه، لتدر اللبن، بعدما ذبح، فاحتبس لبها، تميّر، تصغير تامر.

تويت بن حبيب، تصغير توت، سمي به عديدون، منهم صحابة، ولسنا من هؤلاء، كما وهم بعضهم ثريا، تصغير ثرا.

ثويبة، مولاة أبي لهب، ومرضعة حمزة، تصغير ثوبة.

ثوية، تصغير ثواي من الثواء والإقامة.

جبير، تصغير جبر

جديد، تصغير جد

جديع، تصغير جدع.

جدى، تصغير جد، والد الأب، أو الحظ، والأول أظهر.

جريبة، تصغير جربة؛ وهو القراح الذي يزرع فيه.

جزى، تصغير جزء (بفتح فكون) بعد تحويل الهمزة إلى ياء، ثم الإدغام، وسموا جزء، مثل ابن سعد وابن ضرار وجد القرني

جشيش، تصغير أجش، تصغير ترخيم، وهو الغليظ الصوت عند الإنسان.

جعيد، تصغير جعد، يكنى به عن اللئيم؛ فهو جعد، أو جعد اليه، أو جعد القفا. والثاني للبخيل خاصة والأخير لضنين الحسب

جلي، تصغير جل بالفتح أو الضم وجل المتاع

جفينة، تصغير جفنة، قال ابن دريد : منه عند جفينة الخبر اليقين، وخطأ من جعل المثل «عند جهينة الخبر اليقين».

جليس، تصغير جلس، وهو الغلظ من الأرض، وأرى أن اشتقاق الجلوس منه في الأصل، بل إن ابن دريد يصرح بأن العرب تسمي نجد جلس، لارتفاعها، ويقال جلس الرجل إذا أقام بنجد، قال الشاعر :

إذا مــــا جلنبــــا لا تــــزل ترومنــــا

سليم لــــدى أبيــــاتنــــا وهــــوازن

جمير، تصغير جمر

جهينة، تصغير جهن، وهو غلظ القول

جويبر، تصغير جابر.

جويرية، تصغير جارية.

جوية، تصغير جواء، وهو موضع واسع غليظ من الأرض، كما يقول ابن دريد، ثم قال : وقال قوم تصغير جوة، والجوة والجواء واحد حب، تصغير حب، أو أحب، من حببت الرجل وغيره، قال غيلان بن شجاع؛ فوالله لولا تمو ما حببته ولا كان أدنى من عد وسالك أو هو تصغير والحب الذي هو في الابل كالحران في الخيل، والاحب

1) هذا هو الصواب، وتجويز أستاذنا أحمد أمين رحمه الله خطأ.

من البعير المحب الذي يبرك فلا يبرح مكانه.

حبيش، تصغير حبش، من حبش الشيء وهبشه، جمعه ولمّه.

حجير تصغير حجر.

حجيـة، تصغير حجـاة، وحجيـة اسم رجـل من بني معاوية.

حديبة، تصغير حدبة، وهي خروج الظهر ودخول البطن والصدر.

حدير، تصغير حدر، اما من قولهم أحدرث الثوب فتلت هدبه، أو احدرت جلده أثرت فيه، كل غليظ حادر سيأتي تصغيره

حديفة، تصغير حدفة، من معانيها شياه حجازية صغار، وطيور تشبه الإوز.

حريث، تصغير حرث، سمي به كثيرا في الجاهليـة والإسلام.

حقيق تصغير حق سمي بـه ضرب من التمر صغـار. والحق من الإبل الذي استحقت أمه الحمل من العام الثالث

حزين، تصغير حزن.

حزيّن، تصغير حزين،

حسين، تصغير حسن، ولعله إسلامي، إذ لا نعرف له ذكرا في الجاهلية.

حصيدة، تصغير حصدة.

حصين، تصغير حصن.

حصير، تصغير حصر، وحصير الكتائب، والد أسيد من الصحابة.

حضي، من حضأت النار حركتها لتتقد، فهو تصغير حضء.

حطيط، تصغير حط، ومالك بن حطيط، من سادة الجاهلية، أو تصغير أحط، وهو الأملس المتنين

حليس، تصغير حلس، يقول رؤبة، أم الحليس لعجوز شهرية والحلس يوضع على ظهر الدابة من اللحم بعظم الرقبة

حليل، تصغير حل، أو أحل، وهذا هو المسترخي العصب في القوائم من الدواب، فيكون تصغير ترخيم.

حميد، تصغير حمد أو أحمد، تصغير ترخيم في هذا.

حميس، تصغير حمس، أو أحمس، تصغير ترخيم، والأحمس المشتد الصلب في الدين أو القتال، ومنه الحماس والتحمس

حميضة، تصغير حمضة، والحمض ما ملح وأمر من النبات، مثل الخمط الحامض والمر من النبات وغيره، وهو في القرآن.

حويدرة، تصغير حادرة، والحادر كل غليظ.

حويرث، تصغير حارث، من سادة الجاهلية

حويص، تصغير أحوص، تصغير ترخيم.

خبيب، تصغير خب.

حوى، تصغير أحوى.

خبيب تصغير خب.

خبين تصغير خبن.

خثيم، تصغير أخثم، واللخم العريض الأنف الغليظه.

خريف، تصغير خرف، أو أخرف، تصغير ترخيم.

خشيمة، تصغير خشم، غلظ في الأنف.

خزيمة، تصغير خزم، وهو شجر له لحاء، تفتل الحبال منه.

خشين، تصغير خشن، أو تصغير أخشن، مصغرا، وقد تقدم أنه صغر مكبرا، كذلك في أخيشن.

خليد، تصغير خلد، وهو كالخلود البقاء.

خليف، تصغير خلف، وكان خليف بن عقبة من أظرف أهل البصرة، كما يرى ابن دريد.

خنيس، تصغير أخنس، كما يبدو، وكان خنيس، زوج حفصة بنت عمر، قتل يوم بدر، فتزوجها النبي عليه الصلاة والسلام.

خويلد، تصغير خالد.

دحينة، تصغير دحنة، قال ابن دريد أحسبه من دحنت الشيء هضته أو كسرته.

دحي، من دحوت الموضع ودحيت، سويته وسهلته، ومنه «والأرض دحلها»

دريد، تصغير أدرد، تصغير ترخيم، وهو الذي تحاتت أسنانه.

دقيش، تصغير دقش، وهو تطأطؤ الرأس ذلا وخضوعا.

دقيم، تصغير دقم، من دقمت فاه كسرته.

دليم، تصغير أدلم، تصغير ترخيم، والأدلم شدة الظلام، يقال ليل أدلم، كأدهم.

دهيم، من أسماء الداهية، فهي تدهم من دهم، بالفتح والكسر، ودهمته الخيل كاثرته، وعددهم كثير أو تصغير دويد تصغير دود.

ذؤيب، تصغير ذئب.

ذريح، تصغير ذرح، من ذرح الشيء في الريح ذراه.

ذميل، تصغير ذمل، وهو من ضروب السير للإبل.

رويبة، تصغير ربية، وربيبة بن عبد الله من بني عامر بن صعصعة.

ربيع تصغير ربع.

ربيق، تصغير أربق، تصغير ترخيم، والربق الذي يشد في عنق الجدي، ومنه ربقة العنق.

رخيلة، تصغير رخلة، وهي الأنثى من أولاد الضأن.

رديح، تصغير ردح، وهو تراكم الشيء بعضه على بعض.

رعين، تصغير رعن، أو أرعن بتصغير وترخيم.

رفيدة، تصغير رفدة العطية

رقيم، تصغير أرقم الحيات، أو تصغير رقم، والأول مرخم.

زبيد، تصغير زبد وهو العطاء.

رويم، تصغير روم بالفتح أو الضم.

زبير، تصغير زبر، وهو طي الآبار بالحجارة.

زريق، تصغير زرق، أو أزرق، وهو أوضح فيكون فيه ترخيم.

زميعة، تصغير زمعة، وهي الهنية للظلف.

زنيم، تصغير أزنم، وهو التيس ذي الزنتين، في عنقه، فهو أزنم، ويكون التصغير ترخيم.

زهير، تصغير زهر، أو أزهر، من زهر الروض أو من الشيء الزاهر المضيء، كالنهار ونحوه، وأزهر الوجه نيره وبهجه

زوى، تصغير زو، يقال جاء فلان زوا، إذا كان أحد اثنين في المجيء، وتوا، إذا كان وحده منفردا.

سبيع، وسبيعة، تصغير سبع.

سبين تصغير سبن، علم على مكان بالخيع.

سحيم تصغير أسحم، تصغير ترخيم، والأسحم الأسود.

سفيع، تصغير سفع وهو أن يأخذ الرجلان، كل منهما صاحبه بناصيته (لنسفعن بالناصية) وأصله الجذب.

سكينة تصغير سكنة.

سليك، تصغير سلك، كما يبدو، عداء يضرب به المثل وإليه تشير الشمقمقية : واعد على حلي سليك، هاربا من قرب كل خنق وسهوق

سليم وسليمة، تصغير سلم وسلمة.

سميفع، تصغير سمفع، إن كان أوله مضوما، وإلا فهو مثل سميدع، كما يقول ابن دريد، فلا تصير فيه.

وسمي تصغير سمي، وسمية العلجة المعروفة في التاريخ، أما القوم من أهل العلم من أهل زندورد، كان كسرى وهبها لملك، فهي معربة.

سهيل، تصغير سهل، اسم نجم واسم لابن عبد العزيز، أو ابن عبد الرحمن بن عوف، وقد ورد ذكر سهيل الرجا، لعمر بن أبي ربيعة.

سهية، تصغير سهوة، والسهوة المخدع أو الرف، يرتقى به في البيت، وهي السهوة التي كانت معروفة في غرف تطوان لعهدنا.

سويبط، تصغير سابط، وهو من مهاجرة الحبشة، والسبوطة من سبط ٧٨؟!٨! أو الأنامل كناية عن الجود.

سويد، تصغير أسود مرخما.

شبيل، تصغير شبل.

شتير، تصغير أشتر، مرخما، والشتر انشقاق جفن العين.

شتيم، تصغير أشتم، من الشتامة في الوجه قبحه.

شخيص، تصغير شخص، وهو ما يتراءى للإنسان من بعيد، ولا يستطيع النظر أن يتبينه.

شديد، تصغير شد.

شريح، تصغير شرح، سمي فارس من بني مالك.

شريف، تصغير شرف، يقال رجل أشرف، أي عظيم الأذنين، ففي تصغيره ترخيم.

شعيب، تصغير شعب، ولا يهم إن كان معربا، فبمجرد

التعريب، يلتمس له اشتقاق بذلك، وإن ذكر في الاشتقاق عربيا.

شعيث، تصغير أشعث، مرخما، كما يبدو، ومن شواهد المغني.

شعير، تصغير شعر، وكذا شعيرة.

شعيراء، ضرب من الذباب، أهي تصغير شعراء النبات، أو شجرة الحمض.

شميس، من الشماس، أو الشمس.

شمير، تصغير شمر.

شويعر، تصغير شاعر، واستعمل هذا في الجاهلية، قبل الإسلام.

صبيب، تصغير صب.

صبيرة، تصغير صبرة.

صدى تصغير صدى.

صعير، تصغير أصعر، والصعر داء يصيب الإبل فيلوى عنقها.

صليت، تصغير صلت.

صليع، تصغير أصلع.

صليمى، تصغير صلمى، ذكر بهذا قوم لاصطلامهم كل من حاربهم.

صميل، من صمل الشيء يبس.

صهيب، تصغير أصهب، وهو شدة الشقرة، وسمي بذلك صحابي ورد فيه الحديث : «نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه

ضبيب، تصغير ضب، وهو الذي يجمع خلفي الناقة بيديه ويحلب.

ضبيرة، تصغير ضبرة، وضبرة قبيل من همدان، واشتقاقها من الضبر، بمعنى الفقر، أو من ضبر الحجارة تنضيدها وبالكسر الإبط.

ضبيعة، تصغير ضبع، وهي مؤنثة، والمذكر ضبعان، وهذا هو المتبادر في التصغير المؤنث، لا الضبع ضرب من سير الإبل.

ضريس، تصغير ضرس الإنسان، أو المطر.

طريفة، تصغير طرفة بن، اسا، كالشاعر ابن العبد، قال الملتمس، وطريفة ابن العبد كان هديهم ضربوا صميم قذاله بمهند.

طغيم، تصغير طغم، وهو بالفتح البحر، والماء الكثير.

طفيل، تصغير طفل، والطفيلي نسبة إلى طفيل الأعراس، المشهور باقتحام مؤيدها.

طليحة تصغير طلحة الإسم المعروف، والطلح ضرب من شجر العضاة، واحده طلحة.

طلية، تصغير طلى.

طهية، تصغير طهاة.

ظريب، تصغير ظرب، بضمتين، وهو القصير الغليظ من الرجل.

ظليم، تصغير أظلم، كما يبدو، ومن هنا ناسب أن يقع محله ظلوم، في البيت المتقدم، ويبقى التصغير لم يؤثر في المدلول.

ظويلم، تصغير ظالم، لقب به من منع الحريم الذي كانت قريش تأخذه من الحاج إتاوة، أو لقب به لمنع حمير صرف الإتاوة.

عبيد، تصغير عبد، وعبيدة تصغير عبدة، وكلا التصغيرين، سمى به المذكر، كعبيدة بن الأجدع، وابن الجراح وابن الحارث مكبره عبدة، وهو اسم لمذكر كذلك، مثل عبدة بن الطبيب، أما عبيد، فكثير، كثرة مكبره، ولا إشكال.

عتيبة، تصغير عتبة، من الأعتاب، التي يصعد عليها وينزل، والأصل فيه الغلظ من الأرض، وهو اسم لمذكر كذلك.

عجيف، تصغير أعجف، وهو المهزول بعد السمن، وعجيل تصغير عجل، أما عجيل بالتشديد، لعاجل، فأعرابي قاطع طريق بالإسلام عديل، تصغير عدل، بالفتح أو الكسر، مع اختلاف في المعنى لهما.

عريب، تصغير عرب، أو عريب (مرخما) توفق في ذلك ابن دريد، وشك في الأصل، فقال لعله من الأحرف التي أميتت، كما أشرنا إليه عريد، تصغير عرد، وهو الشيء الصلب.

عريج، تصغير أعرج.

عرينة، تصغير أرعن، أو عرن، وهذا حكة تصيب

الخيل والإبل في قوائمها.

عزير، تصغير عزر، بعد تعريبه، ولا ضير في ذلك، وإن كان أصله أعجميا، فما عرب يعامل معاملة العربي، ويدعى له اشتقاق وإن لم يكن.

عشيرة، تصغير عشر، وهو ضرب من الشجر.

عصية، تصغير عصا.

عكيف، تصغير عكف.

علية، تصغير علا، سمي بعلية ابن عمرو بن زيد بن واهب الشاعر، وأخت هرون الرشيد، التي يقول بلسانها أبو حفص الشطرنجي :

لو كان يمنع حس الفعل صاحبه
من أن يكون له ذنب إلى أحد
كانت عليه أبرأ الناس كلهم
من أن تكافأ بسوء آخر الأبد
ما أعجب الشيء ترجوه فتمنعه
قد كنت أحسب أني قد ملأت يدي

أتى بهذه الأبيات عبد القاهر الجرجاني في دلائله، مستشهدا ببلاغة الجملة الأخيرة على بساطتها وشدة تأثيرها(2).

عميس، تصغير أعمس، والعمس التغافي عن الشيء والتعامس عنه، وكذا عميش، تصغير أعمش، بالشين المعجمة.

عليم، تصغير أعلم، تصغير ترخيم، وهو المشقوق الشفة العليا.

عميلة، تصغير عملة، وهي الناقة الصبورة على السير والعمل (ولعل منها عاملة ناصبة).

عنين، تصغير عن، وهو من عن يعن إذا اعترض.

عنيزة، تصغير عنزة.

عويص، تصغير عاص، أو عيص، أو أعوص، فيكون لهذا تصغير ترخيم.

عييد، تصغير عيد، وهو من الشاذ، كما في الخلاصة :

«وشد في عيد عييد وحتم
للجمع من دا ما لتصغير علم

2) الصفحة 52 ـ 53 من النسخة التي حققناها.

غبير، تصغير أغبر، تصغير ترخيم للقاعدة «واردد لأصل ثانيا لينا قلب وكذلك «اسيد» بالتشديد، حقه أسيود.

غذير، تصغير غذر

غزير، تصغير غزر.

غريفة، تصغير غرفة، غطيف، تصغير أغطف، والغطف قلة هدب العين.

غنيش، تصغير غنش، وأبو غنيش الشاعر من لوى بن عامر بن عليم، كما في الأمير.

فضيل، تصغير فضل.

فطيم، تصغير فطم.

فقيم، تصغير أفقم، تصغير ترخيم، من فقم الأمر، وعظم ولم يجر على استواء، ومنه التفاقم في الأمور.

قتيبة، تصغير أقتب.. قتيرة، تصغير قترة، والقترة الغبرة، قتلة، تصغير أقتل.

قديد، تصغير قد.

قدير، تصغير قدر.

قديم، تصغير قدم.

قدى، تصغير قدى وهي للرمح أو القور قدرها، وللقدر طيب رائحتها.

قريظ، تصغير قرظ، يصبغ به الأديم وقريظة، تصغير قرظة، والقرظة بالفتحتين، ورق السلم، يدبغ به.

قرير، تصغير قر، وهو الهودج، أو من الطراز بالمكان.

قريش، تصغير قرش، وهو الجمع، وفي كتاب فجر الإسلام أن قريشا سميت بذلك لتقرشها بالقرش، أي تعاملها به.

قريع، تصغير أقرع مرخما.

قرين، تصغير قرن.

قشير، تصغير أقشر، وهو الشديد الحمرة، كأن بشرته مقشرة.

قصي، تصغير قاص، مرخما وسمي به لأنه قصا عن قومه، فكان مع بني عذرة مع أخيه لأمه، والعدوة القصوى البعيدة، والمغرب الأقصى نسمي بذلك.

قطيبة، تصغير قطبة، وهو النصل الصغير الذي يرمى به في الأهداف.

قطيطة، تغير قط، الحظ.

قطيعة، تصغير قطعة.

قطية، تصغير قطاة.

قعيس، تصغير أقعس، مرخما، وهو الثابت المنيع، وليل أقعس طويل كأنه لا يبرح.

قعين، تصغير أقعن، وهو من قعن أنفه، أي كان فيه قصر فاحش، أو ارتفعت أرنبته، كالأقنع الآتي ذكره.

قليب، تصغير قلب.

قمير، تصغير قمر.

قنيع، تصغير أقنع، مرخما، والأقنع مرتفع أرنبة الأنف، ولعل فيه أو فيما سبقه قلب مكاني عن الآخر.

قويمة، تصغير قيمة، على القاعدة المشار إليها في بيت الخلاصة.

واردد لأصل ثانيا لينا قلب
فقيمة صير قويمة تصب

كثير، تصغير كثير.

كريب، تصغير كرب.

كريز، تصغير كرز، وهو الخرج الصغير.

كعيب، تصغير كعب.

كليب، تصغير كلب.

كميت، تصغير أكمت مرخما وأكمت الفرس وأكمت بالتشديد واكمات بألف قبل التاء صار كميت، فلونه بين الأسود والأحمر وبهذا سميت الخمر لذلك.

كميل، تصغير كمل، من الكمال، وبه سمي كميل بن زياد صاحب علي وقتيل الحجاج بعد، والكمل بفتحتين، هو الكامل التام وبه وصف المال الكامل.

كهيل، تصغير كهل.

كهيم، تصغير كهم، وهو الرجل العيي والسيف الكل، وكل ما فيه كهامة وكهومة.

لؤى، تغير لأى.

لجيم، تصغير لجم، وهو دويبة تحتفر في الأرض.

لحي، تصغير لحى، من لحوت العود قشرته، وفلانا شتمته، وكذا لحيته بالياء.

لكيز، تصغير لكز، من اللكز باليد أي الضرب بها.

لهيم، تصغير لهم، وهو البلع كالالتهام.

مزينة، تصغير مزنة.

مزيقيا، لعله من الممازقة أي المسابقة في العدو.

مسيلمة، تصغير مسلمة، وهو اسم للمتنبي المرتد المعروف، أنث تحقيرا وصغر زيادة في التحقير.

معية، تصغير معي.

مليح، تصغير ملح.

مليص، تصغير ملص، من الانملاص كالتملص، الهروب والانفلات.

مليكة، تصغير ملكة.

مليل، تصغير ملل من الملال.

مليلة، تصغير ملة، وهي الجمر والرماد.

مهيمن، من الهيمنة، التي لا يتبين اشتقاقها فإن كانت من هيمنة الطائر على فراخه، فالياء أصلية فيكون الوزن مفعلل.

مويلك، وهو أبو الإمليك الذي كان يأخذ كل سفينة غصبا، ولا يهمنا أصله بقدر ما يهمنا تعريبه، فإن كان تصغيرا لإمليك، مرخما، فحقه أن يكون مويليك، كدريهيم، تصغير درهام، لغة فيه، كما في القاموس المحيط.

نبيشة، تصغير نبشة، وكل ما نبش عنه في التراب وكشف فقد نبشته، فهو نبشه اسما بالمرة.

نبيط، تصغير نبط. نتيلة، تصغير نتلة.

نضيرة، تصغير نضرة. نعيم، تصغير نعم، ونعيمان، تصغير نعمان.

نغير، تصغير نغر.

نفيع، تصغير نفع، وهو من شهداء الصحابة، رضوان الله عليهم.

نفيل، تصغير نفل، جمعه الأنفال الوارد في القرآن.

نمير، تصغير نمر.

نويرة، تصغير نورة، والد مالك بن نويرة، المرتد الذي قتله خالد، ورثاه أخوه متمم، بمراثيه العديدة أشار إليها ابن الونان في قوله :

وكن متمما بكا متمم
على الذنوب وارج عفو متق

هبيرة، تصغير هبرة، والهبر من اللحم قطعــه قطعــا كباراً.

هجيم، تصغير هجم، من هجم البيت هدمه.

هذيل، تصغير هذل، وهو الاضطراب.

هذيم، تصغير هذم، وهو القطع.

هريرة، تصغير هرة.

هريم، تصغير هَرَم.

هليب، تصغير هلب. وهـو شعر ذنب الفرس، والفرس ملهوب، أي منتوف شعر ذنبه، ومنه المهلب بن أبي صفرة.

هميم، تصغير هم.

هنيدة، تصغير هند، وهنيدة، مائة من الإبل، لا تدخل عليهــا أداة التعريف، لأنهــا علم جنس، يقـول جرير في مدحه ليزيد بن عبد الملك :

أعطـوا هنيـــدة يحـــدوهـــا ثمـــانيـــة
مــــــا في عطــــــــائهم من ولا سرف

ويشير إلى هذا الجراوي بقوله :

وأين من حبــــــــه الآلاف من ذهب
هنيـــــدة من ســــواه أو هنيــــدات

هنين، تصغير هن في قولهم : ياهناة.

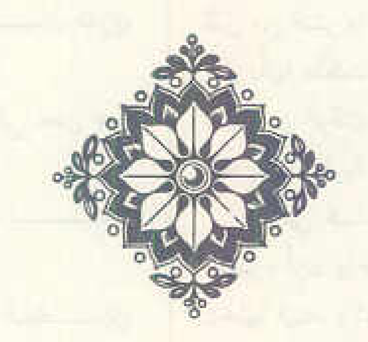
وهيب، تصغير وهب.

يدية تصغير يد، لأن أصلها يدى.

يقيظة، تصغير يقظة.

وبعد فإن هنـاك أمثلة للتصغير، لا تخضع لقاعدتـه، المعروفة في كتب التصريف، مثل تصغير عشية، بعشيشتيه، وتصغير المغرب مغيربــان، كمــا ذكروا، وأرى أنــه تصغير مغربين (رب المشرقين ورب المغربين) والمقصـود من التثنيــة التعظيم، كمــا هـو من الجمع في (فـلا أقسم برب المشارق والمغارب) فإن لم يقصد التعظيم، فإنه لا تثنية ولا جمع، كما في (ولله المشرق والمغرب) وممـا ذكروه أيضـا، عشيـان، تصغير عشيـة، كمـا فعلـوا في مغرب، ولا شـك أن هذا استعمال إسلامي، لإحلال إحدى الكلمتين محل أختهـا، مدلولا بهما صلاة المغرب والعشاء، حيث يطلق عليهما معا، المغربان، والعشاءان، كما في خليل «وللفجر في العشاءين» وذكروا من الشاذ، تصغير إنسان، أنيسيان، وفي تصغير ليلة «لييلــة»، وفي تصغير رجـل «رويجـل»، وفي تصغير صبيــة «أصيبيــة» وفي تصغير غلمــة «أغيلمــة» وفي تصغير بنـون «أبينون».

محمد بن تاويت



كتاب "نفح الطيب"

2

من أفضل الكتب التي حققت الصلة الثقافية بين المشرق والمغرب

للأستاذ
أبو محمد

الفصل الثاني :
المبحث الثاني :

دواعي تأليف النفح

تحركت همة المقري في منتصف شهر شعبان من سنة 1037 هـ للذهاب إلى دمشق، فأعجب بها منذ أن حط بها رحاله، لكن المغاربة أنزلوه عند وصوله إليها مكانا لا يليق به، فأرسل إليه أحد أدبائها وشعرائها وهو أحمد ابن شاهين مفتاح المدرسة الجقمقية ومع المفتاح هذه الأبيات :

كنف المقري شيخي مقري
وإليه من الزمان مفري
كنف مثل صدره في اتساع
وعلوم كالبحر في ضمن بحر
أي بدر قد أطلع الغرب منه
ملأ الشرق نوره أي بدر
أحمد سيدي وشيخي وذخري
وسمي وذاك أشرف فخري
لو بغير الأقدام يسعى مشوق
جئته هائما على وجه شكري

فقال شهاب الدين في جوابه إليه :

أي نظم في حسنه حار فكري
وتحلى بدره صدر ذكري
طائر الصيت لابن شاهين ينمي
من بروض الندى له خير وكر
أحمد الممتطين ذروة مجد
لعوان من المعالي وبكر
حل مفتاح فضله باب وصل
من معاني تعريفه دون نكر
يابديع الزمان دم في ازدياد
بالعلى وازدياد تجنيس شكر

إن الحقيقة التي لا يمكن إغفالها حين الحديث عن دمشق هي أن المقري أفرد لها أشعارا كثيرة في كتابه كما نقل من النثر ما لا يدع طريقا للشك بأنه أعجب بها، إن لم أقل بأنها ملكت عليه كل عقله، وأخذت منه كل ما يمكن أخذه من الوقت، نظرا للحديث الموسع الذي خص بها تلك المدينة الضاربة الجذور في أعماق التاريخ والزمن.

وفي هذا المبحث المتعلق بالمقري ودخوله إلى دمشق، أرى واجبا علي أن أترصد خطاه، بدءا باليوم الذي دخلها فيه، وكيف قضى تلك الأيام القليلة، لكنها مليئة بالحركة، وزاخرة بالنشاط واظهار القدرة الأدبية والعلمية، إلى يوم خروجه منها، وقد كان شوقه لرؤيتها والالتقاء بأهلها من أكبر مشاغله، إلى أن لقي بمكة أحد علمائها : الشيخ عبد الرحمن بن شيخ الإسلام عماد الدين، فحدثه عن دمشق وقاطنيها، فرأى فيه عنوانا يدل على نباهتهم، وتوقد

أذهانهم، فلما حل بها قابلوه بالاحتفاء والاهتمام، فغمرته مكارمهم، وتوالت عليه ألوان شتى من نعمهم، حتى عجز في النهاية عن جزائهم ورد الجميل إليهم :

وما زال بي إحسانهم وجميلهم

وبرهم حتى حسبتهم أهلي

وخلال حديثه عن دمشق نجده ينقل إلينا صورا رائعة عن جمالها وبهائها، ونضارة بساتينها وحدائقها، وكأنها عروس محتشمة في أزيائها المشرقية الجميلة، ولقد وصفها بأنها المدينة التي (ظهر فضلها وبأن دمشق الشام، ذات الحسن والبهاء والحياء والاحتشام، والأرواح المتنوعة، والأرواح المتضوعة حيث المشاهد المكرمة، والمعاهد المحترمة، والغوطة الغناء والحديقة، والمكارم التي يباري فيها المرء شانئه وصديقه، والأظلال الوريفة، والأفنان الوريقة، والزهر الذي تخاله مبسما والندى ريقه، والقضبان الملد، التي تشوق رائيها لجنة الخلد :

بحيث الروض وضاح الثنايا

أنيق الحسن مصقول الأديم

ويزيد في الوصف قائلا : وهي المدينة المستولية على الطباع، المعمورة البقاع، بالفضل والرباع.

تزيد على مر الزمان طلاوة

دمشق التي راقت بحلو المشارب

لها في أقاليم البلاد مشارق

منزهة أقمارها عن مغارب (1)

ويمكن أن أقول : إن المقري وجد في أهل دمشق سلوته، وتحقيق شيء من ذاته وشخصيته، رغم أنه لم يقض بها شهورا ولا أعواما، كما هو الشأن بالنسبة لفاس أو القاهرة :

نزلنا بها ننوي المقام ثلاثة

فطابت لنا حتى أقمنا بها شهرا

وشاهد من محاسنها ما لا يقوى على التعبير عنه حتى ولو أطال في الكلام، كل ذلك لجمالها ومنظرها البديع، وزهرها اليانع وطيبها الفائح :

وإذا وصفت محاسن الدنيا فلا

تبدأ بغير دمشق فيها أولا

1) نفح الطيب م 1 ص 58.

بلد إذا أرسلت طرفك نحوه

لم تلف إلا جنة أو جدولا

ذا وصف بعض صفاته وهي التي

تعيي البليغ وان أجاد وطولا (2)

ونقل عن لسان الدين قوله :

بلد تحف به الرياض كأنه

وجه جميل والرياض عذاره

وكأنما واديه معصم غادة

ومن الجسور المحكمات سواره (3)

فكأنه كما قال يعني بكلامه دمشق.

ونقل أيضا كلاما في وصفها، وسرد محاسنها للرحالة الأندلسي ابن جبير وهو كلام طويل لا يتسع له المقام بالرغم من أهميته، والعجيب أنه لم يقنع بما نقله عن هذا الرحالة الأندلسي فزاد قائلا: «كل ما ذكره رحمه الله - يقصد ابن جبير - في وصف دمشق الشام وأهلها فهو في نفس الأمر يسير وهذا الذي يروم محاسنها التي إذا رجع البصر فيها انقلب حسيرا، وقد أطنب الناس فيها، وما بقي أكثر مما ذكروه، وقد دخلتها أواخر شعبان من سنة سبع وثلاثين وألف للهجرة، وأقمت بها إلى أوائل شوال من السنة، وارتحلت عنها إلى مصر وقد تركت القلب فيها رهنا، وملك هواها مني فكرا وذهنا، فكأنها بلدي التي بها ربيت، وقراري الذي لي به أهل وبيت، لأن أهلها عاملوني بما ليس لي بشكره يدان، وها أنا إلى هذا التاريخ لا أرتاح لغيرها من البلدان، ولا يشوقني ذكر أرض بابل ولا بغداد، فالله سبحانه وتعالى يعطر منها، بالعافية الاردان (4)».

هذا اعتراف من المقري، والاعتراف بالحق فريضة وفضيلة، فقد كلف بدمشق وأهلها، والسر في ذلك بين واضح لأنهم عاملوه معاملة ليس له بشكرها يدان، ولم يرتح لغيرها، ولم يستهوه سواها والدمشقيون هم (الذين نوهوا بقدري الخامل، وظنوا مع نقصي أن بحر معرفتي وافر كامل، حسبما اقتضاه طبعهم العالي) : فلو شريت بعمري

2) نفس المصدر السابق م 1 ص 61.
3) نفس المصدر السابق م 1 ص 62.
4) نفح الطيب م 2 ص 388 - 389.

ساعة ذهبت من عيشتي معهم ما كان بالغالي (5) والواقع أن الله قيض للمقري رجلا أديبا شاعرا هو أحمد بن شاهين القبرسي الأصل، الدمشقي المولد، الذي يقول عنه المحبي : (ولما قدم حافظ المغرب أحمد المقري إلى دمشق أنزله في المدرسة الجقمقية، واعتنى به اعتناء زائدا وصدر بينهما محاورات جميلة، ومراسلات جليلة...) (6) وكان أهل الشاهيني من جزيرة قبرس، إذ قدم منها أبوه (وولد أحمد في دمشق، فانتظم في سلك الجند وأسر في معركة وأطلق، فانصرف إلى الأدب، وناب في القضاء بدمشق وتولى قضاء الركب الشامي سنة 1030 هـ ومدحه شعراء عصره... وإلى كتاب له في اللغة يشير البديعي بقوله :

«ومن وقف في اللغة على كتاب الفاخر علم منه كم ترك الأول للآخر» (7).

وزيادة على ما ينعم به الشاهيني من جاه بين أعيان دمشق، وإلى اشتغاله بالأدب واللغة، كان موصوفا بالكرم والمروءة.

وإذا قلنا إن الله هيأه للمقري صديقا وفيا، فمعنى ذلك أنه لعب في حياته الخاصة دورا هاما. لا تخفى أهميته : فهو الذي وطأ له أسباب الراحة والإقامة المريحة في دمشق، وأعد له كل ما يمكنه من إبراز مواهبه، وإطلاق العنان لقدراته العلمية والفكرية، تلك المواهب التي أخالها كانت حبيسة وهو بأرض القاهرة، فعندما كنت أتصفح بتؤدة كتاب النفح، علني أجد ما يطفئ الظمأ في ما يتعلق بحياته الخاصة والفكرية بالقاهرة، خاب ظني في ذلك، ولست أدري لماذا لم أجد الجواب الكافي والرد الشافي ؟

وكيف تكون له صولات وجولات أدبية وعلمية بدمشق، ولم يمكث بها إلا مدة من الزمن يسيرة، بينما تكاد هذه الأمور تصبح منعدمة وهو بالقاهرة، التي عاش بها أربعة عشر عاما بأيامها ولياليها، ولعل هذه المدينة ضنت عليه بما كان أهلا له من الحفاوة والتكريم، ورفعه إلى ما هو أهل له من عظيم التأهيل، اللهم إلا ما كان من الأشعار التي نقلها لبعض الشعراء في وصف مصر وذكر محاسنها، وبعض الأشعار التي قيلت في أهل مصر.

ترى هل كان المقري يفضل العزلة والانطواء على نفسه وهو بمصر ؟ وهو الذي خدم العلم بالأزهر الشريف المعمور، ثم ألم تكن له لقاءات ببعض أهل القاهرة من العلماء ؟ أم أن أهلها لم ينوهوا بقدره كما فعل الدمشقيون فتتفتق مواهبه، فبقي طول المدة حتى وجد في هؤلاء ما يتفق ومزاجه وميوله ؟ وقد تكون الأقدار بدورها هي التي مدت يدها لكي توقف شهاب الدين، حتى لا يخط بيمينه ما يمكن أن يبقى أثرا في ذكر أهل القاهرة، وكيف قضى أيامه بتلك الربوع، ثم أنني عندما كنت أراجع ما كتبه صاحب خلاصة الأثر عن المقري وجدت أن لصاحبنا كتابا تحت عنوان «عرف النشق في أخبار دمشق» الذي يظهر أنه غير موجود، أو أنه مشروع كتاب لم يوفق إلى جمعه وتأليف، مما يعضد ما قيل في شغفه بدمشق وأهلها.

وبعد هذه التساؤلات التي تبادرت إلى الذهن، تابع المقري وهو بدمشق، فبعد أن وجد من ينزله المكانة اللائقة، اجتمع حوله العلماء وطلبة العلم، وتوافد عليه الأدباء والشعراء من كل حدب وصوب بأرض الشام، فاستمعوا إليه، وطارحوه الشعر وطارحهم، ودارت بينهم المناقشات الأدبية الدقيقة التي أظهرت علو منزلته، وباعه الطويل، في الأدب ومختلف فنونه، فالتف الجميع حوله للأخذ عنه، والتلقي منه، والاصغاء إلى حسن لفظه وعذب كلامه، ومن تلك الحلقات التي كان يقيمها بالجامع الأموي تبدأ قصة تأليف نفح الطيب.

فقد كان وهو بدمشق يتجاذب أطراف الحديث مع أهلها من الذين يحضرون مجالسه، ينجريهم الكلام إلى بلاد الأندلس، وذكر محاسنها وجمالها، وأهلها ورياضها، وما كان يتعلق بها من القضايا المتباينة، وما يتمتع به أهلها من الذكاء وتوقد الأذهان وسرعة البديهة، وكان الشهاب يأتي من كلام علمائها وبلغائها بما يحير الألباب، خاصة عندما يتعلق الأمر بوزيرها لسان الدين بن الخطيب السلماني، الذي يورد من كلامه الجزل، وإنشائه البليغ، ومن أفانين بلاغته ما يجعل المستمع أمام أديب كبير لا يجاري ولا يشق له غبار في ميدان الكتابة ـ النثر والشعر ـ «إذ هو ـ

5) نفس المصدر م 1 ص 65.
6) خلاصة الأثر م 1 ص 211.
7) الإعلام ص 124 ـ م (1).

أعني لسان الدين - فارس النظم والنثر في ذلك العصر، والمنفرد بالسبق في تلك الميادين بأداة الحصر، وكيف لا ونظمه لم تستول على مثله أيدي الهصر...» (8) ويذكر المؤلف أن الذين يحضرون مجلسه هتفوا باسم لسان الدين ولهجوا بذكره حيث تكرر ذكر اسمه على أسماعهم، فتعلقوا بأفكاره، ورغبوا في الاستماع إلى ما كان له من أمجاد أدبية، معترفين ببراعته وعلو شأنه، وهكذا طلب منه صديقه المولى أحمد الشاهيني، أن يقوم مشكورا بتصنيف مصنف يتصدى للتعريف بابن الخطيب»، وبأحواله وبدائعه وصنائعه ووقائعه مع ملوك عصره وعلمائه وأدبائه... وبعض ماله من النثار والنظام، والمؤلفات الكبار العظام الرائقة للأبصار، الفائقة على كلام كثير من أهل الأمصار» (9).

ولقد اعتذر المقري عن تلبية الطلب، مبينا أن الغرض ليس سهلا، فيقول : «ولست علم الله بأهل من جهات عديدة، أولها قصوري عن تحمل تلك الاعباء الشديدة، إذ لا يوفى بهذا الغرض إلا الماهر بطرق المعارف السديدة، وثانيها عدم تيسر الكتب المستعان بها على هذا المرام، لأني خلفتها بالمغرب ... وثالثها شغل الخاطر بأشجان الغربة، الجالبة للفكر غالب الكربة»، وهكذا نجده يوضح للشاهيني : أن العوائق كثيرة، ومنها ما يتعلق بحالته الشخصية، وبقلةالمادة التي يجب الاستعانة بها في مثل الغرض الذي اختير له.

وعندما نقرأ نفح الطيب، ونشخص الحالة النفسية التي يعيشها صاحبه سنعلم إلى أي حد تكالبت عليه الأحزان والأشجان، التي لا يقدر على الانفكاك منها، وكيف أنه لا يستطيع القيام بعمل في حجم تأليف النفح.

لكن العزائم تقهر الخمول، والهمم العالية توقظ جذوة النشاط والحماس، وإذا كان الشهاب (10) قد خاطب صديقه بقوله :

تركت رسوم عزي في بلادي
وصرت بمصر منسي الرسوم
ورضت النفس بالتجديد زهدا
وقلت لها على العلياء صومي
مخافة أن أرى بالحرص ممن
يكون زمانه أحد الخصوم

فإن الشاهيني أصر على رأيه ولم يقبل أعذاره، ولم يجعل له فسحة ولا مندوحة، فتكرر منه الإلحاح مما قوى عزم المقري، وقبل تلبية الطلب، والشروع في تنفيذ المطلب فور عودته إلى القاهرة، وبعد استقراره بمصر شرع في تصنيف النفح، فكتب منه نبذة مستحسنة، ثم أن مركب العزم وقف به عن إكمال ما هو بصدده فأخر عمله لأن أغراضا صدته عن ذلك، لكنه ما لبث أن توصل برسالة مطولة من الأديب ابن شاهين يحثه فيها عن الإيفاء بالعهد، مما شجعه على مواصلة السير في عمله واتمامه، وكان قبل أن تصله تلك الرسالة كاسف الحال، متقلب الأحوال ممزق الأفكار...

فأفادني جذلا وبالي كاسد
وأجار نفسي من جوى برحائها
وحسبت أيام الشباب رجعن لي
فلبست حلى جمالها وبهائها (11)

ولقد شد ذلك الخطاب من عزمه، وانقشعت سحب الكسل والخمول عنه، وانبعث نشاطه ونشطت همته لاتمام ما بدأه، وبعد أن قطع شوطا في التعريف بلسان الدين بن الخطيب وأخباره، حدث له عزم على ذكر الأندلس، وبعض مفاخرها ومآثرها، وقد كان اهتمام المقري بموضوع الأندلس قديما عريقا وهو بالمغرب، وأنه جمع في هذا الباب كلاما كثيرا لكنه ترك الجميع بالمغرب، إلا نزرا يسيرا علق بحفظه، وبعض أوراق سعد في الجواب عن السؤال بها حظه (ولو حضرني الآن ما خلفته، مما جمعت في ذلك الغرض والفته، لقرت به عيون وسرت ألباب، إذ هو والله الغاية في هذا الباب، ولكن المرء ابن وقته وساعته، وكل ينفق على قدر وسعه واستطاعته) (12) فسار المقري في عمله الخالد أشواطا بعيدة مما كان مرسوما، متحدثا عن

---

(8)
9) نفح الطيب 1 ـ 70.
10) نفح الطيب م 1 ص 74.
11) نفس المصدر م 1 ص 101.
12) نفسه م 1 ص 108.

المغرب والمشرق والأنـدلس، فـوصف جـزيرة الأنـدلس وطبيعتها الجغرافيـة وبلـدانهـاومفـاخرهـا، وكيف دخـل المسلمون إليها فنشروا بها الدين الإسلامي.

الـذي بقي يجـاري الـزمن حتى أفل نجم المسلمين واندثرت دولتهم، كما تعرض لجماعة من الأندلسيين هاجروا إلى المشرق، وآخرين قـدمـوا من المشرق إلى الأنـدلس، وعرف بهم، وأشـار إلى عنـاوين معـارفهم وعلـومهم، ثم أنـه تحدث عن حياته وهو بالمغرب وتلمسـان ودمشق، واستطرد في الحديث عن لسان الدين بن الخطيب، الذي كـان سببـا في حمله على تأليف كتـاب النفح، وبذلـك أدى مـا كـان عليه من دين نحو صديقه الشاهيني، لما كان لهذا الصديق الوفي من مكـانـة في نفسـه، ومن ذاك النـزر اليسير ـ كمـا يقـول المقري ـ اتحف المكتبـة العربيـة وقراءهـا بهـذه الموسوعة القيمـة النـاذرة، التي لا يجود الزمـان بمثلهـا، إذ تحمل القارئ على شق أسوار التاريخ، منذ الفتح الإسلامي حتى عصر المؤلف، فيغوص في أعمـاقه، ويـدرك أسراره ومكنوناته بأرض أنعم الله عليها بنعمـة الإسلام، ثم تلاشت مظاهره، وبقيت الآثار تـدل على أهلها، ومـا كـان لهم من مجد خالد وبطولات في شتى مجالات الحياة.

وقـد ذكر أنـه شرع في تـأليف النفح بعـد عـودتـه من دمشق الشام، (دخلت مصر برجب من عام ثمـانيـة وعشرين وألف، والشام بشعبان عـام سبعـة وثلاثين وألف، وأبت منهـا إلى مصر أواخر شـوال من العـام، وشرعت في هـذا المـؤلف بالقعدة من العام) (13).

(وكان الفراغ منه عشيـة يوم الأحـد المسفر صبـاحهـا عن السـابع والعشرين لرمضـان سنـة ثمـان وثـلاثين وألف بالقاهرة المحروسة، والحمد لله وكفى) (14).

الفصل الثاني :

البحث الثالث :

مضمون الكتاب ومنهجه

أول طبعـة لنفح الطيب هي طبعـة بـولاق في أربعـة أجزاء كبيرة، 1279 هـ 1862 ميلادية، كما أن آخر طبعاتـه المشرقية هي تلك التي أشرف عليهـا وحققهـا الشيخ محمـد محيي الـدين عبـد الحميـد ـ القـاهرة سنـة 1949م وهـذه الطبعة في عشرة أجزاء، طبعة المكتبة التجاريـة أو مطبعـة السعـادة، وذلـك قبـل ظهـور الكتـاب في حلتـه الجـديـدة، ونظرا للأهمية التي يحظى بها نفح الطيب، فقد تولاه عـدد كبير من المستشرقين أيضـا بـالتحقيـق والتمحيص العلميين، حتى أن خير طبعة ظهرت منه خلال طبعاته الأولى كـانت على يد هؤلاء، أمثال دوزي المهتم بـالـدراسـات الأنـدلسيـة، ودوجا وكريل ورايت (ليدن : 1855م) حيث اعتمـد هؤلاء المستشرقـون على النسـخ الخطيـة التي تـوفرت لـديهم في المكتبـات المتفرقـة سواء في بـاريس أو لنـدن أو اكـفورد وغوطة وبرلين وكوبنهاجن، وبطرسبرج، فنشر الكتـاب في قسمين، وكل قسم يشتمـل على جـزئين، وألحقـوا بهذا العلم جـزءا صغيرا يضم الفهـارس والتصـويبـات، فـاعتبرت تلـك الطبعة لما فيهـا من الـدقـة العلميـة التي توخوهـا في عملهم أصلا يعتمد عليه.

ويقع الكتـاب اليوم في طبعتـه الأخيرة في مجلـدات ثمانية، محققة ومفهرسة وهي التي اعتمدت في هذا البحث، وهي بتحقيق الـدكتـور احسـان عبـاس ـ مطبعـة دار صـادر بيروت 1968م ـ وهي طبعة اعتمد فيها المحقق على كل ما استطـاع الحصول عليـه من كتب مطبوعـة ومخطـوطـة من شتى المكتبـات العامة منها والخـاصـة، وهـذه المخطـوطـات التي اعتمد عليها لم يطلع عليهـا المحققـون الأوربيون، كمـا أثبت في الكلمة التي قدم بهـا لطريقتـه في التحقيق، أسماء النسـخ التي حصـل عليهـا من المكتبـات المختلفـة، ودون أرقامها بها، ومدى استفادته من كل نسخة.

وتشتمـل المجلـدات الـسبعـة الأولى على المـوضـوعـات التي تعلق بهـا الغرض من تـأليف الكتـاب، بينمـا خصص المجلد الثامن للفهارس العامـة التي بهـا بيـان بمخطوطـات المقري في المكتبات المختلفة، ثم فهرست الاعلام والأماكن والقـوافي والرجـز، والمـوشحـات والازجـال والمسمطـات، والـرسـائـل والخطب والتـوقيعـات والكتب التي ذكرت في المتن، والمصـادر التي اعتمـدهـا المـؤلف في المقـدمـة والتحقيق وكذا أسماء المراجع التي استعان بها.

13) نفح الطيب 7 ـ 136.

14) نفس المصدر والجزء 519.

والمطلع على النفح في صورته وطبعته الأخيرة، سيلاحظ مدى الدقة والتحري المتبع في هذا التحقيق من طرف الدكتور احسان عباس، إذ يحس القارئ بسهولة الرجوع إلى الإحالات والإشارات الموجودة بالهوامش ويكفيه أيضا أن يعود إلى الفهارس العامة بالمجلد الثامن، ليكفيه ذلك عناء البحث بطريقة عشوائية في الكتاب وبعد هذا الكلام الموجز عن طبعات النفح المختلفة سنتتبع منهاج المؤلف في الكتاب، والخطوات الكبرى التي اتبعها وأقسام الكتاب وبحوثه المختلفة.

يتكون الكتاب من قسمين، وكل قسم مستقل بذاته، وقبل إعطاء لمحة موجزة عن كل قسم، أود أن أتطرق إلى المقدمة الضافية افتتح بها المؤلف كتابه والتي سماها : خطبة الكتاب ولعل القارئ وهو يقرأ هذه المقدمة، يحس إحساسا عميقا بمدى تأثر شهاب الدين، وهو يفارق أهله ووطنه، إذا اشتاق إليهما اشتياقا، واعتراه الألم الذي لم يفارقه الا لماما، فليس ثياب النحول والاصفرار، وهزمت نفسه ونفذ صبره، وكلما أراد الفرار من نفسه، عز عليه ذلك، فشدته لواعج الفراق إلى معقد تمائمه حيث الأهل والأحباب والأصدقاء، وتطلع إلى لقاء يجود به الزمان للالتقاء بمن فارقهم وهو بفاس، تلك المدينة التي فتحت له صدرها، لولا مكائد الحساد، واضطراب الأحوال، وتفشي الفوضى والفتن التي أتت على الأخضر واليابس، دون تمييز.

ومن أجل التقليل من هول مصابه، وعميق أتراحه، أورد قصيدة طويلة في أكثر من مائة بيت، كلها ذكرى واعتبار، وتذكير بتفاوت الناس في الحظوظ، وأن الدنيا دار فناء يجب الا نغتر بزينتها وصورها الفتانة فكم من ملك علا نجمه ثم هوى، وكم من وزير دانت له الدنيا ثم خانته، وكم من دولة سادت هذا العالم ثم أخذت في النقصان حتى تخلخل كيانها، وهكذا فكل شيء إلى زوال.

ولعل هذه القصيدة تعبر عن قلب المقري المثقل بالهموم، ففجرها في هذا النظم الذي يصور جانبا من حياته وهو غريب في ديار المشرق العربي، ومن هذه القصيدة قوله : (15).

أين الــــــــــوزير ابن الخطيــ
ــب بهـــا فمـــا أحلى كـــلامـــه
فلكم أبــــــــان العـــــــــدل في
أرجـــائهـــا وبهـــا أقـــامـــه
ولكم أجــــــــار عـــــــــداوكم
أجرى نـــدى وإلى أشجـــانـــه
راعت صروف الـــــــــــدهر دو
لتـــه ومـــا راعت ذمـــامـــه
حتى ثـــــوى أثر التـــــوى
في حفرة نثرت نظـــــــامـــه
من زارهــــــا في أرض فـــــا
س أذهبت شجـــوا منـــامـــه
إذا نبهتــــــــــه لكـــــــل شمـ
ل شتت المـــوت التئـــامـــه
هـــذا لســـان الـــدين أســـ
كتـــه وأسكتـــه رجـــامـــه
ومحـــا عبـــارتـــه فمن
حيـــاه لم يردد ســـلامـــه
فكـــأنـــه مـــا أمسك الـ
قلم المطـــاع ولا حســـامـــه

وتضم خطبة الكتاب حنينه إلى أرض الوطن ذلك الحنين الذي ظل معه إلى آخر رمق من حياته، تشده إليه الذكرى كلما ذكره، مثله في ذلك مثل (مثله الأعلى) لسان الدين ابن الخطيب الذي يقول : «فلست ببدع ممن فتن بحب الوطن، ولا بأول من شاقه منزله فألقى بالعطن، فحب الوطن معجون في طين ساكنه، وطرفه مغرى بالتماح محاسنه وقد نبه ابن الرومي على السبب وجاء في التماس التعليل بالعجب، حيث يقول :

وحبب أوطــــــان الرجـــــال إليهم
مـــآرب قضـــاهـــا الشبـــاب هنـــا لـــك
إذا ذكروا أوطـــــــــــانهم ذكرتهم
عـهـود الصبـا فيهـا فحنـوا لـذالكـــا (16)

وكان شوق المؤلف يزداد كلما خطرت آثارهم على

---

15) نفح الطيب م ص 11.
16) ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب لذى الوزارتين لسان الدين ابن الخطيب الجزء الأول ص 85 تحقيق محمد عبد الله عنان ـ المطبعة العربية الحديثة ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى 1980م 1400 هـ.

باله، فيذوب شوقا وحزنا، ويسكب دموعه لعل الدهر يجففها (17) :

أرى آثارهم فأذوب شوقا
وأسكب من تذكرهم دموعي
وأسأل من قضى بفراق حبي
يمن علي منهم بالرجوع

وحين يذكرنا بركوبه البحر نجده يسهب في ذلك إسهابا، حيث تحدث عن أهوال البحر ومخاطره وما أصاب ركاب السفينة من ذعر، ولعل هذه الرحلة البحرية كانت أول عهد له بالبحر، ولما بلغوا مصر سلبته محاسنها، وشاهد كثيرا من آثارها، ونقل في وصفها وذكر وادي النيل أشعارا كثيرة، وبعد إقامة قصيرة شمر عن ساعد الجد فقصد مكة والمدينة، ثم زار بيت المقدس، ومنه إلى مصر، فبيت المقدس مرة أخرى إلى أن شد الرحال إلى دمشق التي عاش بها أياما كانت من أحلى أيام عمره، إذ آوته ورفعت مكانته، بفضل الأديب الشاعر اللغوي صاحب كتاب الفاخر في اللغة ابن شاهين القبرسي الذي اقترح عليه تأليف مصنف يجمع أخبار لسان الدين بن الخطيب، ثم ما دار بينهما من مراسلات في سبيل تحقيق ذلك الغرض ورغم اعتذار الشهاب عن تلبية الطلب، لعدم وجود المراجع المعول عليها، إذ ترك كتبه بالمغرب، فقد أصر صاحبه على رأيه وراجعه في ذلك، مما حمله على إجابته وتلبية مطلبه وهو الصديق الذي لا ينسى فضله، ولما قفل عائدا إلى القاهرة شرع في العمل، لكن عزيمته خبت بعد أن قطع في ذلك شوطا بعيدا ثم استنجزه الشاهيني وعده، فاستنهض همته وعاود النظر فيما كتب عن لسان الدين ابن الخطيب، فعن له بعد أن يتحدث عن الأندلس بصفة عامة، لأن عمله سيكون مبتورا إذا لم يذكر من التاريخ السياسي والأدبي الأندلسيين حلقات قديمة ماضية، لكي تتضح صورة ابن الخطيب أكثر.

إذا فالقسم الأول من النفح يتعلق بالأندلس، ويشتمل على ثمانية أبواب، أما القسم الثاني فخاص بلسان الدين، وهو يشمل أيضا ثمانية أبواب.

---

17) نفح الطيب م 1 ص 11.

يتحدث الباب الأول من القسم الأول عن الأندلس وما يتعلق بها من أخبار، وبه وصف شامل لها من حيث أرضها وجغرافيتها العامة، واقتصادها ومدنها وأقاليمها، وحيواناتها وطيورها، وثمارها وفواكهها ومعادنها وأحجارها، ومصنوعاتها وآثارها، والأمم المجاورة لها، والتي كانت قد استوطنتها في الماضي ونقل المؤلف أشعارا ونثرا كثيرا قاله المؤرخون في حق الأندلس، كما تحدث عن أهلها وأزيائهم ومروءتهم وأحوالهم التشريعية والتصوفية.

أما الباب الثاني فقد خصصه لدخول الإسلام إلى الأندلس، وكيف فتحت من قبل العرب، وبه أخبار ذلك الفتح المبين، وثبوت قدم الوافدين إليها بأرضها، ومختلف الأسر الحاكمة، التي توالت على حكم تلك البلاد، حتى عهد تمزقها وظهور ملوك الطوائف، فتدهورت أحوالها وانتقصت.

وتتبع المقري في الباب الثالث أولية الدولة الأموية بالأندلس، بدءا بعبد الرحمن الداخل، فذكر ملوكها وأمراءها، وغزواتهم في سبيل القبض على زمام الأمر، واستتباب الأمن بربوعها، مترجما ومتحدثا عن أحوالهم ثم تعرض لأفول نجم تلك الدولة التي أرست قواعد المجد للحضارة الإسلامية بالأندلس، كما أبرز مكانة الحكم المرابطي والموحدي، وما كان له من أدوار قوية خاصة بعد معركة الزلاقة التي قادها يوسف بن تاشفين ملحقا الهزيمة بالفونس السادس وجيوشه سنة 479 هـ فبدت الحركة بالاندلس، وتنفس أهلها الصعداء، بعد أن كانوا في حيرة من أمرهم، خوفا من أن يقضي عليهم عدوهم بالشمال.

أما الباب الرابع فقد خصصه الشهاب لبعض المدن الأندلسية، فجاء بفيض من الكلام حولها، وأغنى هذا الكلام بنقول كثيرة في وصف أنهارها، ومتنزهاتها، وطبيعتها الخلابة كقرطبة والزهراء والزاهرة، ومساجدها وجوامعها وشاراتها، كما ذكر جملة من علمائها وأعلامها.

ومن الأبواب اللائقة للنظر في نفح الطيب تخصيص الباب الخامس للتعريف برجال رحلوا من الأندلس إلى المشرق، بينما ذكر في الباب السادس الوافدين على الأندلس من المشرق.

أما الباب السابع فهو في ذكر العقول الأندلسية، وحب الأندلسيين للمعرفة، وبراعتهم في الأجوبة، وغير ذلك مما يدل على فضلهم، وفي الباب أيضا تقول في فضائل الأندلس من كتب متعددة كفرحة الأنفس لابن غالب والذخيرة لابن بسام، ومن رسائل متنوعة كرسالة ابن حزم في فضل الأندلس وأهلها، والتي سأنقل بعض ما جاء فيها لفائدتها وأهميتها.

يقول ابن حزم : «فكان أهلها من التمكن في علوم القراءة والروايات، وحفظ كثير من الفقه والتبصر بالنحو والشعر واللغة والخبر والطب والحساب والنجوم بمكان رحب الفناء، واسع العطن متنائي الأقطار فسيح المجال» (18).

ورسالته رد على أحد القيراوانيين الذي نعى على أهل الأندلس عدم اهتمامهم بتدوين ما كان لها من مجد وسطوة في العلم والمعرفة، وهو رد أسهب فيه ابن حزم إسهابا، مبينا أن ما ظنه صاحب السؤال من الكتب غير مجموع، قد ألفت فيه عند أهل الأندلس تآليف في غاية الحسن، إن لم نقل إن لهم في بعضها خطر السبق، فذكر منها كتاب الهداية لعيسى بن دينار الذي قال عنه إنه من أرفع الكتب التي جمعت في معناها على مذهب مالك وابن القاسم، وأجمعها للمعاني الفقهية على المذهب المالكي، (والابانة عن حقائق أصول الديانة) وهو كتاب للقاضي أبي الحكم منذر ابن سعيد، وهو في أحكام القرآن غاية، أما (المجتبس على أبواب كتاب ابن الجارود المنتقى) لابن محمد قاسم بن أصبغ بن يوسف بن ناصح، فهو كتاب في الحديث عالي السند كثير الفائدة، وكتاب (التمهيد) لأبي عمر يوسف بن عبد البر (19) و(الاستذكار) وهو اختصار التمهيد.

ثم أنه ذكر عددا من كتب الفقه والحديث والتفسير، ومن المصنفات التي تضم صحيح الحديث وغريبه، وكتب الأدب واللغة والشعر، والفلسفة والأخبار والتواريخ والأنساب، ومشاهير أهل الأندلس ونبغائها ومن حازوا قصب السبق في بعض أنواع المعارف والعلوم والفنون، وكل ذلك يظهر توقد أذهان الأندلسيين وعلو منزلتهم في ميدان الكتابة والتأليف، والخلق والإبداع، في شتى الميادين، مما يؤكد بحق نبوغهم وعبقريتهم، وتفردهم الإبداعي الذي ترك بصماته ظاهرة على مسار الثقافة العربية الإسلامية، وهي آثار لا تذكر إلا ومعها التقدير لما كان عليه الأندلسيون من نباهة وتفوق، وقد شرح ابن حزم في رسالته الطويلة الأسباب التي حملته على ذكر أسماء تلك الكتب والمصنفات دون سواها وهي كثيرة، لأنه لا يعلم أحسن منها، كل في بابها، وهي كما يقول تآليف «إن طلب مثلها بفارس والاهواز وديار مصر وديار ربيعة واليمن والشام أعوز وجود ذلك، على قرب المسافة في هذه البلاد من العراق التي هي دار هجرة الفهم وذويه ومراد المعارف وأربابها» (20).

ثم نقل المقري تذييلا لابن سعيد على رسالة الوزير الحافظ أبي عبد الله محمد ابن حزم الذي تحدث عن مصنفات ومؤلفات الأندلسيين في علوم العربية وآدابها وجاء في ذلك بالممتع المفيد (21) وأتبع هذا التذييل برسالة الشقندي في الدفاع عن الأندلس، وبحكايات وأشعار أندلسية، وكيف انتقل أهلها من مذهب الإمام الأوزاعي إلى مذهب إمام دار الهجرة مالك بن أنس رضي الله عنه، كما أورد أشعارا كثيرة لطائفة من الشعراء، وتحدث عما كان يدور بينهم من حكايات وأشعار، ومالهم من عذوبة في القول، وحسن البديهة، وخفة الروح، وبلاغة في الكلم، ومن هؤلاء ذكر الأمير والوزير والشاعر.

والمقري لم ينس المرأة، ولم يغمطها حقها، فأفرد للحديث عنها كلاما طويلا، قد يضم وحده بحثا خاصا، عن المرأة الأندلسية، وقد تحدث عن دورها وما كان لها من صيت ذائع، وأشعار رقيقة، وفكاهات تعبر عن مكانة المرأة داخل المجتمع، فذكر جملة من الشاعرات وأخبارهن

---

18) نفح الطيب م 3 ـ 163.

19) ولأبي عمر كتب أخرى منها : الكافي في الفقه على مذهب مالك ـ بهجة المجالس وأنس المجالس مما يجري في المذاكرات من غرر الأبيات ونوادر الحكايات ـ وجامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته ـ وكتاب الدرر في اختصار المغازي والسير وغيرها ـ النفح 3 ـ 170 ومن أشهر كتبه «الاستيعاب في معرفة الأصحاب».

20) نفح الطيب م 3 ص 177.

21) نفح الطيب م 3 ص 183.

وأشعارهن، كولادة صاحبة ابن زيدون، وبثينة بنت المعتمد الملك الشاعر، وحفصة بنت حمدون وزوجة المعتمد : اعتماد الرميكية وغاية المنى، ومنهن حمدة ويقال حمدونة بنت زياد المؤدب التي يطلق عليها خنساء المغرب، وشاعرة الأندلس، وعائشة بنت أحمد القرطبية، ومريم بنت أبي يعقوب الأنصاري وغيرهن، موضحا ما لهن من غزارة شعر، وفصاحة في القول، أما أشعار الزهد والزهاد فقد حفل بها المقري وجمع منها الكثير مختتما كلامه بقوله : (وقد رأيت أن أكفر ما تقدم ذكره من الهزل الذي أتينا به على سبيل الاحماض بما لابد منه من الحكم والمواعظ وما يناسبها...) (22).

كقول القاضي أبي العباس أحمد بن الغماز البلنسي نزيل إفريقية :

هو الموت فاحذر أن يجيئك بغتة
وأنت على سوء من الفعل عاكف

وإياك أن تمضي من الدهر ساعة
ولا لحظة إلا وقلبك واجف

وبادر بأعمال تسرك أن ترى
إذا نشرت يوم الحساب الصحائف

ولا تيأسن من رحمة الله أنه
لرب العباد بالعباد لطائف

أما الباب الثامن فيتعلق بتغلب العدو الكافر على الجزيرة واستيلائه عليها، ومحوه لكلمة التوحيد على أرضها مما أدى بأهلها إلى الاستجارة بكل من شموا فيه رائحة العون، ومديد المساعدة إليهم، كما هو الشأن بالنسبة لملك المغرب يوسف بن تاشفين اللمتوني، وفي هذا الباب نقل المقري وصفا لمعركة الزلاقة عن صاحب الروض المعطار (23).

متتبعا في ذلك الارهاصات الأولى لمناوشات الإسبان، ومحاولاتهم المتكررة في القضاء على دولة الإسلام بالأندلس، وكيف تفككت أوصال تلك البلاد، وتفرقت كلمة أهلها، وذكر أن يوسف بن تاشفين المرابطي حاول الاستيلاء على الأندلس لولا أن الأندلسيين كاتبوه يسألونه الأعراض عنهم، وأنهم تحت طاعته متى شاء، إذ كتب عنهم كاتب من أهل الأندلس : «أما بعد، فإنك ان أعرضت عنا نسبت إلى كرم، ولم تنسب إلى عجز وان أجبنا داعيك، نسبنا إلى عقل، ولم تنسب إلى وهن، وقد اخترنا إلى أنفسنا أجمل نسبتينا، فاختر لنفسك أكرم نسبتيك، فإنك بالمحل الذي لا يجب أن تسبق فيه إلى مكرمة، وأن في استبقائك ذوي البيوت ما شئت من دوام لأمرك وثبوت، والسلام (24).

فلما وصله الكتاب سالمهم، بعد أن شرح له كاتبه الخاص حالة الأندلسيين المحاصرين من جهة الشمال، وأنهم لا يقوون على تحمل حصار ثان من الجنوب ومما جاء في رده إليهم قوله : «بسم الله الرحمن الرحيم من يوسف بن تاشفين، سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته، تحية ممن سالمكم وسلم عليكم، وإنكم مما في أيديكم من الملك في أوسع أباحة، مخصوصين منا بأكرم إيثار وسماحة، فاستديموا وفاءنا بوفائكم واستصلحوا اخاءنا بإصلاح اخائكم، والله ولي التوفيق لنا ولكم» (25).

لكن حين طمع النصارى بقيادة الفونس السادس في الاستيلاء على بلاد الأندلس استنجد ملوك الطوائف يتقدمهم المعتمد بن عباد بيوسف بن تاشفين، الذي هب لإنقاذها، وأجبر العدو على التراجع، وفي هذا الحديث عن موقعة الزلاقة استعراض لمراحلها وأولياتها إلى أن تحقق النصر للمسلمين، ثم أن التاريخ جرى مجراه وانتظمت الأندلس في سلك المرابطين ثم الموحدين فالمرينيين، كما نجد بنفس الباب مجموعة متفرقة من الرسائل وأجوبتها من بعض الملوك المرينيين كأبي الحسن وأبي عنان يشرح فيها أصحابها ـ خاصة لسان الدين بن الخطيب ـ حاجة بلادهم إلى العون الخارجي من بلاد العدوة التي عرف عن أهلها عدم التقاعس في تلبية النداء، وإغاثة المستجير، ومن يقرأ هذه الرسائل ويتتبع سطورها وعباراتها يجد أن معظمها يحمل صورا متباينة عن الأحوال المتردية بالأندلس، وضيق

22) نفس المصدر م 4 ص 315.

23) الروض المعطار في ذكر المدن والأقطار لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحميري.

24) نفح الطيب م 4 ص 355.

25) نفس المصدر م 4 ص 355 ـ 356.

حال أهلها، وما لحقهم من شدة وكيف ضاعت المدن الأندلسية واحدة تلو الأخرى، وتساقطت تساقط الأوراق في موسم الخريف بالرغم من المحاولات... المتكررة من أجل إنقاذ ما يمكن إنقاذه، لكن بدون جدوى، فكانت النهاية كما نعلم من أفجع النهايات في التاريخ العربي الإسلامي.

وقد طغت أشعار الرثاء على هذا الباب، أشعار يتفطر لها القلب من كمد، ويذوب من فرط ما لحق ببلاد رفعت راية الإسلام، ثم أغرقتها أمواج الكفر والصليب، فمحت تلك الصورة النضرة إلى الأبد، ومن أشعار الرثاء التي نقلها المقري نونية الأديب الشهير أبي البقاء صالح بن شريف الرندي رحمه الله التي مطلعها :

لكـــل شيء إذا مـــــا تم نقصـــــان

فـــــلا يغر بطيب العيش إنســـــان

وقصائد أخرى لشعراء أندلسيين في أغراض مختلفة كالغزل والزهد وأمثلة من تبحر الأندلسيين في العلم.

أما القسم الثاني من نفح الطيب فهو في التعريف بلسان الدين بن الخطيب، ويشمل الباب الأول منه، ذكر أوليته وأسلافه، والباب الثاني في نشأته وترقيه، وما لقي من مكائد حتى وفاته، والباب الثالث في ذكر مشايخه، والباب الرابع في ذكر مخاطبات الملوك والأكابر الموجهة إليه، وثناء غير واحد من أعلام عصره عليه، والباب الخامس في إيراد جملة من نثر لسان الدين وشعره وموشحاته وأزجاله، أما الباب السادس فهو في مصنفاته ومؤلفاته، سواء ما أتمه منها، أو ما عاقه الدهر عن اتمامه، أما الباب السابع فهو في ذكر بعض تلامذته الآخذين عنه، بينما يتعلق الباب الثامن والأخير بذكر أولاده المقتفين أوصافه الحميدة، والوارثين عنه العلم والعمل والرياسة والمجد، ووصيته لهم بالإضافة إلى سيل من الأمداح النبوية ختم بها المؤلف كلامه.

وبتلك المواضيع المختلفة والعناوين المتنوعة البارزة أنهى المؤلف كتابه : نفح الطيب، الذي أسماه قبل ذلك (عرف الطيب، في التعريف بالوزير ابن الخطيب) لكن حين ألحق به أخبار الأندلس وما تعلق بذكرها تغير إسمه فأصبح : (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب) وبه اشتهر صاحبه وعرفه الناس.

الفصل الثالث :

المبحث الأول :

طريقته في التأليف

كان المقري من بين الرجال القلائل الذين أسعدهم الحظ، وجاد عليهم الدهر ببعض ما ملك، وكان نموذجا فريدا من حيث ثقافته، ناشط الهمة، ناهض العزم، قوى الذاكرة، جيد التحصيل كثيره، كما أنه جامع بارع، واسع الاطلاع، وهو من أقدر العلماء على جمع المعارف والعلوم، وتنسيق الأخبار والروايات، وسيبقى اسمه مذكورا مشكورا محفورا في ذاكرة الباحثين والدارسين، ما بقي الأدب العربي، فلقد كان يقرأ المواد العلمية والتاريخية والأدبية والشعرية، ثم يعيها ويتدفق بها في مختلف المناسبات، وتاريخ الأدب العربي يحفظه له ذلك ويشهد له به.

وإن من تتبع التكوين الثقافي لشهاب الدين المقري المالكي القرشي، وهو بتلمسان، ثم بفاس، يرى أنه كان لا يترك الفرصة تمر أمامه الا استغلها في التحصيل وتوسيع مداركه، فتجمع لديه من ذلك سعة في القول عجيبة، وهذا التتبع للمراحل التي قطعها الشهاب في حياته من أجل حياة علمية موسوعية، تدفع الإنسان إلى الإطلاع على بعض كتبه الأخرى، إذ يعد ذلك مفتاحا لتعرف شخصيته أكثر، غير أن من الأمور التي يؤسف لها كثيرا، كون المكتبة الإسلامية العربية ما تزال مفتقرة إلى كثير من الكتب التي تعد زادا قويا للثقافة السليمة، وخاصة المكتبة المغربية، فالباحث والدارس لا يجدان من كتب المقري المطبوعة إلا النفح، وأزهار الرياض، أما غيرها وحتى إن كان مطبوعا فمن المتعذر وجوده، بينما البقية الباقية ما تزال من المخطوطات التي تغص بها المكتبات الإسلامية.

إن المقري صاحب حافظة قوية وهذا من أهم مميزاته، فقد استطاع وهو بتلمسان أن يظهر تفوقا عجيبا على أقرانه في قوة الحفظ، فتكونت لديه موهبة استطاع أن ينميها، ويستعين بها على مداومة ومذاكرة العلم

ومدارسته، حتى تكون مسائله دائما قريبة منه، ويحدثنا المقري عن قوة حافظته قائلا في فتح المتعال : «وكنت في حال الصغر أحفظ كثيرا بالنسبة إلى أقراني، فحدثني مولاي العم سعيد بن أحمد المقري أن بعض شيوخه من أهل تلمسان، كان يطالع الكراس الكبير بسرعة، فيحفظ ما فيه من وقته من غير تأمل، ولا بطء البتة، فانكسرت نفسي...» مما يدل على أنه لم يكن راضيا بما وصل إليه، وبمبلغه في الحفظ بالنسبة إلى غيره، وأنه يطمع في أن يصبح مثل بعض شيوخ تلمسان وقتذاك، ولعله قد بلغ هذا حين كبر.

ولقد رأينا حين الحديث عن شيوخه بتلمسان، كيف أنه كان حريصا أشد الحرص على حفظ كل ما يستطيع حفظه من أمهات الكتب المختلفة في الدين والحديث، والتاريخ والأدب والفقه، والأخبار والاشعار، والالتقاء بالشيوخ للأخذ عنهم، وأنه كان يسعى إلى الكتب في أماكنها، كما سعى إلى المكتبة الزيدانية، التي كان يتردد عليها، أيام كان نزيلا بفاس، فاستفاد من نفائسها ومخطوطاتها، فكانت مصادره بذلك غنية غزيرة، زودته بما هو في حاجة إليه من أحوال الأندلس وتواريخها وأخبارها وآدابها وعلومها، وبذلك يكون طلبه للعلم من مظانه الأصيلة ومراجعه الأمينة والموثوق بها، وهذه المكتبة ضاعت نتيجة قرصنة بحرية قام بها الإسبان ضد باخرة سعدية ومصادر هذه المكتبة هي التي كونت الجزء الأكبر من مكتبة الأسكوريال إن لم تكن تتكون منها وحدها وإن رجلا قضى حياته في التنقيب والبحث الدؤوب منذ الصبا إلى أن قضى نحبه، إضافة إلى قوة ذاكرته، سيكون ولا شك ذا إطلاع واسع، في مختلف الفنون والعلوم التي اتصل بها، كما أن أكبر شاهد على موسوعيته هذا الكتاب الضخم الذي بين أيدينا : «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب...».

الذي يرسم لنا الطريقة التي سلكها في مختلف تآليفه الأخرى، كأزهار الرياض في أخبار عياض، الذي لم يكتف فيه بذكر أخبار القاضي عياض، بل جعله المركز الأساسي الذي بنى عليه كل ما أورده في هذا الكتاب، إذ فيه ترجمات لشخصيات كثيرة ذكر بعضها في النفح، وأشار إلى ذلك إشارات كثيرة.

إن طريقة التأليف والمذهب في التصنيف جزء لا يتجزأ من شخصية الكاتب والمؤلف، بل إنه قد يلازمه طول حياته، وللمقري طريقته المفضلة في التصنيف كما أسلفنا، تميزه عن غيره، فهو يميل إلى التدوين والنقل، أكثر مما يميل إلى التحقيق والبحث، وأعتقد أن غرضه الأساسي من عمله هو تأليف موسوعة أدبية تاريخية تؤرخ للأدب الأندلسي على مدى فترة من الزمن طويلة يجمع فيها كل ما استطاع جمعه من أخبار ونوادر وحكايات وروايات مختلفة، وذلك لإحساسه العميق بأن المشارقة يجهلون الكثير عن بلاد الأندلس والمغرب، وأنه لم يسبق إلى مثله فيما يعلم، ويكفينا من جهل المشارقة لأدب الأندلس وثقافتها بالرغم من ذيوع صيتها في مجال العلوم والمعارف، أن لسان الدين ابن الخطيب وهو من هو بالأندلس، كان في حاجة إلى من يعرف به، ويظهر منزلته الأدبية والفكرية ولقد اعتمد المقري في هذه النقول الغزيرة التي ضمنها مؤلفه، على كتب قديمة ومعاصرة له أو قريبة من عصره، وهو لا يكتفي في نقله، بالنصوص الشعرية مهما طالت أو قصرت، ولكنه ينقل الأخبار الطويلة التي تبلغ صفحات، ثم لا يكتفي بذلك بل ينقل كتبا كاملة بما يكاد يقرب نصوصها الكاملة، فجعل من كتابه مكتبة من الكتب من تأليف غيره، والمقري الشهاب متأثر بالمقري الجد (أبو عبد الله محمد بن محمد ابن أحمد المقري) قاضي القضاة بفاس، حيث نجده ينقل من كتبه الكثير، ومن فوائده فيضا هائلا من النوادر والحكايات والاشعار والأخبار، وكتبه مثال لأحسن الكتب والمؤلفات التي نقل عنها بعض ما تيسر له، وأحب أن يكون من نصيب هذا المبحث شيء مما قاله المقري الجد، سواء في فوائده أو في كتبه كما يورد ذلك المقري الحفيد، إذ نجده ينقل له ترجمة عن صاحب الإحاطة في أخبار غرناطة.

كما عدد تراجم شيوخه الذين لقيهم بتونس، ومصر والحجاز والشام وبيت المقدس، ومن أولئك الذين أخذ عنهم بالمغرب، وأسهب في هذا حتى ذكر أكثر من ستين شيخا وعالما، ويقول شهاب الدين المقري : وقد ذكر لسان الدين رحمه الله تعالى في الإحاطة شيوخ مولانا الجد، فلنذكرهم من جزء الجد الذي سماه «نظم اللالي في سلوك

الأمالي» إلى أن يقول : قال مولاي الجد رحمه الله تعالى : (فممن أخذت عنه، واستفدت منه علماها ـ يعني تلمسان ـ الشامخان وعالماها الراسخان : أبو زيد عبد الرحمن، وأبو موسى عيسى، ابنا محمد بن عبد الله ابن الإمام...) (26) ومن شيوخه أبو إسحاق ابراهيم بن حكم السلوي، ومحمد بن منصور بن علي بن هدية القرشي، وأبو عبد الله الرندي، وأبو حيان الغرناطي (فرويت عنه واستفدت منه) (27) وغيرهم ممن يطول ذكرهم، كما ذكر جماعة من تلاميذه حيث يقول :

(وقد أخذ عنه رحمه الله تعالى جماعة أعلام مشهورون، منهم لسان الدين بن الخطيب ذو الوزارتين وابن زمرك، وأبو عبد الله القيجاطي الآية في علم القراءات... والولي ابن خلدون صاحب التاريخ والشيخ الفقيه القاضي الرحال محمد بن سعيد بن عثمان بن سعيد الصنهاجي، والنظار أبو إسحاق الشاطبي، وعبد الله بنجزي، وغيرهم ممن يطول تعداده) (28).

ولا شك أن المقري الجد أثر في المقري صاحب النفح وفي طائفة من علماء المغرب، حيث يشير إليه معظم المؤرخين والعلماء المغاربة، مما يدل على أنه أثرى الحركة الفكرية والعلمية بالمغرب، ولعب دورا هاما في مسارها، فنجد العالم ابن مرزوق يؤلف كتابا سماه (النور البدري في التعريف بالمقري) ومؤلف في التعريف بالمقري للوانشريشي وكتاب آخر باسم «الزهر الباسم» ثم أورد المقري ترجمة بقلم ابن خلدون عن المقري الجد، في تاريخه الكبير، فوصفه بأنه كبير علماء المغرب ويجمل بنا أن نورد بعض ما دار بين هذين العالمين من لطائف الحديث، وهما يلتقيان في القاهرة، حيث رسم لها ابن خلدون صورة رائعة تدل على مجدها وعظمتها إذ يقول : (فرأيت حضرة الدنيا، وبستان العالم، ومحشر الأمم، ومدرج الذر من البشر، وإيوان الإسلام، وكرسي الملك، تلوح القصور والأواوين في أوجه، وتزهو الخوانق والمدارس بآفاقه، وتضيء البدور والكواكب من علمائه، وقد مثل بشاطيء بحر النيل نهر

26) نفح الطيب م 5 ص 215.

27) نفس المصدر م 5 ص 253.

28) نفس المصدر ص 340 ـ 341 نفس المجلد.

الجنة ومدفع مياه السماء يسقيهم النهل والعلل سيحهم ويجبى إليهم الثمرات والخيرات ثبجه، ومررت في سكك المدينة تغص بزحام المارة، وأسواقها تزخر بالنعم، ومازلنا نحدث عن هذا البلد، وبعد مداه في العمران، واتساع الأحوال، ولقد اختلفت عبارات من لقيناه من شيوخنا وأصحابنا حاجهم وتاجرهم بالحديث عنه، سألت صاحبنا قاضي الجماعة بفاس وكبير العلماء بالمغرب أبا عبد الله المقري فقلنا له : كيف هي القاهرة ؟ فقال : من لم يرها لم يعرف عز الإسلام...) (29).

وبعد الترجمة للمقري الجد أورد شهاب الدين بعض الفوائد من كلامه وحديثه، لأنه كان صاحب فكر ثاقب ورأى صائب، ففوق تعمقه للمسائل العلمية كانت له حساسية شديدة ودقة في الرد والجواب وفطانة وحسن البديهة، ومن لطائفه ودرر كلامه قوله : قال لي الحاج أبو عبد الله محمد بن عبد الله ابن عبد الواحد الرباطي : كنا عند الشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد، ففقد أحدنا نعليه، فقال الشيخ : كنا عند العلم التبريزي فدخل عليه رجل يدعى بشيرا فكلمه ثم خرج فلم يجد نعليه فرجع إلى العلم وأنشده :

دخلت إليك يا أملي بشيرا
فلما أن خرجت خرجت بشرا

أعد يائي التي سقطت من إسمي
فيائي في الحساب تعد عشرا

وقال رحمه الله : سمعت شيخنا ببيت المقدس يقول : تجلى الله على المسجد الأقصى بالجمال وعلى المسجد الحرام بالجلال، وعلى مسجد الرسول ﷺ بالكمال، قلت قولك يوقف النواظر، وذاك يملأ الخواطر وهذا يفتح البصائر (30).

وقال : أخبرني أمير المؤمنين المتوكل على الله أبو عنان فارس نصره الله أن جده أمير المسلمين أبا سعيد سأل كاتبه عبد المهيمن الحضرمي عن تهادي أهل الحب التفاح دون الخوخ، وكلاهما حسن المنظر، طيب المخبر، شديد

29) نفس المصدر ص 255 ونفس المجلد.

30) نفح الطيب 5 ـ 261.

شبه بأخيهم شديد تشبيه الوجنات به لمتوخيه فقال : ما عندنا مولانا ؟.

فقال : أرى ذلك لاشتمال التفاح على الحب الذي يذكر بالحب والهوى، والخوخ على النوى الذي يذكر اسمه صفرة الجوى (31).

وقال في موضع آخر : ومن فوائد مولاي الجد رحمه الله مما لم يذكر فيما سبق أنه حكى أن ابن أمجوط الموله دخل في حلقة أبي عبد الله بن رشيد بجامع القرويين، وبين رجليه قصبة كأنها قوس، وبيده أخرى كأنها رمح، فانتهره رجل، فضربه برمحه على رأسه، وقال له : أسكت يا ميت، فابهت الناس لكلامه، فقال له الشيخ : يا فقير أنت في حال ونحن في مقال، وشأن أرباب الأحوال التسليم لأصحاب المقال، فنظر إليه المولـه وانصرف، ثم لم ينشب المنتصر أن توفى بعد ذلك بأيام قلائل.

ومن أخبار جد المقري الدالة على صرامته ما حكاه ابن الأزرق عنه : أنه كان يحضر مجالس السلطان لأبي عنان لبث العلم وكان نقيب الشرفاء بفاس، إذا دخل مجلس السلطان يقوم له السلطان ومن معه إلا الشيخ المقري فإنه لا يفعل فشعر النقيب بذلك وشكاه إلى السلطان، فقال له السلطان : هذا رجل وارد علينا نتركه على حاله إلى أن ينصرف، فدخل النقيب على عادته ذات يوم، فقام له السلطان على العادة وأهل المجلس، فنظر إلى المقري وقال له : أيها الفقيه مالك لا تقف كما يفعل السلطان نصره الله وأهل مجلسه إكراما لجدي ولشرفي ؟ ومن أنت حتى أقوم ؟ فنظر إليه المقري وقال له : أما شرفي فمحقق بالعلم الذي أنا أبثه ولا يرتاب فيه أحد، وأما شرفك فمظنون، ومن لنا بصحته، منذ أزيد من سبعمائة سنة، ولو علمنا شرفك قطعا لا قمنا هذا من هنا، وأشار إلى السلطان أبي عنان، وأجلسناك مجلسه، فسكت) (32) ثم نورد من أخبار المقري الجد هذه الأجوبة التي تدل على عمق فهمه لواقع الإسلام والمسلمين وذلك حين سأله أحد الفقراء عن السبب في سوء بخت المسلمين في ملوكهم، إذ لم يل أمرهم من يسلك بهم الجادة ويحملهم على الواضحة، بل من يغتر في مصلحة دنياه، غافلا عن عاقبة أخراه، فلا يرقب في مؤمن إلا ولا ذمة، ولا يراعي عهدا ولا حرمة، فأجبته بأن ذاك لأن الملك ليس في شريعتنا وذلك أنه كان فيمن قبلنا شرعا قال تعالى ممتنا على بني إسرائيل.

﴿وجعلكم ملوكا﴾ (33) ولم يكن ذلك في هذه الأمة، بل جعل لهم خلافة قال تعالى : **﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض﴾** (34).

وقال تعالى : **﴿وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا﴾** (35) وقال سليمان : (رب اغفر لي وهب لي ملكا) (36) فجعلهم الله تعالى ملوكا، ولم يجعل في شرعنا إلا الخلفاء فكان أبو بكر خليفة رسول الله ﷺ وإن لم يستخلفه نصا لكن فهم الناس ذلك فهما، وأجمعوا على تسميته بذلك، ثم استخلف أبو بكر عمر، فخرج بها عن سبيل الملك الذي يرثه الولد عن الوالد إلى سبيل الخلافة الذي هو النظر والاختيار... إلى أن يقول ثم كان معاوية أول من حول الخلافة ملكا، والخشونة لينا، ثم إن ربك من بعدها لغفور رحيم، فجعلها ميراثا، فلما خرج بها عن وضعها لم يستقم ملك فيها، ألا ترى أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كان خليفة لا ملكا، لأن سليمان رحمه الله تعالى - رغب عن بني أمية إيثارا لحق المسلمين، ولئلا يتقلدها حيا وميتا، وكان يعلم اجتماع الناس عليه، فلم يسلك طريق الاستقامة بالناس قط إلا خليفة، وأما الملوك فعلى ما ذكرت إلا من قل، وغالب أفعاله غير مرضية (37) وكما قال المقري في النهاية عن جده : وفوائد مولاي الجد وتحفه وطرفه ولطائفه ودقائقه يستدعي استقصاؤها مجلدات فلنكتف بما قدمنا : وفي الإشارة ما يغني عن الكلام.

وقد سقت هذا الكلام الذي ذكره صاحب النفح عن جده لطرافته وعذوبته، ولمعرفة مدى تأثر شهاب الدين

31) نفس المصدر 5 - 262.
32) نفح الطيب ج 5 ص 281.

33) المائدة الآية 20.
34) النور الآية 55.
35) البقرة الآية 247.
36) ص الآية 35.
37) نفح الطيب ج 5 ص 284.

بجده وأخذه من كتاباته ومؤلفاته، ما سمحت به الأحوال والظروف.

كما تحدث المقري عن تآليفه التي منها : «القواعد» و«الطرف والتحف» و«عمل من طب لمن حب» وعنه يقول : (وهو بديع في بابه مشتمل على أنواع الأول فيه أحاديث حكيمة كأحاديث «الشهاب» و«سراج المهتدين» لابن العربي، والنوع الثاني منه الكليات الفقهية على جملة أبواب الفقه في غاية الإفادة، والثالث في قواعد وأصول، والرابع في اصطلاحات وألفاظ...

وقد رأيت هذا الكتاب بحضرة فاس عند بعض أولاد تلمسان وهو فوق ما يوصف، وفيه يقول مولاي الجد رحمه الله تعالى :

هذا كتاب بديع في محاسنه
ضمنته كل شيء خلته حسنا
فكل ما فيه ان مر اللبيب به
ولم يشم عبيرا شام منه سنا
فخذه واشدد به كف الضنين وذد
حتى تحصله عن جفنك الوسنا (38)

(ومنها كتاب «المحاضرات» وفيه من الفوائد والحكايات والإشارات كثير، وقد ملكت منه بالمغرب نسختين، فلنذكر منه بعض الفوائد) فسرد مجموعة من هذه الفوائد التي منها :

«أتى يهودي المسجد فقال : أيكم وصي محمد فأشاروا إلى الصديق، فقال : إني سائلك عن أشياء لا يعلمها إلا نبي أو وصي نبي قال : سل، قال : فأخبرني عما ليس لله، وعما ليس عند الله، وعما لا يعلمه الله، فقال هذه مسائل الزنادقة وهم بقتله، فقال ابن عباس ما أنصفتموه، أما أن تجيبوه وإما أن تصرفوه إلى من يجيبه، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول لعلي : اللهم أهد قلبه، وثبت لسانه (39) فقال أبو بكر قم معه إلى علي، فقال له : أما ما لا يعلمه الله فقولكم في عزير أنه ابن الله، والله عز وجل لا يعلم له ولدا قال في التنزيل (ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله...) (40).

وأما ما ليس عند الله فالظلم، وأما ما ليس له فالشريك، فأسلم اليهودي، فقبل أبو بكر رأس علي وقال له : يا مفرج الكربات، ووردت مثل هذه المسائل عن الصحابة فالله تعالى أعلم» (41).

وقد جاءت هذه الفوائد للمقري الجد في أكثر من عشرين صفحة في كتاب النفح، ثم انتقل إلى كتابه في التصوف المسمى «الحقائق والرقائق» الذي كتب عنه يقول : «وقد سنح لي أن أسرد هنا شيئا من هذا الكتاب الفذ في بابه، فنقول : قال فيه مولاي الجد رحمه الله تعالى : هذا كتاب شفعت فيه الحقائق بالرقائق، ومزجت المعنى الفائق، باللفظ الرائق، فهو زبدة التذكير وخلاصة المعرفة، وصفوة العلم، ونقاوة العمل، فاحتفظ بما يوحيه إليك فهو الدليل وعلى الله قصد السبيل».

وهذا الكتاب كما نرى يذكر فيه المقري الجد الحقيقة أولا ثم يتبعها برقيقة ومن ذلك قوله : حقيقة : عمل قوم على السوابق، وقوم على اللواحق، والصوفي من لا ماضي له ولا مستقبل، فإن كان زجاجيا فبخ بخ، رقيقة : من لم يجد ألم البعد، لم يجد لذة القرب، فإن اللذة هي التخلص من الألم، ولما انتهى من نقل هذه الحقائق والرقائق وما أكثرها قال شهاب الدين «انتهى ما تعلق به الغرض من كتاب» الحقائق والرقائق «لمولاي الجد الإمام، سقى الله عهده صوب الغمام، وما ذكرته من كلامه غيض من فيض،وقل من كثر، ويكفي من الحلي ما قل وستر العنق» (42).

وعندما ترجم المقري لأبي عثمان بن ليون التجيبي من شيوخ لسان الدين ابن الخطيب، ذكر طائفة من كتبه واختصاراته، فقد كان ابن ليون هذا مولعا باختصار الكتب، وله تواليف في هذا الباب منها اختصار «بهجة المجالس» لابن عبد البر واختصار «المرتبة العليا» لابن راشد القفصي، وكتب تزيد على المائة فيما يذكر، وقد وقف منها المؤلف وهو بالمغرب على أكثر من عشرين ومما حكي عن بعض

38) نفح الطيب ج 5 ـ 85.

39) الآية 18 سورة يونس.

40) نفس المصدر السابق ص 290 ـ 291.

41) نفس المصدر ص 310.

42) نفح الطيب م 5 ص 328.

كبراء المغرب في هذا الباب، أنه رأى رجلا طويلا فقال لبعض من حضر معه (لو رآه ابن ليون لاختصره) إشارة إلى كثرة اختصاراته للكتب.

وعندما انتهى إلى ذكر كتاب «نصائح الأحباب وصحائح الأداب» أورد فيه مائتي قطعة من شعره، تتضمن نصائح متنوعة، وتملأ أكثر من ثلاثين صفحة، وقد أنهى ما نقله بقوله : «انتهى ما لخصت واخترت من الكتاب المذكور» لكننا نجده لا يكتفي منه بذلك، فجاء بنصوص أخرى من كتاب له بعنوان : «الأبيات المهذبة في المعاني المقربة» وبنبذة من كتاب : «أنداء الايم في المواعظ والوصايا والحكم» الذي قال عنه : «وكل ما فيه كالذي قبله من نظمه رحمه الله تعالى» ولنستطرد هنا قليلا لنقل بعض الاشعار التي أوردها المؤلف لابن ليون التجيبي وهي أشعار في الوصايا والحكم والأمثال والنصائح، وتحمل بين ثناياها قلب رجل حنكته التجارب وعرفته الحياة بالصعب فيها والهين، وما أصدق قوله حين يقول : (43).

علمت شيئا وغابت عنك أشياء
فانظر وحقق فما للعلم احصاء

للعلم قسمان : ما تدري وقولك لا
أدري، ومن يدعي الاحصاء هذا

وقوله :

دع من يسئ بك الظنون ولا
تحفل به إن كنت ذا همه

من لم يحسن ظنه أبدا
بك فاطرحه تكتفي همه

وقوله :

سالم الناس ما استطعت وداري
أخسر الناس أحمق لا يداري

ضرك الناس ضر نفسك يجني
لا يقوم الدخان إلا لنار

وقوله :

لا تصحب الأردي فتردي معه
وربما قد تقتفي منزعه

فالحبل ان يجرر على صخرة
أبدى بها طريقة مشرعه

وقوله :

ما فات أو كان لا تندم عليه فما
يفيد بعد انقضاء الحادث الندم

أرجع إلى الصبر تغنم أجره وعسى
تسلو به فهو مسلاة ومغتنم

وقوله :

شر إخوانك من لا
تهتدي فيه سبيلا

يظهر الود ويخفي
مكره داء دخيلا

يتقي منك اتقاء
وهو يوليك الجميلا

وقوله :

لا تترك الحزم في شيء فإن به
تمام أمرك في الدنيا وفي الدين

من ضيع الحزم تصحبه الندامة في
أيامه ويرى ذل المهاوين

وقوله :

حبيبك من يغار إذا زللتا
ويغلظ في الكلام متى أسأتا

يسر أن اتصفت بكل فضل
ويحزن أن نقصت أو انتقصتا

ومن لا يكترث بك لا يبالي
أحدت عن الصواب أم اعتدلتا

وكقوله في العدل :

العدل روح به تحيا البلاد كما
هلاكها أبدا بالجور ينحتم

الجور شين به التعمير منقطع
والعدل زين به التمهيد ينتظم

يا قاتل الله أهل الجور كم خربت
بهم بلاد وكم بادت بهم أمم

وفي الاعتراف بالجميل :

---

43) توجد هذه الاشعار من 544 إلى ص 603. م 5.

أشكر لمن وألاك معروفـــــــــــــا
تكن بفضـــــل النفس معروفـــــــا

شكر أخي المنـــــة عـــــدل فكن
بـالعـدل مهمـا أسطعت مـوصـوفـا

من يكفر الإحـــــسان لابـــــد أن
يقي عن الإحـــــسان مصروفـــــا

ويقول في التأني، وأخذ الأمور بالرفق والتؤدة :

خـــذ الأمـور برفـق وتئـــدابـــدا
إيـــاك من عجـل يـــدعـو إلى وصب

الرفـق أحـن مـا تـؤتي الأمـور بـه
يصيب ذو الرفـق أو ينجـو من العطب

من يصحب الرفـق يستكمـل مطـالبـه
كمـــا يشـــاء بــلا أين ولا تعب

والمقري في هذا كله لا ينقل عن غيره فقط، بل نجده ينقل عن نفسه أيضا من بعض كتبه : كأزهار الرياض، وهو يشير إلى ذلك، كما فعل حين ذكر حازم القرطاجني فقال : «وقد عرفت بحازم هذا في أزهار الرياض، وذكرت جملة من نثره» كما نقل له قصيدة شعرية طويلة سبق أن أوردها في كتابه السالف الذكر، والتي مطلعها :

أدر المـــدامـــة فـــالنسيم مــؤرج
والروض مرقـــوم البرود مـــدبــــج

ونجده ينقل فصلا يتعلق بالهجاء من الذخيرة لابن بسام، وصاحبنا هذا كله قوى الذاكرة في النقل اللهم إن خانته ولم تسعفه في بعض الأحيان، فتسعفه يورد عبارات وكلمات كثيرة تدل على ذلكم كما يورد عبارات يقدم بها لما يريد نقله كقوله : قال فلان، أو قال فلان ما صورته، أو ونص محل الحاجة من الشاهد، أو ولنورد ما في كتاب كذا ما نصه، أما عندما ينهي كلامه فيقول : انتهى كلام فلان، انتهى ما اختصرته من كلام فلان، انتهى ما تعلق به الغرض من كتاب كذا...، انتهى ما في كتاب كذا، وقد انتهى ما اقتضاه كلام فلا...، أما عندما لا يتأكد مما يريد فإنه يأتي بألفاظ مناسبة حتى لا يزعم لنفسه ما ليس له وهذا حق، فيقول : انتهى وأظن أني نقلته من كتاب ابن الأبار الحافظ والله أعلم (44) انتهى كلام ابن سعيد من كتابه القدح المعلي فيما أظن (45) قلت لست على يقين من نسبة هذا النظم إلى الشيخ رحمه الله تعالى...، فالله تعالى أعلم بالحقيقة (46). وهذا البيت الثالث نسيت لفظه فكتبته بالمعنى والوزن إذ طال عهدي به، والله تعالى أعلم (47). ثم إنك واجد كلامه يتداخل أحيانا فلا تدري أين كلامه من كلام غيره.

وإذا قلنا بأن المقري يعتمد على النقل والتدوين، فإن ذلك لا ينقصه حقه من التحقيق كذلك، فهو يصدر أحكاما على الشعر من حيث جودته أو ضحالته، فحين تكلم عن كتاب «درر السمط في خبر السبط» لابن الأبار مثلا أعجب به وقال في الخاتمة : «انتهى ما سنح لي ذكره من درر السمط وهو كتاب «غاية في بابه».

أما كتب لسان الدين فله فيها جولات لا تتوقف عند حد، حسبنا من ذلك أن القسم الثاني من كتابه يختص بالحديث عن لسان الدين الذي كان اسمه السبب المباشر في تأليف النفح، وكتبه موصوفة عنده بأنها غاية في الأسلوب والفكر، والعذوبة والجزالة، فيذكر أنه كان وهو بالمغرب يحفظ أكثر ما في كتابه «رقم الحلل في نظم الدول» إلا أنه نسيه وهو بمصر وأنه نقل منه بعض ما هو عالق بحفظه.

وعندما ذكر مؤلفات أحمد الشريشي أشار إلى شرحه الكبير لمقامات الحريري وقومه بقوله : «وفي الكبير من الاداب مالا كفاء له» (48) ومن لطائف المقري في نقله ورواياته عن محفوظه من الكتب أنه إذا وجد ما رواه ناقصا أو غير موف بالغرض، أشار إلى ذلك ثم زاد من عنده ما يفي بالغرض المطلوب، كما فعل حين ترجمته للقاضي ابن العربي إذ وجد ما نقله ابن سعيد ناقصا فعقب عليه قائلا : «وما وفي ابن سعيد حافظ الإسلام أبا بكر ابن العربي حقه، فلنعززه بما حضرنا من التعريف به» (49) ونفس الشيء

---

44) نفح الطيب م 2 ص 15.
45) نفس المصدر ص 125.
46) نفس المصدر ص 169.
47) نفس المصدر ص 6.
48) نفح الطيب م 2 ص 166.
49) نفس المصدر ص 29.

بالنسبة لأبي الوليد الباجي نقلا عن قلائد العقيان للفتح ابن خاقان إذ عقب قائلا : «ولعمري أنه لم يوف أبا الوليد الباجي حقه المفترض، ووددت أنه مد النفس في ترجمته بعبارته التي يعترف ببراعتها من سلم له ومن اعترض، فإن ترجمة المذكور مما سطره أفسح مجالا وأفصح رواية وارتجالا...» (50).

إن مما يلفت النظر في طريقة المقري، ذلك الاستطراد الذي يتبعه في الترجمة لشخصياته في النفح أو حين ينقل عن بعض المؤلفات، فهو يتحدث عن موضوع ثم يتركه إلى آخر غيره، وبعد صفحة أو أقل يعود إلى موضوعه السابق فيقول : رجع إلى كذا، رجع، عود إلى كذا، ومثل هذه العبارات والكلمات موجودة بكثرة في كتابه، فقد كان يتحدث عن دمشق نقلا عن ابن جبير فترك الموضوع وبعد صفحتين أو ثلاث عاد إليه أكثر من مرة، وعندما ينقل الاشعار التي قيلت في مدينته المفضلة دمشق الشام، تراه يكرر عبارته : رجع إلى مدح دمشق، أو رجع إلى ذم دمشق، وذلك بعد أن نقل أشعارا في وصف حسنها وجمالها، خاتما بقوله «وقد خرجنا بالاستطراد إلى الطول، وذلك منا استرسال مع جاذب الأدب، فلنمسك العنان والله المستعان.

وما عددناه من القصائد والمقطوعات في مدح دمشق الشام فهو فيض من غيض وفي نيتي أن أجمع في ذلك كتابا حافلا أسميه (نشق عرف دمشق) أو (مشق قلم المدح لدمشق) (51).

ويدل قوله فلنمسك العنان على أنه ليس غافلا عن استطراداته، بل إن ذلك يزيد الكلام حلاوة، والقول عذوبة فهو منجذب مع الأدب انجذابا، وفي ذلك كله متعة ولذة للقارئ، وهو يتنقل بين صفحات الكتاب ويحكم لصاحبه بعدها بتلك العبقرية الفذة، والذاكرة القوية المتمكنة.

ويشعر القارئ أن المقري كثير المراعاة فيما يختاره من أحاديث وأخبار وأشعار، حتى تتناسب وما يقصده من إنزال كل شيء منزلته، وموضعه اللائق به، والشيء عنده بالشيء يذكر : فقد روى قصيدة الأديب عبد العزيز الفشتالي الذي يخاطبه بقوله (صاحبنا الوزير الشهير :

50) نفس المصدر ص 76.

51) نفس المصدر م 2 ص 484.

الكبير البليغ صاحب القلم الأعلى سيدي أبو فارس عبد العزيز الفشتالي) وذكر أنه أنشده بيتا من قصيدة نونية مدح بها سيد الوجود، وتخلص بعد ذلك إلى مدح الخليفة المنصور وهو :

أولئك فخرى ان فخرت على الورى
ونافس بيتي في الولا بيت سلمان

ثم نقل نص القصيدة التي مطلعها :

هم سلبوني الصبر والصبر من شاني
وهم حرموا من لذة الغمض أجفاني (52)

وهي قصيدت تقع في مائة وأحد عشر بيتا، فرأى من تمام التناسب أن يروى قصيدة في وزنها وقافيتها لأبي الفتح محمد بن عبد السلام المغربي التونسي نزيل دمشق، مطلعها :

سلوا البارق النجدي عن سحب أجفاني
وعما بقلبي من لواعج نيران (53)

وروى قصيدة ثالثة لابن الخطيب السلماني مطلعها :

أطاع لساني في مديحك إحساني
وقد لهجت نفسي بفتح تلمسان

وهي كما قال قصيدة طنانة في نفس الوزن والقافية، أي أن سابقتيها قصيدتان نونيتان ـ مدح بها السلطان أبا سالم المريني حين فتحه لتلمسان «وقد رأيت إيرادها في هذا الباب، لما اشتمل عليه آخرها من شرح أمر الاغتراب، الذي حير الألباب، وللمناسبة أسباب، لا تخفى على من له فكر مصيب، وكل غريب للغريب نسيب» (54).

وهو في هذا لم يكتف بهذه القصائد النونية فنقل نونية الأديب الأندلسي الفقيه عمر فقدم لها بقوله : «وحيث اقتضت المناسبة جلب هذه النونيات فلنضف إليها قصيدة أديب الأندلس الفقيه عمر صاحب الازجال إذ هو من فرسان هذا المجال ومطلعها :

تعال نجددها طريقة ساسان
نعض عليها ما توالى الجديدان (55)

52) نفح الطيب م 5 ص 23.

53) نفس المصدر م 5 ص 29.

54) نفس المصدر م 5 ص 32.

55) نفس المصدر ص 41.

ثم كان من كمال الموضوع إيراد نونية ابن زمرك التي وطأ لها بقوله : «وحيث ذكرنا هذه القصائد النونية التي اتفق فيها البحر والروى، وجرت من البلاغة على النهج السوى، فلا بأس أن نعززها بقصيدة الرئيس الوزير عبد الله ابن زمرك ومطلعها :

لعل الصبا أن صافحت روض نعمان

تؤدي أمان القلب عن ظبية البان

والمقري حين ينقل عن بعض الكتب، أمين في نقله، يذكر أسماءها وأصحابها، صدوق في تبيين الحقائق لا ينقص في ذلك أحدا حقه، فيشعر الدارس والباحث في عقلية المقري وفكره أنه صاحب موهبة لا تجاري وذوق رفيع، يتذوق الشعر كما يستعذب النثر، وقوته عجيبة في استحضار ما يريد من الأخبار، والاستشهاد حتى أنه وهو بدمشق أصبح من الظواهر التي تستحق الذكر والإشادة بها، والتنويه بقدرها، وقد أشار مفتي الشام الشيخ عبد الرحمن العمادي إلى ذلك حين مدحه بقصيدة له يقول فيها :

شمس هدى أطلعها المغرب

وطار عنقاء بها مغرب

فأشرقت في الشام أنوارها

وليتها في الدهر لا تغرب

أعني الإمام العالم المقري

أحمد من يكتب أو يخطب

إلى أن قال وهو محل الاستشهاد :

درس غريب كل يوم له

يملي، ولكن حفظه أغرب (56).

في حين نجد صديقه أحمد بن شاهين يقول بأن وجوده بدمشق أغناهم عن وجود علامة الدنيا لسان الدين، وأن اسم المقري اسم مشحون بطاقات علمية وفكرية هائلة، فقال :

أغني ودجودك وهو عين الدين عن

علامة الدنيا «لسان الدين»

أنظره تستغني به عن غيره

وإلى العيان أرغب عن المظنون

56) نفح الطيب م 2 ص 412.

تلقى علوم الناس في أوراقهم

وعلومه في صدره المشحون (57)

وفي النهاية أقول : إن الطريقة التي تبعها المقري في تأليف النفح طريقة لا يتمكن منها كل إنسان يريد الكتابة، إذ جعلت منه راويا وحافظا لحصيلة متنوعة من الأخبار والمعارف الأندلسية والمغربية والمشرقية لولاه لضاعت وكل ذلك لتكوينه الثقافي المتميز.

وفي حق المقري أقول : إنه واد بعيد الغور كثير الجداول، متعدد الجنبات، لن تبلغه حتى تكل قدماك على أنك حين تصله تجد ما ينسيك أهوال الطريق ومتاعب السفر الطويل.

المبحث الثالث :

هل يمثل النفح أسلوب القرن الحادي عشر ؟

هذا سؤال عريض، يتطلب الدقة في الجواب، ويدفعني إلى البحث والتنقيب عن العنصر الهام الذي سيكون لي عونا على الإجابة الدقيقة، واستكمال كل الجوانب المهمة التي تعطي الإجابة حقيقتها وكنهها وأقصد بالعنصر الهام : إيجاد النصوص لكتاب أو شعراء عاشوا خلال القرن الحادي.

أما الحديث عن الأسلوب في هذا القرن بغير وضع النصوص موضع تحليل ودراسة، فيكون عملا لا قيمة له، ومفرغا من كل محتوى، وسأعمل على إدراج مجموعة من النصوص لمؤلفين من المغرب وآخرين من المشرق إذ لابد من اتباع هذه الطريقة لاستكمال جوانب الموضوع كما أسلفت.

وقبل الدخول إلى أعماق الكتب وبطونها، سأقتطف أسماء بعض المؤلفات في هذا القرن فهي مثال حي لتلك الطريقة المتبعة في الكتابة والأسلوب، وعنوان ينبض بما له من سمات ومميزات.

ومن أسماء هذه المؤلفات والكتب «مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفا» لعبد العزيز الفشتالي «المنتقى المقصور على مآثر خلافة المنصور» وهو كتاب ألفه أحمد

57) نفس المصدر ص 421.

بن القاضي في شكر أحمد المنصور الذي يذل في خلاصه هدية عظيمة من أسر المسيحيين، ومن كتب التراجم «درة الحجال في أسماء الرجال» لأحمد ابن القاضي، و«جذوة الاقتباس فيمن حل من الاعلام مدينة فاس» لنفس المؤلف و«نيل الابتهاج بتطريز الديباج» لأحمد بابا السوداني، و«كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج» للمؤلف نفسه و«أزهار الرياض في أخبار عياض» و«نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب» للمقري التلمساني، و«مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن» لمحمد العربي الفاسي، ومن الفهارس : «رائد الفلاح بعوالي الأسانيد الصحاح» لأحمد ابن القاضي و«اصليت الخريت، في قطع بلعوم العفريت النفريت» لأحمد ابن أبي محلي، ألفه سنة 1016 هـ و«الفوائد الجمة، بإسناد علوم الأمة» لعبد الرحمن التمنارتي (1045 هـ) ومن كتب الجغرافية : «مختصر رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب» لأحمد الحجوي (1047 هـ) ومن دواوين الشعر والمجموعات الأدبية : «روضة الاس، العاطرة الانفاس» في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس» لشهاب الدين المقري، وغيرها كثير، ونلاحظ أن هذه الأسماء لا تخلو من جدة في اختيار الألفاظ، وتنميقها، وترصيع الكلمات والبحث عنها، حتى تكون الألفاظ مسجوعة، منفردة بنغمة موسيقية متميزة.

وهذه نصوص متفرقة ومقتضبة، لم تذكر كاملة لأن ذلك لا يتسع له المجال، وهي لبعض المغاربة الذين مارسوا تلك الظاهرة في الأسلوب، خلال القرن الحادي عشر، أسلوب فيه صنعة وتكلف وبحث عن الكلمات التي تلبي مطلبهم في التعبير.

يقول محمد ابن يجيش التازي في كتابه : «تنبيه الهمم العالية على الصدقة والانتصار للملة الزاكية، وقمع الشرذمة الطاغية، عجل الله دمارها، ومحا ببواتر المسلمين آثارها» وهو عنوان طويل وفيه بعض ما ابتلي به كتاب ذلك القرن من الكلام المسجوع :

«ما هذه الغفلة العظيمة، التي أضحت على القلوب مقيمة، وركنت إليها النفوس فأصبحت من الرشاد والتوفيق عديمة ؟ أما علمتم أن أعداءكم باحثون عليكم، مشتغلون بكل حيلة في نيل الوصول إليكم ؟ قد جمعوا من العدد ما لا يحصى له عدد، وأرسلوا جيوشهم وعيونهم في كل بلد، ليخبروهم بما عندكم من عدة، وما أنتم عليه من قوة وشدة...».

إلى أن يقول متفجعا على أحوال المسلمين وما يلاقونه من استرقاق على يد المسيحيين في عدوتي المغرب والأندلس : «وقد أبدلوا بعد العز والفرح، ذلا وحزنا، واستولى عليهم الكرب والنزح، حسا ومعنى، قد أوثقوا بالسلاسل والحديد، وهم في كل يوم في عذاب شديد، وصاروا من جملة المماليك والعبيد، كانوا بالأمس أغنياء آمنين، فأصبحوا اليوم فقراء خائفين، انتهبت أموالهم وتغيرت أحوالهم، فرقت عنهم نساؤهم، وأخذت منهم بناتهم وأبناؤهم، وصار الكفرة يتنافسون في بيعهم بالاثمان، وجعلوا يفرقونهم في سائر البلدان، ويريدون أن يفتنوهم في دينهم، ويفسدوا عليهم قوة يقينهم، فما هذه الغفلة عن إخوانكم يا معشر المسلمين ؟».

ويقول عبد الله بن علي بن طاهر الحسني في «لباب مراقي الجنة، مما ورد في الجهاد في السنة» مبينا الغرض من هذا الكتاب : «الحمد لله الشهيد على أعمال عباده، العليم بمن جاهد فيه حق جهاده، جاعل حماية البيضة بقتال العدو من أوكد الغرض، ﴿**ولو يشاء الله لا نتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض**﴾ وصلى الله على قدوة المجاهدين، وإمام الصابرين، وسيد الشهداء المخلصين صلاة وتسليما ننال بها غاية الرضى، ويصرف عنا بحول الله وقوته سوء القضاء، وبعد : فهذه أحاديث مصطفوية، وكلمات نبوية، في فضل الجهاد وأهله، والنفقة فيه، ووعيد تاركيه...» (59).

ومن «فلك السعادة الدائر بفضل الجهاد والشهادة» يقول صاحبه آمرا بالجهاد : «فانظروا وفقكم الله ـ بعيون الهمم ما تلى عليكم من آيات قرآنية، وسيق على آذان التدبر من أحاديث مصطفية، وكروا على الفرسان، وجولوا في الميدان، وحققوا ادعاءكم الإيمان، بمجالدة أتباع الشيطان،

---

58) عن الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين لمحمد حجي ـ الجزء الأول ص 199 مطبعة فضالة 1977.

59) نفس المرجع السابق ص 202.

يا من هم أعجز من النسوان، وأضعف عقلا من الصبيان، يا مقيما في جوانب الحجرات، يا متخلفا في الخدر مع الصبيان، أهون بكم من شجعان، أبغض بكم من فرسان، أف لكم من رجال، تعسا لكم من أنذال، سحقا لكم من أبطال، بعدا لكم يا ضلال، تبا لكم يا من لا تخطر له المعالي ببال...» (60).

ومن «مطالب الفوز والفلاح في آداب طريق أهل الفضل والصلاح» لعيسى بن موسى البطوئي، يقول المؤلف في فضل الجهاد : «واعلم ـ رحمك الله ـ أن أصل الوهن والضعف عن الجهاد ومكافحة العد هو حب الدنيا وكراهية بذل النفوس لله تعالى، وبذل مهجتها للقتال في سبيل الله إلا ترى إلى حال الصحابة وكيف مهد الله لهم البلاد، ودان لدينهم العباد، لما بذلوا لله أنفسهم في الجهاد، وحالنا اليوم كما ترى عدد أهل الإسلام كثير، ونكايتهم في الكفار نزر يسير...» (61).

ويقول قاضي الجماعة بسوس عبد الرحمن التمنارتي في رسالة موجهة باسم الأمير يحيى الحاحي بعد مقدمة في الجهاد عرض لحال سلا المهددة من قبل الإسبان الذين توالت عليهم غاراتهم، وهذه الرسالة مؤرخة بغرة جمادى الثانية 1025 هـ» : ورد علينا بتاريخه رسول من مدينة سلا، التي علاها من قتام الكفر ما علا، مما دهمها من العدو وحسبما تقرر عندكم وأن العدو ـ دمره الله لما استوثق بناءه، ومكن بساحتها حشمه وأبناءه، أخذ يشن الغارات عل ىما قرب وبعد من بلاد الإسلام، ويدب الضراء لاغتيال المسلمين، ونكايتهم بضروب الآلام، ويكاثرهم بالجنود العتيدة برا وبحرا، ويداهمهم بالمكايد المريبة سرا وجهرا، حتى ضاق بسكانها الخناق، وبلغت القلوب الحناجر من ذلك التضياق» (62).

ومن النصوص التي أنقلها قول محمد العربي الفاسي فيما يتعلق بالأسئلة الخمسة الموجهة إلى عموم فقهاء المغرب عام 1040 هـ وهي التي يتعلق الأول منها بحكم تحرير المدن المغربية المحتلة، والحصون التي شيدها المستعمر، والثاني بأدلة ذلك الحكم إثباتا أو نفيا، والثالث بتوقف الجهاد على وجود الإمام وأذنه أم لا، والرابع بحكم بيع الطعام والسلاح للحربيين، والخامس بشراء الطعام من الحربيين عند الضرورة : يقول : مما علم من الدين ضرورة أن الجهاد مطلوب، من المقاصد التي تعتمدها الشريعة بالوجوب، بحسب نفع الإسلام ونكاية عدو الدين، يتأكد الطلب على الكفاية أو التعيين... فإذا كان الأجر ثابتا في الموطئ والغليظ وقطع الوادي، فكيف لا يكون فتح الحصون، واستباحة الحمى المصون، مطلوب الفعل على التأكيد، مأمور به أهل الإسلام على التأييد... فما بالك بما اغتصبه الكفار بدعوى الثأر، فتعينت على حميته إجابته، ووجب أن تقوم بعصبيته عصابته، فإن أضاعوه فأنفسهم أضاعوا، والحظ النفيس بالحظ الخسيس باعوا...) (63).

والمقري يذكر مجموعة من الرسائل توصل بها من بعض أعيان دمشق، كرسالة تاج الدين المحاسني التي اقتطف منها قوله : «ولكني أقول : الثناء منجح أني سلك، والسخي جوده بما ملك، وإن لم يكن خمر فخل، وإن لم يصبها وأبل فطل، هذا وقد أوصلنا مكاتيبكم الشريفة لأربابها فكانت لديهم أكرم قادم، وأشرف منادم...» (64).

ومن رسالة ابن شاهين الذي يصف المقري بأوحد الموالي الكبراء، السري، عين الأعيان، صدر أرباب البلاغة والبيان، قوله إلى المقري : «... وأنا أقول ما هو أبدع وأبرع، وفي هذا الباب أنفع وأجمع : بل هو خط الامان من الزمان، والبراءة من طوارق الحدثان، والحريز الحريز، والكلام الحر الا بريز، والجوهر النفيس العزيز، وأما الكتاب نفسه فقد حسدني عليه إخواني، واستبشر به أهلي وخلاني...» (65).

ومن بلاد قسطنينة خاطب عبد الكريم بن عمر الفكون شهاب الدين قائلا : «... وقد اتصل بيدي جوابكم، أطال الله في العلم بقاءكم، فرأيت من عذوبة ألفاظكم، وبلاغة خطابكم، ما يذهل من العلماء فحولها، وينيلها لدى

60) نفس المرجع ص 204.
61) نفس المرجع ص 206.
62) نفس المرجع ص 209.

63) نفس المرجع السابق ص 215.
64) نفح الطيب م 2 ص 453.
65) نفس المصدر م 2 ص 461.

الجثو لسماعه سؤلها ومأمولها...» (66).

ومن ذلك رسالة علي عبد الواحد الأنصاري أحد تلامذة المؤلف في المغرب يقول : «... وأهل داركم بفاس بخير وعافية، ونعم ضافية، سوى ما أدركهم من طول الغيبة، نسأل الله تعالى أن يملأ بقدومكم الغيبة...» (67).

وخاطب الأستاذ الشيخ محمد بن يوسف التاهلي المقري من حضرة مراكش قائلا... «الحمد لله تعالى، والصلاة والسلام على سيدنا محمد تتوالى، من المحب المخلص المشتاق، إلى السيد الذي وقع على محبته الاتفاق، وطلعت شموس معارفه في غاية الاشراق، وصار له في ميدان الكمال حسن الاستباق، الصدر الكامل، والعالم العامل، الفقيه الذي تهتدي الفقهاء بعلمه وعمله البليغ الذي تقتدي البلغاء ببراعة قلمه، ناشر ألوية المعارف، ومسدي أنواع العوارف، العلامة إمام العصر، بجميع أدوات الحصر، سيدي أحمد بن محمد المقري قدس الله السلف، كما بارك في الخلف...» (68).

ولنختم هذه المخاطبات برسالتين إحداهما لأديب المغرب، وصاحب القلم الأعلى كما يصفه الشهاب (عبد العزيز الفشتالي) والثانية للمولف نفسه في مخاطبته لأحب أصدقائه : أحمد بن شاهين يقول الفشتالي : «... وأهدي السلام، المزري بمسك الختام، إلى الفقيهين الأمجدين، الصدرين الأنجدين، القدين التوأمين، الفاضلين المجيدين، فارسي البراعة واليراعة، ورئيسي الجماعة في هذه الصناعة، رضيعي لبان الأدب وواسطتي عقده، ومجيلي قدحه المعلي ومورِيي زنده، الممتعين بشميم عراره ورنده،... الكاتب البارع أبي الحسن سيدي علي بن أحمد الشامي، والكاتب البليغ أبي عبد الله سيد محمد بن علي الوجدي...» (69).

ومن مخاطبات المقري قوله لابن شاهين :

«... سيد ي الذي في الأجياد من عوارفه أطواق، وفي البلاد من معارفه ما تشهد به الفطرة السليمة والأذواق، وتشتد إلى مجده المطنب الذي لا يحط له رواق الأشواق، وتعمر بفوائده وفرائده من الآداب الأسواق، وتنقطع دون نداه السحب السواكب، وتقصر عن مداه في السمو الكواكب، والله سبحانه له واق، المولى الذي ألفت إليه البلاغة أفلاذها، واتخذت البراعة طاعته عصمتها وملاذها، إذا بذ أفرادها وأفذاذها، وأمطرت سماء أفكاره، على كل محب أو كاره، طائر في جو أو مستقر في أوكاره، صبيه ورذاذها، وفاخرت دمشق بعلاه وحلاه أقطار البسيطة وبغدادها...» (70).

هكذا نرى إذا ما كان عليه أسلوب القرن الحادي، من افتتان بأوجه البديع، فقد التزموه التزاما لا لتحسين المعنى، وإنما لتحسين اللفظ وتوشيته، فيحس القارئ بذلك التلاعب بالألفاظ أما المعاني فلطيفة سائغة رغم ذلك، إذ تؤخذ برقة الألفاظ، وحسن الموسيقى، ولطف ما فيها من الأساليب البيانية المختلفة الوجوه، ومعنى هذا أن الصناعة اللفظية تغلب عليها، إذ في الأسلوب أفراط في استعمال المجاز على أنواعه.

وأساليب البلاغة على تنوعها، وأعتقد أن نثرهم بالخصوص يميل إلى تكلف السجع والتزيين، وتقليب الجمل على المعنى الواحد، وإقحام الأمثال والأشعار والآيات القرآنية، ولكن على غير إفساد في الذوق، أو إهمال للمعنى.

أما عبارات المقري في النفح فمسجعة في معظم الأحيان وأغلبها، ولكن سجعه يكاد يكون عاديا خاليا من وصمة التكلف، بريئا من التعقيد، وسجعه يرضي الإذن، ويسيغه الذوق، وهو بذلك يدل على غزارة محصوله اللغوي والأدبي والعلميم وسعة إطلاعه على الأدب وما يحويه فيشعر قارئ النفح بتلك العذوبة اللفظية، وذلك الجرس الموسيقي، مما يدلك على براعة فنية، تجد بين ثناياها روحا خفيفة، وفكرا ثاقبا، وأفكارا دقيقة صائبة.

---

66) نفس المصدر ص 481.
67) نفسه ص 479.
68) نفس المصدر ص 470.
69) نفس المصدر م 6 ص 58.
70) نفس المصدر م 2 ص 469.

من أعلام الريف الشرقي في القرن الحادي عشر الهجري

(2)

للأستاذ حسن الفكيكي

عيسى بن محمد الراسي البطوئي

بعودة عيسى بن محمد الراسي إلى منزله ببني سعيد (1)، دخلت حياته في طور جديد، وستستمر هذه المرحلةمم مما تبقى من عمره، إلى ما بعد منتصف القرن الحادي عشر الهجري دون تحديد. وخلال هذه المدة قدم لنا أول إنتاج له في التصوف ورجاله. كخلاصة مركزة للحصيلة العلمية التي جد في طلبها سنوات متوالية.

هذا هو أول ما لمسناه منه أثر أوبته من تلمسان، حينما شرع في التفكير لتدوين مذكراته عن شيوخه وعمن ربطته بهم أواصر الصداقة. فمتى تبلورت هذه الفكرة في ذهن البطوئي وشرع في تنفيذها ؟

إن النتيجة الأولى التي توصلنا إليها من خلال إشارات المؤلف نفسه أن المسألة راودته ما بين 1028 هـ، وهي السنة التي تأكد لدينا فيها استقراره بمنزله تيذي عدنيت، وسنة 1033 هـ وهي السنة التي توفي فيها شيخه علي وارث الغساني، صاحب الفضل عليه في أثارة موضوع تخليد مناقب أهل زمانه.

وحتى إذا سلمنا أن الذي حدث هو مجرد عقد النية على خوض ميدان الكتابة، فأننا نرى خلال هذه المدة الزمنية بالذات، أن الراسي كان فعلا قد كاتب محمدا الصغير بن محمد بن مريم، يرجو منه إمداده بنبذة عن حياة ومناقب والده المتوفى، ومن الرسالة الجوابية نتقدم خطوة لنستنتج أمرين اثنين : (2)

- إن الشروع في تنفيذ خطة التأليف سابق لسنة 1039 هـ، وهي سنة وفاة أحمد بن إبراهيم الراسي، أحد شيوخ عيسى البطوئي، الذي كان حيا حينما أجاب محمد الصغير صديقه.

- إن عزمه كان قد تأكد بالفعل لتقديم تراجم أهل الفضل والصلاح، ويمكن أن نذهب بعيدا لمساندة هذا الرأي إذا نحن تفقدنا المكانة التي احتلتها تلك التراجم على صفحات المجلد الثاني، وحينما نجد أنها مسجلة في الباب

السابع، نفهم من ذلك أنها تشكل آخر ما سطر قلم المؤلف، على الرغم من أننا نعلم أنها كانت أول موضوع فكر في كتابته.

والإشارة الوحيدة التي يصرح فيها البطوئي، وتدل على أن التأليف كان قد قطع شوطا هاما، هي التي يعبر عنها بنصه، وهو يحكي لنا تبركه برؤية النبي ﷺ في منامه :

«من الله علينا برؤيته ﷺ بعد أن شرعت في هذا التأليف، وكنت أكتب في أوصافه ﷺ، وأنا إذ ذاك بالمغرب بالزاوية المباركة أولاد إزم من جبل صنهاجة» (3).

وقد أدرجت تلك الأوصاف في الفصل الثاني من الباب الرابع من الكتاب (4)، وما يعترض سبيلنا لتقريب تاريخ التأليف إلى الاذهان، هو جهلنا التام بتاريخ تلك السفرة التي قصد من ورائها الحصول على مزيد من المراجع. ولا يسعنا سوى أن نرجح أن الكتابة كانت قد عرفت بدايتها منذ مستهد الثلاثينات من القرن الحادي عشر على أكثر تقدير، بعد أن اثمرت الفكرة في ذهن صاحبها خلال السنوات الأولى التالية لاستقراره النهائي ببطوية.

ومن المؤكد أن الكتابة استمرت فترة لا يستهان بها، وامتدت حتى ما بعد 1040 هـ، نعلم هذا حينما نقل إلينا تاريخ وفاة عمه يحيى الراسي، وكان المؤلف يقدر آنذاك ضخامة المشروع، وهو يجتاز ما بعد الخمسين من عمره، ويتحسر على قلة ما تبقى منه، وعلى وهن عظمه، ليبرر عدم الاكثار من سرد المزيد من مناقب جميع من يستحق الذكر من معارفه على صفحات الكتاب.

يتبين من تفحص قائمة الموضوعات المدرجة في المجلدين أنها خضعت لنوع من التعديدات في تصنيفها ولعدد من الإضافات في مادتها، وجاءت متأخرة عن الفكرة الرئيسية التي يمثلها عنوان المؤلف **«مطلب الفوز والفلاح في آداب طريق أهل الفضل والصلاح»** (5)، وعلى الرغم من تأخير التفكير فيها، فأن تسجيلها استغرق المجلد الأول بدمته وشغل الصدر الأول من الذي يليه، وهذا يمثل خمسة أبواب.

ويفسر لنا عيسى البطوئي الدافع الذي ألجأه إلى إدخال هذا التعديل في فاتحة كتابه : «فلما رأيت شعائر الإسلام قد كثرت وهممنا عن المعالي قد قصرت والنفوس بدخان الهوى وظلام الجهل قد غمرت، فكرت فيما كلفت به فقط من تخليص نفسي وأنفع عمل أتزوده... فتاقت نفسي أن أضع تقييدا واضح المسالك، يجمع ما لابد منه من الديانات والآداب مما يحتاج إليه المريد السالك، يكون تذكرة لنا ولمن احتاج إليه».

من خلال هذا تتجلى الغاية التي توخى من ورائها تقديم عدد من أصول الديانة الإسلامية، وما من شأنه أن يساهم في توعية بني قبيلته، قبل الشروع في استعراض مناقب الصلحاء منهم، لاعتقاده أن الاقتداء بهم وإتباع طريقهم لا يمكن أن يتم إلا على أساس العلم والمعرفة.

والذي يدل على سبق موضوع البابين السادس والسابع المتبقيين من الكتاب إلى ذهن المؤلف، كما يعكسه العنوان الذي اختاره، وحسبما عبر عنه، ما جاء في مقدمة الباب السادس :

«اعلم يا أخي أن هذا الباب عندي أهم أبواب هذا الكتاب كلها، ومن أجله سطرت كلما ذكرت وأذكر وهو السبب في جمعها».

وهاذان البابان هما اللذان نالا اختيارنا لينصب عليهما البحث والدرس. لاعتبار أنهما من إنتاج قريحة المؤلف وتبويبه، ولأن الحديث فيهما موجه، من جهة ثانية، إلى أهل بطوية ومن أجلهم كتبت فصولهما، وأخيرا لأن البابين مصدرنا الوحيد في الميدان الثقافي خلال قرن من الزمن.

يتألف الباب السادس من سبعة فصول وجهت لصالح من أراد بهم البطوئي «أهل الله تعالى»، ويعني بهم الأولياء من شيوخ التربية الصوفية والتعليم. وقصده من عرض مختلف موضوعاته ترغيب المريدين والعابدين والمتعلمين في محبتهم ببيان الطرق والآداب التي يجب أو ينبغي أن تراعي أثناء التعامل مع الطبقة العليا من أهل الفضل والصلاح. وهذا هو المعنى الذي ينطبق عليه عنوان الكتاب. ولم يات البطوئي بالباب السابع والأخير إلا لتقديم نماذج من الجماعة التي عد أفرادها من الصالحين.

بدأنا نلمس من خلال ما سبق، أن هناك سببين رئيسيين شكل كل واحد منهما الدافع القوي لاقتحام عيسى

البطوئي ميدان التأليف. ويمكن أن نطرح أولهما بالإشارة إلى السبب الدفين الذي نقله من مرحلة التحصيل إلى طور الإنتاج.

لقد كان البطوئي فقيها متمكنا من مادته، حملته اتصالاته المتعددة ببلدته وخارجها واحتكاكاته بعلماء عصره، أن يصبح شديد الإعجاب بشيوخه وبمن عاصرهم من الصلحاء، إعجابا فرض عليه الإيمان بمقامهم العلمي. لذلك جاء البابان السادس والسابع تعبيرا صادقا على الوفاء لأولئك والإشادة بفضائلهم. فمن أجلهم كتب كل ما جاء به في الأبواب السابقة وما سيبسطه في البابين الأخيرين.

ويدل على هذا الإعجاب قوله فيهم : فيا ليتنا أعددنا للآخرة كما أعدوا وشمرنا كما شمروا وأوجدوا... ولعل بقدرهم عند الله وبركة حبهم نطمع فيما تسوقه الأقدار...». وما أنشده من قوله :

أحب الصالحين ولست منهم
أرجو أن أنال بهم شفاعة (6)

وبناء على هذا لم يكن السبب المباشر الذي عرضه علينا البطوئي سوى الحافز الذي أثار تلك الرغبة من مرقدها وقوى حماس المؤلف لتحريك رغبته الكامنة : فهو يصرح «والسبب في ذلك أن بعض الإخوان (7) الموصوفين بالدين والإحسان، سأل مني أن أجمع من مناقب أهل زماننا مما أنمي إليه علمنا... ولما كان الراغب في تأليف هذه الأبواب من الخلصاء الأولياء الأحباب، مائلا بطريقه إلى طريق الآخرة، لم أجد عن إسعافه حولا، فقلت أهلا وسهلا لمن رآني لذلك أهلا، فبادرت إلى ذلك» (8).

لهذين السببين ظهر مطلب الفوز والفلاح، وهو أول إنتاج بتصريحه هو ولا نعلم ما إذا كان الأخير، وإن كنا نميل إلى ذلك، فمن هم أهل الفضل والصلاح في نظر عيسى البطوئي ؟

سنلتمس الجواب عن السؤال في إيجاد خط التوافق والتكامل بين ما سجله البطوئي في مقدمة الباب السادس عن أهل الله تعالى، وما افتتح به الباب السابع حينما رام التحدث عمن لقيهم من أهل زمانه. وتظهر المقاييس التي اعتمدها لاختيار الفضلاء الصالحين حظ ذلك التوافق :

1) كل من شهد له ظاهر الشرع بالتفضيل وظهرت عليه عناية الجليل، بما خصه الله من غزير علمه وحسن أخلاقه وعظيم فضائله.

2) كل من دلت عليه طريقته وآدابه وكراماته (9) المأثورة وأحواله المشهورة.

3) أخضع البطوئي اختياره للتحدي. فلم يقبل من أفعالهم وأحوالهم إلا ما نقله عنهم الثبات، وما وقع موقع العيان وشهد به الكافة من الناس والأعيان.

وستتضح هذه المقاييس بصورة أكثر وضوحا من الأوصاف التي أظفاها البطوئي على مترجميه الذين بلغ عددهم واحدا وعشرين صالحا. وبالرغم من تحدثه عن الكرامات وإيمانه بها، إلا أنه لم يشر بها لواحد من شخصياته، وقد اكتفى ببيان مكانتهم العلمية ومنزلتهم في إطار الزهد والتعبد، بعيدا كل البعد عن المغالاة والمبالغات في الأوصاف والأفعال.

وحدد لنا البطوئي نطاق التراجم بالاقتصار عن أهل زمانه، ولم يخل بتلك الحدود حينما أدمج الحاج يحيى الورداني وأحمد المديني البطوئي، وهم من أحياء النصف الأول من القرن العاشر الهجري، إذا جاء ذكرهم عرضا في ترجمة علي وارث الغساني.

وضيق ذلك النطاق أيضا بالاكتفاء في الحديث عمن لقيهم ممن درس عليهم ورافقهم طيلة مدة دراسته، سواء كانوا ممن تعرف عليهم أثناء تكوينه الأولي ببلدته أو أثناء رحلته إلى فاس وتلمسان أو ممن وجدهم إحياء بعد أو بته الأخيرة إلى منزله.

والملاحظ أن التراجم موجزة جدا، ولا يمكن أن نعد منها في مستوى ما نعرفه في كتب التراجم (10)، سوى تسع منها، أما باقيها فأما أنه قصير، وهذه تعد ثلاثة فقط، أو مجرد استعراض لأسماء الأشخاص مكتفيا بتقديم تعبير «ومن أتراب هؤلاء».

وكانت في ذهن البطوئي قائمة أخرى من الصلحاء تخلى عن ذكرها. وكان عليه أن يعتذر تلافيا لكل تأويل سقيم :

«ولم نعرض عن غيرهم لقلتهم لا استنقاصا لمرتبتهم... لو كنا تتبعنا من اتصلت قراءته بهؤلاء السادات لخرجنا عن

مقصود الاختصار ولتهنا في بحار الملل والاكثار، لأن استقصاءهم يحتاج إلى ديوان والعمر قصير فإن».

يتبع

---

1) هذا الموضوع الذي نعرضه على صفحات «دعوة الحق» استمرار لما نشر في العدد السابق بعنوان : من أعلام الريف الشرقي، عيسى بن محمد الراسي البطولي.
2) نص الرسالة نشر في العدد السابق من هذه المجلة.
3) أكد هنا أن جميع النصوص الواردة في المقالة، مأخوذة من البابين السادس والسابع، وسنكتفي بالإشارة إلى الباب الذي اقتبست منه، إذ صفحات المجلدين غير مرقمة. وهذا النص المعروض الآن مأخوذ من الباب السابع.
4) الباب بعنوان : فيما يجب للنبي على أمته، والفصل المذكور أعلاه يتناول أوصافه وأحواله ﷺ.
5) كان أول من نبهني إلى وجود هذا المخطوط هو الأستاذ إبراهيم الكتاني حينما دلني على النسخة الكائنة بالخزانة الحسنية تحت رقم 1667، مشكورا. ثم وقفت بعد ذلك على نسخة أخرى مبتورة الأول والآخر وهي بالخزانة العامة، قسم الوثائق بالرباط تحت رقم 2،613 د.
6) الباب السادس.
7) الإشارة إلى علي وراث الفاسي ابن عمة المؤلف بصريح العبارة التي جاءت في ترجمته. «وهو الذي أشار علي بجمع مناقب من أدركنا من أهل الخير في بلادنا، وذلك السبب في جمع ذلك التأليف» الباب السابع، الفصل التاسع.
8) الباب السادس : الفصل الأول.
9) الكرامات ما يظهر على يد الصالحين من الخوارق وهي دون المعجزات التي هي خاصة بالأنبياء.
10) لنأخذ مثلا ـ المتشوف للتادلي، والمقصد الشريف للبادسي.



لمحات من الحضارة الإسلامية :

الحياة الاجتماعية

للدكتور محمد الكتاني

1) المرأة : لقد أعطى الإسلام المرأة جميع الحقوق، وأبطل التقييد المفروض عليها من طرف العرب في الجاهلية، إذ اعتبرها إنسانا كاملا لها وزنها وقيمتها، تمارس النشاط السياسي والاجتماعي على مختلف المستويات، ولها حق الملك والتصرف والوصية والإرث وغير ذلك، قال تعالى : **﴿ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا﴾. ﴿للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله﴾**. إلى غير ذلك من الآيات التي دافعت عن المرأة حيف الظالمين، وذادت عنها بغي الباغين، وضربت على أيدي المعتدين الضالين، في صحيح (البخاري) : أن أسماء بنت يزيد الأنصارية، أتت النبي ﷺ وهو بين أصحابه فقالت : بأبي أنت وأمي يا رسول الله. أنا موفدة النساء إليك، أن الله عز وجل بعثك إلى الرجال والنساء كافة، فآمنا بك وبأهلك. أنا معشر النساء محصورات مقصورات. قواعد بيوتكم وحاملات أولادكم. وأنكم معشر الرجال فضلتم علينا بالجمع والجماعات، وعيادة المريض. وشهود الجنائز. والحج بعد الحج. وأفضل من ذلك : الجهاد في سبيل الله عز وجل. وأن أحدكم إذا أخرج حاجا أو معتمرا أو مجاهدا حفظنا لكم أموالكم وغزلنا لكم أثوابكم. وربينا لكم أولادكم. أفنشارككم في هذا الأجر والخير ؟

فالتفت النبي ﷺ إلى أصحابه بوجهه كله ثم قال: هل سمعتم مسألة امرأة قط أحسن من مسألتها في أمر دينها ؟ فقالوا : يا رسول الله ما ظننا أن امرأة تهتدي إلى مثل هذا، فالتفت ﷺ إليها وقال :

افهمي أيتها المرأة وأعلمي من خلفك من النساء أن حسن تبعل المرأة لزوجها وطلبها مرضاته واتباعها موافقته يعدل ذلك كله.

وكانت حياته ﷺ في بيته وفي معاملته المرأة في المجتمع تطبيقا عمليا لوصايا الإسلام، فأعلن عن قدرها في مناسبات كثيرة، وبلغ من بره بها وحدبه عليها بأنه كان يقول : خيركم خيركم لأهله. وأنا خيركم لأهلي.

2) الزواج : أبطل الإسلام أنظمة الزواج الفاسدة التي منها : زواج البدل وهو أن يستبدل كل من الزوجين حليلته بحليلة الآخر. وزواج الرهط وهو أن يتزوج رجال عديدون امرأة واحدة. وزواج الاستبضاع وهو أن يدفع الرجل زوجه إلى حكيم أو عظيم ليستولدها رغبة في نجابة الولد، وتحسين النسل. وزواج المتعة وهو عقد شخصي بين

رجل وامرأة غير بكر لمدة معينة، على مبلغ معين، وينتهي هذا الزواج بانتهاء المدة المتفق عليها.

جاء في حديث (عائشة) رضى الله عنها : أن النكاح كان أربعة أنحاء : فنكاح منها نكاح الناس اليوم، يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو بنته فيصدقها ثم ينكحها. والنكاح الآخر كان الرجل يقول لامرأته إذ اطهرت من طمثها : أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه، ويعتزلها زوجها إذا أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع، ونكاح آخر : يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها فإذا حملت ووضعت ومر عليها ليال بعد أن تضع حملها، أرسلت إليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها تقول لهم : قد عرفتم الذي كان من أمركم وقد ولدت، فهو ابنك يا فلان (تسمى من أحبت باسمه) فيلحق به ولدها ولا يستطيع أن يمتنع به الرجل. والنكاح الرابع : يجتمع الناس الكثيرون فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها (وهن البغايا) كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علما، فمن أرادهن دخل عليهن، فإذا احملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها ودعوا لهم (القافة) ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون، فالتاطه ودعى ابنه لا يمتنع من ذلك) والقافة : جمع قائف، والقيافة تتعلق بمعرفة اتجاه السائرين والهاربين من تتبع آثارهم يميزون بعض آثار الأقدام من بعض، ولو تزاحمت وتراكمت، ويعرفون الأشخاص بآثارهم.

ولكن الإسلام جعل الزواج علاقة سامية بين الرجل والمرأة، ورباطا مقدسا وصلة وثيقة تتحد بها نفسان وتتصل أسرتان (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن).

ويجب أن يحسن الرجل إلى امرأته في المعاشرة، بأن تكون مصاحبته ومخالطته لها بالمعروف الذي تعرفه ويألفه طبعها، ولا يستنكر شرعا ولا عرفا ولا مروءة، فالتضييق في النفقة والإيذاء بالقول أو الفعل، وكثرة عبوس الوجه وتقطيبه عند اللقاء، كل ذلك ينافي العشرة بالمعروف، قال تعالى : ﴿**وعاشروهن بالمعروف. فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا**﴾.

وفي (المعاشرة) معنى المشاركة والمساواة، أي عاشروهن بالمعروف وليعاشرنكم كذلك، روى عن بعض السلف أنه يدخل في ذلك أن يتزين الرجل للمرأة بما يليق به من الزينة لأنها تتزين له، قالت عائشة رضي الله عنها : سمعت أصوات أناس من الحبشة وغيرهم وهم يلعبون في يوم (عاشوراء) فقال رسول الله ﷺ : أتحبين أن ترى لعبهم ؟ قلت : نعم. فوضع كفه على الباب ومديده ووضعت ذقني على يده وجعلوا يلعبون وانظر، وجعل رسول الله ﷺ يقول : حسبك، وأقول : اسكت. اسكت. مرتين أو ثلاثا. ثم قال يا عائشة : حسبك. فقلت : نعم. فأشار إليهم فانصرفوا).

3 ـ التكافؤ في الزواج : ذكرنا فيما سبق نكاح الاستبضاع الذي شرحته (عائشة) في قولها : (كان الرجل يقول لامرأته إذا اطهرت من طمثها) ولعل العرب كانوا يقصدون بذلك أن يرث الولد خصائص الرجل العظيم الذي جاء من مائه (يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد). وكانوا يلتجئون إلى الخبراء منهم في شؤون الوراثة، أحيانا لتحقيق نسب الولد في الحالات التي لا يكون ثم دلالة ظاهرة على نسبه، أو في حالات الشك في نسبه (كان يجتمع الناس الكثيرون فيدخلون على المرأة...) ومن العرب من كانوا يقولون بفداحة الزواج بالأقارب بما أرشدتهم به خبرتهم في شؤون الوراثة قال الشاعر :

تجاوزت بنت العم وهي حبيبة
مخافة أن يضوى علي سليلي

يقال : ضوى بكسر الواو. يضوى بالفتح : إذا داق عظمه خلقة أو هزالا، ومنه قوله ﷺ : اغتربوا لا تضووا. أي تزوجوا بغير قريباتكم لأن زواجكم بالقريبات يضوى نسلكم أي يضعفه ويجعله هزيلا، وكان ﷺ يطمئن إلى آراء الخبراء في الوراثة : ففي صحيح البخاري : حدثنا يحيى. حدثنا عبد الرازق. حدثنا ابن جريج قال : أخبرني ابن شهاب عن عروة عن عائشة أن رسول الله ﷺ دخل عليها مسرورا تبرق أسارير وجهه فقال : ألم تسمعي ما قاله (المدلجي) لزيد وأسامة، ورأى أقدامهما ؟ أن بعض هذه الأقدام من بعض. وكان ﷺ يعلم ما للوراثة من أثر، فقد

أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة : أن رجلا أتى النبي ﷺ فقال يا رسول الله : ولد لي غلام أسود. فقال : هل لك من إبل ؟ قال : نعم. قال : ما ألوانها ؟ قال : حمر. قال : هل فيها من أورق ؟ قال : نعم. قال : فأني ذلك ؟ قال : لعله نزعه عرق، قال : فلعل ابنك هذا نزعه عرق).

وأمام أخطار الوراثة عمدت بعض الدول إلى تعقيم غير الصالحين للانجاب، وتشجيع الصالحين بمكافآت مادية أو اعفائهم من بعض الضرائب كما عمدت إلى تحديد سن الزواج، أما موقف الإسلام فيكمن في قوله ﷺ : (تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس) فلا يجوز لمسلم أن يتهور في الزواج، بل عليه أن يتثبت بسلامة المرأة، وتتثبت هي من سلامة الرجل حتى لا تقع جناية على العقب، والمرضى وذوو العاهات لا يستطيعون أن يمارسوا ما يدعم الرسالة الإسلامية، وقد قال : ﷺ : (المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف). وجاء في إحكام الأحكام لابن عاصم الأندلسي :

من الجنـــون والجـــذام والبرص
والـــداء في الفرج الخيـــار يقتنص

ويندرج تحت العلل المذكورة كل الأمراض المعدية كالسل والزهري وما إلى ذلك.

هذا بالنسبة إلى الكفاءة في العيوب، وأما إلى الكفاءة في الدين والنسب والصنعة والحرية، فمالك بن أنس وسفيان الثوري يريان أن الكفاءة المعتبرة هي الكفاءة في الدين، بدليل ما رواه أبو داود من حديث أبي هريرة أن أبا هند حجم النبي ﷺ في (اليافوخ) فقال النبي : يا بني بياضة أنكحوا أبا هند وانكحوا إليه (وكان حجاما) وما رواه البخاري ومسلم من أن (المقداد) بن الأسود تزوج ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب، والمقداد ليس قرشيا، وضباعة قرشية، ويرى الإمام أحمد أن الكفاءة تعتبر في الدين والصناعة لأن من يتعاطى صناعة خسيسة لا يكون كفؤا لبنت من يتعاطى صناعة أرفع منها، وأبو حنيفة يرى أن الكفاءة تعتبر في الدين والنسب والمال، وأما الشافعي فيرى أنها في الدين والنسب والصنعة والحرية والخلو من العيوب، وزاد بعض الشافعية (اليسار) و(مماثلة الزوجين في السن) أو تقاربهما.

4) الطلاق : كان في الجاهلية من أبسط ما يمارسه الجاهلي في حياته (الطلاق) وكانت كلمة الطلاق تعني أحقية الرجل في ممارسته متى شاء من غير سبب موجب لذلك، وكانت المرأة أحيانا وخاصة لدى اليسار تشترط أن يكون حق الطلاق لها متى شاءت.

وجاء الإسلام فاعتبر الطلاق بغيضا لقوله ﷺ : (أبغض الحلال إلى الله الطلاق) ورغم إباحته فإنه وضع في طريقه عراقيل ربما يتعذر معها الطلاق، إذ هو يكبد الرجل نفقات مالية : واجب العدة، وحلول مؤجل الصداق، وصداق زوج أخرى، وإلى جانب ذلك فراق الأولاد، وقلق البال عليهم، وما هو مصيرهم ؟

ثم ان الطلاق على ثلاث مراتب : الطلقة الأولى. والطلقة الثانية. والطلقة الثالثة، وقبل المصادقة على الطلاق لابد من وسائل يتقى بها شره، فإذا ما شذ خلق الزوج كان على الرجل أن يعظها ثم يلجأ إلى هجرها في المضاجع، ثم إذا تمادت عمد إلى ضربها ضربا غير مبرح، ثم يعمد إلى لجنة تحكيمية تتركب من الطرفين، فإذا ما فشلت هذه المحاولات كلها وأمر الحكمان بالطلاق، كان الطلاق. قال تعالى : ﴿**والّلاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن. فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا. إن الله كان عليا كبيرا. وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله حكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما. إن الله كان عليما خبيرا**﴾.

والتعبير (تخافون) يومئ بأن مثل النشوز لاينبغي أن يقع، لأنه خروج عن الأصل الذي يقوم به نظام الفطرة وتطيب به المعاشرة، ففي التعبير دلالة على مكانة المرأة

وما هو الأولى في شأنها، وإلى ما يجب على الرجل من السياسة لها، وحسن التلطف في معاملتها حتى إذا آنس منها ما يخشى أن يؤول إلى الترفع وعدم القيام بحقوق الزوجية فعليه أن يبدأ بالوعظ المناسب لها، فإذا ما فشل فعليه أن يهجرها فإذا أخفق فعليه أن يضربها ضربا خفيفا لقوله ﷺ : أما يستحي أحدكم أن يضرب امرأته كما يضرب العبد، يضربها أول النهار ثم يجامعها آخره ؟

وفي الآية تلميح إلى تدخل الحكام في تنظيم الطلاق حتى لا يكون فوضى ومحلا لسوء الاستعمال والأخطاء والأذى.

«يتبع»

الرباط : أحمد الكتاني

وهنئ أمير المومنين بفوزه

للشاعر محمد عبد الرحمن الدرجاوي

أرى وطني أرض العروبـــة كلهـــا
هي الأم لي من بعــــد أمي والأب

ويظلمني فيهـــا الشقيـق ومــا درى
إذ لـج في تسآلـه : أين تـذهب ؟

وأين جـواز السفر ؟ إنـــك ملـزم
بــــه، وإذا أودى فسيرك يقلب

ومـا أن بـالبـاغي (بتزنيت) موضعـا
سـوى مكـة أو أختهـا تلـك (يثرب)

عرفت بهـا قـومـا تقـادم مجـدهم
وأثلـه (مـــازيـغ) فيهم و (يعرب)

عرفتهم أهـلا وقـد كنت نـائيـا
وأهـلا كرامـــا حين ادنـو واقرب

ومـا كنت يـومـا من غـزيـة انهـا
إذا مـا غـوت، إني لرشـدي أطلب

□ ● □

وقـوم تعـدوا في الـوقـاحـة حـدهـا
ولم يعلـوا أن الـوقـاحــة تنكب

أرادوا من التقسيم مـا ليس جـائـزا
ومــا كل مـا يـاتي بـه الفكر يطلب

«أمرتهم أمري بمنعرج اللـــــــوى»
وإني بصير بـــــالأمــــور مجرب

وأدرى من الـــدولات مــاهـو ممكن
ومــا هـو عمـــا يستحيل مسبب

فكانـوا كمن تشـوى على النـار أذنـه
فليس يبـــالي إذ تقـول وتخطب

ولـوا كأن لم يسمعـوا وتشـــاخروا
وحـاصـوا حيصـة الحم تنزو وتهرب

وجـالـوا وصـالـوا واستطـالـوا وروعـوا
وهـاجـوا وعـاثـوا واستحثـوا وأرهبـوا

ولكنهم آبــوا بـــأكبر خيبـــة
وربـك ذو عـدل لـذلـك خيبـوا

□ ● □

ألا يـا عبـاد اللـه مـا شـأن دولـة
من البـدو في عـد الأصـابـع تحسب

فهـل يقبـل العقـل الحصيف وجودهـا
ومنتجـع التـوحيـد من ذاك أخصب

أم الأمر مقلـوب لبــاطن وجهـــه
يراد بـــه تحت الظـواهر مطلب ؟

□ ● □

أرى عبثـــا جمـــا يرام وإنـــــه، ـ كما قـــد أرى ـ منـــه المجرة أقرب
فـما عبث الأطفـال والشيب شـامـل من المرض السهـل الـــذي يتطبب
فعـــد عن الأطفـــال واترك شؤونهم فمثلـك لا يرضى مـع الطفـل يلعب

□ ● □

وهنئ أمير المـــــومنين بفـــــوزه فللفـــوز في (نيروب) وقـــع محبب
وللفـوز في مسعـاه في كل جـولـة أعـاجيب ترضي من بعيـــد وتعجب
أدام علينـــا اللـــه نعمـة عهـده وأيـــــده بــــالنصر يبني ويرأب
وجـازاه بـالإحســان خير جـزائـه جـــزاء فتى من ربـــــه يتقرب

تزنيت الدرجاوي محمد عبد الرحمان

عفو الخواطر حول «العيون»

للشاعر قدور الورطاسي

مــــد ليلي رواقــــــه فتراءت	بين كثب «العيـون» كـل شجـوني
قلت ـ والليـل ســادر يغمر الكـو	ن، فمـاذا وراء هـذى الحـزون ؟
أي سحر بين التلــــــول تجلى	أي سر ـ في عمقهـا ـ مـدفـون ؟
وإذا الطيف : طيف شعري ينـــادي	في حمــاس مـولـه مجنـون :
يـــا «عيـون» الصحراء أنت عيـون	عشت عبر العصــور غر العيـــون
كم أنرت البيــداء في كـل عهـــد	لـــدعـــاة الإسـلام، يـــا خير دين
كم يمرون بـــالبطـــاح لـو إذا	بسجـــاف الظـلام رغم الكمين
يحملـون الأنـوار نحـو شعـوب	ترجى الأغـواث في كـــل حين
هالها الشرك في الـدغـال فكـانت	ترقب النـور ملء نـور الجفـون
ترقب النـور ان يضيء قلـوبـــا	ظمئت ـ عمرهـــا ـ البرد المعين
أي عيش يلـــذ في حلكـــة الشر	ك برب الأكـوان : نبـع اليقين
إنمــا العيش أن تعيش نفـــوس	بين فيء الإسـلام عـوض المجـون
فـــاستنــــارت دنيــا الظـلام بفكر	مشرق النـور مغصنـــا بـــالفنـون
فتتــالى الـدعـــاة منـك تبـاعــا	ينشرون الإســــلام عبر القرون
إذ تبـــارت بين العيـون هـــداة	في علـــوم البيــــان والتبيين
فبـــدين الإســلام صرت منــــارا	أي حصن قـد صرت بين الحصـون !
و «سماري» تضفى عليـك شعـــاعــا	أي علم ينســـاب غير مظنـــون !
أي تقـوى تعتـز بـــالخلق الصـــا	في فتقصى ـ بـاللـه ـ كـل لعين !
لـــك في كـل واحـــة خير أعـلا	م عظـــام يحمـون كـل عرين !
يبــــذرون العرفـــان بين خيـــام	وقصـــور منثـورة كـــالثمين !

وقصيــدا بين الأصــالــــة ينمــو   ثم يسمـو كـالــدر عــذب الرنين

أين من ذاك «دعبــــل» و«جرير»   و«زهير» من بين تلـــك اللحــون

وغـــوان يلهـــون بـــالشعر سمرا   في قرار مــع العفـــاف ـ مكين

فكـأنْ «سُرَّ مَنْ رَأى» فيـكِ صـارت   تتجلى في عهــدهـــا الميمـــون

أو تحولت مثـل قرطبـة الـولهي بعـ   ـــلم، وشعرهــــا المفتـــون

عشت يـادرة الجنـوب كـذا دهـ   ـرا طــويـلا برغم ريب المنـون

ثم دار الـزمـان حتى تحـولت لــ   ــوضـع مــدنس ملعــون

يتقـاضى الصليب منــك ديـونــا   لم تكن غير دينـــك المكنـــون

فـاجترعت الخطـوب كـاسـا فكـاسـا   في صمـود ـ بين الشقـــاء ـ متين

وحرمت الحيـــاة في ظـل عــدل   وحنــــان، ورحمــــة، وهـــدون

فــاستبيحت لــك المكـــارم قسرا   تحت عضب مهنـــد مسنــــون

وأبى اللـــه أن تعيش طــويـــلا   بين وضــع مـــزعــزع معفـــون

وظـلال القرآن لما تـزل تبـدى لـك النـ   ـــور في الـــدجى المشحـــون

فـــانتضى «مبــدع المسيرة» سيفـــا   صقيـلا مشرعـــا لـــوضـــع مهين

فـاختـذى الـوضـع : وضـع خصم لـدود   بين جحر مثـل المـــذال المـــدين

وإذا الـرايـة التي خـانهـا الحظـــ   ـــظ تسامى عن كـل وضع مشين

تتراءى خفـــاقـــــة تتحــــدى   أي خصم مـــدجـج مــأفـــون

وإذا «بـالخميس» يحمى حمـانـــا   في إبـــاء مظفر، مضمـــون

فـــوراء الجـــدار جيش عتيـــد   في ســلاح منـوع مـوضـــون

ومليــــك مــــدعم بيقين   وابـــاء من السمـــاء مصـــون

ووراء المليـــك شعب عميـــد   بـــدنى العـــز طـول مر القرون

هبلت أم من يريـد بـك السوء وحـــ   ـــصن المليـــك جـــد حصين

شيـــدتــه السمـــاء منــذ عصـور   لاحتضـــان الأمجـــاد في غير لين

أي حيف يـدنـو بحصنـك يـومـا   صمتـــه السمـــاء من دون مين

فلتتيهي على الـزمــان فـإنـا   لـــك عين على جميع «العيـون»

إن تكن أعين العـــــداة علينـــــا   فـــأثير الأمجـــاد جـــد معيـــون
مـــارمتنـــا الخطـوب إلا لأنـــا   مـــاتهيبنـــا قـــط ريب المنـــون
ســـة اللـــه في الحيـــاة : بـلاء   واختبـــــار لأهـــل عين اليقين
مـــا حليف الأخطـــار إلا مجيـــد   وكريم بـــــــالروح غير ضنين
يتبـــارى في حلبـــة المجـــد يسقيـ   ـــها دمـــاء عليهـــا غير حـزين
ويُدِرُّ الأموال في ســاحة النبل سعيـ   ـــــدا ببـــذلـــه الميمـــون
هكـــذا عـــاش في العيـــون قروم   ولحصن العيــــــون غير أمين
أيهـــا الجـــاهلـون بـــالمغرب الأقصـ   ـــى رويـــدا بمجـــدنـــا المكنـــون
إن يكن غركم سماح وعفـــــــو   فَلِـــذِي الحلم غضبـــة المسنـــون
إن للصبر ـ أيهـــا القـــوم ـ حـــدا   فَلِـــذِي الصبر حملـــة «المقـــدوني»
وَلِــــذَا المغربِ المخلـــــد عرش   يتحـــدى القرصـــان غير مـــوهـــون
فـــاحـــذروا ثـــورة من الحسن الثـا   ني أمينـــــا على الحمى المطعـــون
لا تخـــالـــوا الملـــوك تبسم إذ مـــا   بسطت كفهـــــــا لأي ضنين
فـــوراء الستـــار قلت حـــديـــد   واعتـــــــزاز لا يرتضى أي «دون»
حسبـــه أن يثـــور يـــومـــا فيمحى   أي كيـــد كطـــائف ملســـون
يمحق الله كل «عاد» على الأقصى بعـ   ـــرش مظفر مـــــامـــون
فليعش عرشنـــا المجيـــد بملـــك   في أمـــان مبـــارك كـــل حين
وليعش صاحب السمو، وذو العهد مكـ   ـــينـــا مـــدعم التمكين
وليعش صنـــوه الرشيـــد أمينـــا   صـــائب الرأي وافر التـــأمين

الرباط   **قدور الورطاسي**

أم المروءة

للشاعر شهاب جنبكلي

دهرا مـديـدا روعتهـا نـائبـات قـاسيـه
عضت على جرح المصيبـة، واستمرت سـاعيـه
عصفت بهـا أيـدي الطغـاة من الربـوع الفـانيـه
قـدر عـديم اللـون أزرى بـالحقـوق الغـاليـه
وسـلامـة الأرحـام ترخص في جحيم الهـاويـه
وحـلاوة الألحـان كـانت من تراث الحـاديـه
فتفرجت آثـام غـزو للمهـاد السـاجيـه
وتـلاطمت أمـواج بحر الشر عنـد الرابيـه
وانسـابت الآمـال تسقى من دمـاء صـافيـه
بلـد الحبيب أصـابهـا عسف الأيـادي الطـاغيـه
وتحطمت كلمـات حـق في القـلاع الراسيـه
صـوت الشهيـد أصـابـه الإمسـاك عنـد السـاريـه
قمر يغيب ومثلـه الأقمـار تبقى عـاليـه

○ ☆ ○

أم المروءة أفجعتهـا قـاتـلات جـانيـه
قـد أفقـدتهـا زوجـا أضـاء رسـوم دار شـاديـه
قتلـوه غـدرا في اللهيب، فعـاد عينـا هـاديـه
«يـافتيتي..! هبـوا إلى حرب ضروس ضـاريـه»

قـــالت لهم، والنفس تـــأبى أن تكـــون الجـــاثيــــــه :
«صـــدوا عن الأرض العـــزيـــزة نـــار إثم بـــاغيــــه
هبـــوا إلى حرب، واصلـــوهـــا نفـــوســـا حـــاميـــه
إفنـــــوا رديف الشر، إن كنتم جنـــود البـــــاقيـــــه
كـــــانت فلسطين الحبيبـــــه للمراعي ســــاقيـــــه
كـــانت نجـــوم الليـــل تغمـــز طرفهـــا كـــالغـــانيـــه
مهـــد الرســـائـــل أيقظتهـــا في الشـــدائـــد طـــاويـــه
ضـــاعت حقـــوق الخلـــق تحت الـــلامعـــات الغـــازيـــه
يـــافتيتي..! ذي قـــدسنـــا نـــاحت عليهـــا النـــاحيـــة
غـــارت عليهـــا من أقـــاصي الأرض نفس قـــاريـــه
هي تـــــاج كـــل الأنبيـــــاء. فـــأثقلتهـــــا لاهيـــــه
عـــذراء كـــانت لم تصب لـــولا غيـــاب الحـــاميـــه
قـــد مـــزقـــوا أحشـــاءهـــا فتجهمت كـــالـــواهيـــه
واستبـــدلـــوا أفيـــاءهـــا بقيـــود إفـــك غـــاشيـــه
تلـــك الأفـــاعي أنجبت للعـــالمين الســـابيـــه
كـــانت عيـــون الروض تنطـــق بـــالجـــوى من عـــاتيـــه
والقبـــة الشمـــاء أدمتهـــا العيـــون البـــاكيـــه
روحي فـــداهـــا أن أراهـــا في ابتســـام زاهيـــه

○ ☆ ○

آمـــالنـــا أحـــلامنـــا ضـــاعت بركن الـــزاويـــه
والقهر أضحى في يـــدي نـــارا ترد الـــداجيـــه
وخيـــامنـــا تـــذكي الفـــوارس والفهـــود الغـــاديـــه
وضيـــاعنـــا يشتـــد قـــدحـــا في القلـــوب الـــوافيـــه
وارتـــدت الآلام تطفـــح كـــالبحـــار القـــاسيـــه
لهفي عليكم، يـــا أســـود العرب، درعـــا واقيـــه
داري التي أوجـــدتهـــا آلت لأيـــد زاغيـــه
بلـــدي التي أنشـــدتهـــا كلمـــات حب صـــافيـــه
بلـــدي التي أعطيتهـــا حبـــا وروحـــا غـــانيـــه

أغرودة كـــانت تغني للسمـــاء الصـــافيـــه
صـــارت تئن أنين ثكلى إذ دهتهـــا الـــداهيـــه
ســادت عليهـا حفنـة من جـوق تلـك البـاليـه
تحريرنـا جرم، وتشريـد الضحـايـا مـاهي...؟
ذا منطـق الأوبـاش يبـدو في عقـود خـاويـه
وصلابـة الأحرار تسقـط في الـوهـاد الراويـه
قـالت لهم: والفجر يبسم للروابي الـزاهيـه

○☆○

عرب على الأعـداء، نـادوا للحيـاة الساميـه
اللـه أكبر صيحـة كـانت تهـز الضـاحيـه
والمسلمـون من الأقـاصي ينجـدون الغـاليـه
فتعـانقـوا وتـآصروا تحت القبـاب الراسيـه
وتعـامـدوا أن ينصروا دار السـلام الـداميـه
فتكحلت عين الشهيـد بشـدو تلـك الحـاديـه
واللـه يجـزي الفـائـزين، إذ نعتهم نـاعيـه
وترنمت أم المروءة بـالردود الشـافيـه
هتفت هتـاف الثـاكـلات وقـد رمتهـا الـداميـه
هتفت وقـالت بـاعتـداد، تستفـز الـداعيـه
هتفت بحـق الأرض، إذ نـادت عليهـا نـاديـه !
«قمر يغيب ومثلـه الأقمـار تبقى عـاليـه»

شهاب جنبكلي

صحوة... وإشراقة

للشاعر محمد بن محمد العامي

تمهيد :

يقول الله تعالى في كتابه الحكيم : ﴿**والعصر إن الانسان لفي خسر، إلا**

ــ الذين آمنوا

ــ وعملوا الصالحات

ــ وتواصوا بالحق

ــ وتواصوا بالصبر﴾.

فكل شرط من هذه الشروط الأربعة الأساسية للربح والفوز، ثقيل الأعباء والتّبعات، في الاضطلاع بالمسؤوليات، وأداء الأمانات، وتبليغ الرسالات، على جميع المستويات، وفي كل الأوقات، والظروف والملابسات !

فما أهون «الإيمان» إذ كان مجرد رياء وسمعة، وكلام فارغ ! وما أصعب أن يكون الإنسان إنسانا حقيقيا في الظاهر والباطن ! فلابد للمجد من ثمن باهظ على كل حال !

﴿**أفحسبتم أن تدخلوا الجنة، ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم، مستهم البأساء والضراء، وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه : متى نصر الله ؟ ألا إن نصر الله قريب !**﴾

214 من سورة البقرة.

سبيل هدانا في الثبات على الأمر، ... فلم أرى في العقبى أجل من الصبر.

ومهما يطل ليل بهيم، فصبحه ... سيأتي، وبعد العسر نظفر باليسر !

فأيامنا أطوارها قد تعاقبت، ... وفيها صراع الخير دام مع الشر

ومن غفلة لإنستفيق، فهذه ... شدائدنا تذكي المعارك في الصدر

إذا ابتسم الحر الأبي لشدة، ... أتاه انفراج بالمسرة والبشر

ونيران هذا العصر منها تنورت ... بصائرنا طبعا بما نحن لاندري

هو النور في كل الوجود تلألات ... مصابيحه، والدفء في عقله يسري

فلم يجد الإشراك للقلب منفذا، ... وفي جوهر التوحيد منطلق السر !

ففي كل عرق نبضة أحدية، ... ونور لمولانا به دمنا يجري

تحطمت الأصنام، وانهد وهمها،   وقد نبعت أحلى العيون من الصخر !
وأصبحت الأوثان في كل وجهة   حيارى، ودالت بيننا دولة الكفر
إذا فسقت منا الجوارح، فهي من   لقد شاركت عهر الضمائر في السكر
ومن صحوة الإنسان ينبع قدره،   ويزري بأنوار من الشمس والبدر !
ففي الحس والمعنى يقر بوحدة   لرب هو الله المدبر للأمر
فما الحكم إلا حكمة الله تنجلي،   ورحمته البيضاء في السر والجهر :
لقد نكره الخطب المرير وعنده   كواثر فضل جاوزت حلم الفكر
وقد نعشق النعمى فتصبح نقمة   تسير بنا نحو التمزق والكبر
وإن ضاع منا في السلوك حياؤنا،   فقد ضاع منا منبع الفوز والخير
وقد يفتن المال الوفير أسيره،   فيشقى،ويحيا في الهموم،وفي الخسر
إذا اصطنع المرء السعادة فهو من   على نفسه يجني، ويغرق في الوزر
سلام على أهل التواضع، إذ همو   ينامون في أمن، وربح بلا حصر
ومن منع الخير الوفير لأهله،   فعنه قد استغنى الكثير من الغير !
وأرفع قصر في البناء، تودد،   فلم أر كالأخلاق عزا مع الطهر
ولم أر كاللطف الجميل حصانة   لمن ينشد العلياء، والأمن في السير
وفي الموت حقا قد تساوى غنينا   بأفقرنا... هلا نفكر في القبر؟!!
وأفعالنا زاد لنا في لقائنا   مع الله عند البعث والحشر والنشر
إذا ما سعينا في حدود كفاية   ظفرنا بأسباب العفاف، وبالذخر
ألا إن رأس المال صفو سريرة،   وخوف من الله المعمم للستر
ولا خير في بخل، ولا في مدائح   من الناس، إذ هم يدأبون على المكر
ولا خير في كذب، ولا في مظاهر   تخالف ما تخفيه جوهرة القدر
فقسمة ربي في العباد حكمة   فليس لعبد في التعرض من عذر
تعالى إله الحق والعدل والهدى   فتلك الأيادي منه تطفح بالبر
فقد يمنح العاصي، ويمنع طائعا،   ويقضي كما قد شاء، إذ أمره يجري
هو الملك الحنان، جاد بمنه   على خلقه في الجو، والبر والبحر
خبير وديان، قدير مدبر،   تجلى بأنوار الحقيقة في الفجر
ومن كان في كل المواقف مؤمنا   به، أدرك البشرى، وقد فاز بالخير
هو الله فراج الكروب جميعها،   تمجده الأكوان بالحمد والشكر
وعند سجود العبد، يحظى بحبه   لمولاه، والبشرى تحل على الفور
من اعتز بالله، فليس يذله   سواه، وقد نال العلا أبد الدهر !

☆□☆

وأشقى عباد الله أهل تطبع   قد استنكروا بالجهل طبعهم الفطري
فهلا استعادوا للأصول نفوسهم ؟   وهلا أفادوها بإصلاحها الجذري ؟
وهلا أماطوا في الجلاء حجابها،   وصانوا لها التمكين في حبها العذري ؟
فلم أر إكسيرا يداوي جراحها   سوى همة عاشت على نعمة الذكر
فما أحسن الأفكار يلهمها الذي   هو الله علام السرائر في الصدر!!!
إذا كثرت حول المحيط أشعة،   فمركزها التوحيد للاحد الوتر !

☆ □ ☆

تبارك ربي ذو الجلال، فوجهه ... كريم، تجلى في مواهبه الكثر

وسبحان من باللطف كان مهيمنا، ... ففيه أمان المستجير من القهر !

ياسعد من أضحى صبورا على الأذى، ... ومن قد نجا بالصدق من فتنة العصر !

فما نفع الباغين عذر ملفق، ... فربك يدوي وحده صحة العذر

فوا أسفا للناس ! في نزواتهم ... نفاق وتحريف يضاف إلى الغدر !

وفي زمن الزيف الدخيل ورهطه ... يضيع نفوذ الحق في جولة الجور

وما القلب في التقييم غير زجاجة ... إذا انكسرت، هيهات تخضع للجبر !

وإني أرى أسمى العباد من ارتضى ... سلاما، وأفنى في الهدى زهرة العمر

وفي نعمة التوحيد وحدتنا التي ... تناءت عن الشيطان والكيد والخسر

وأعظم نعمى في اتباع محمد، ... فعزتنا قامت بآياته الغر

وفي حرمة القرآن تختال أمة ... على رأسها تاج السيادة والنصر !

هو الروح والريحان في الجنة التي ... تجلى ربيعا فوق أربعها الخضر

كفى بكتاب الله في كل حالة ... شفيعا لنا في الهول، والموقف الوعر !

وقد أصبح الإنسان عبر حياته ... كتابا أراه لا يفيد مع البتر

فإن طاب طابت في الحياة شؤونه، ... وأصبح روضا قد تضوع بالعطر،

فيغدو طليقا إن تقيد بالحجى، ... وهل يستوي العبد الأسير مع الحر ؟!

وصدق الله العظيم إذ يقول :

— ﴿لا أقسم بيوم القيامة، ولا أقسم بالنفس اللوّامة﴾.

— ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم، وأنهم إليه راجعون﴾.

الرباط — **محمد بن محمد العلمي**





للشاعر أحمد تسوكي

عبرت خطاي عليه، تجفل كالغريب التائه
كالخاطر المشبوب، يركض في صدى أصدائه
كالهاجس المصدور، ينضح بالأسى من دائه
متحيرا كالنجم في أفلاكه وسمائه
ترجرج الذكرى على أكداره وصفائه
ويحوم الماضي على أحزانه وبكائه

☆ ☆ ☆

يانهر، لا تعجل، ففيك طهارتي وبراءتي
أحلامي المتلألآت، ودمعتي وكآبتي
وشبابي المنهوم فيك ولوعتي وصبابتي
وشعوري الظامي، ونشدة خاطري وهناءتي
وربيع عمر حالم متناغم بوداعتي
وغرام قلب باسم وصدى زمان صامت

☆ ☆ ☆

كنت النجي، وكنت إلفي حين تثقلني الهموم
وتهدني الأحزان والأشجان في حلك النجوم
كنت السكينة حين تعروني الكآبة والوجوم
كنت الظلال الوارفات، وفرحة الأم الرؤوم
والفجر، والأنداء، في ليل تلفعه الغيوم
يفتر موجك عن رضى طلق وعن ألق كتوم

☆ ☆ ☆

كنـا نـلاعب مـوجـك الـوسنـان في الشفـق الخلـوب
ونبثـه الشـوق النـدي ولـوعـة الظمـأ اللعـوب
ونشف فيـه كـالمنى، كـالطيف في زهـو الغيـوب
ونشعشـع الأحـلام بـالألحـان والنغم الطروب
ونضـاحـك الأشـذاء والأنسـام في ألـق الغروب
ونعـانـق الأفـق القصي، فـلا نكـل ولا نلـوب

☆ ☆ ☆

يـا أيهـا النهر الصغير ! لكم يعـذبنـا الحنين
ودبيب أشـواق مطيبـة بـأنفـاس السنين
ولكم شكـونـا للحيـاة وهي من مـاء وطين
ونسـائـل الأيـام عن حب وعن سر دفين
وارتـه مـوجتـك الحنـون ودفقـك العبـق الحـزين
أعمـاق مـاض طـافـح بـالـدمـع والألم السجين

☆ ☆ ☆

يـا أيهـا النهر الجميـل ! لم التحسر والنحيب
ولم البكـاء ؟ لم الأسى ؟ في ليلنـا الـداجي الرهيب
في عمرنـا الـذاوي، وفي فجر يكفنـه النعيب
ضـاعت لنـا أحـلامنـا، وخبـا غنـاء العنـدليب
وذوى الشبـاب وزهره، في وحشـة الحقـل الكئيب
لم يبـق إلا الشـوق منـزوفـا على الـوتر الغريب
قـد كنت ألمـح في ضفـافـك وهي من وهـج شـذي
أحـلامي الخضراء، تسبـح في الخيـال العبقري
وتلـون الآفـاق بـالريحـان، والعطر السخي
وترتـل الصلـوات في محراب إحسـاسي البهي
وتعـانـق الفرح الـوليـد وصبحـه الغرد الحيي
آه، لقـد أفلت نجـومي في دجى ليلي الشقي

☆ ☆ ☆

يـــانهر لا تعجــل ولا تنس الأمـــاني المـــائســـه
أودعتهـــا في مـــوجـــك ألحـــاني لحـــونـــا هـــامســـه
رقت ورق لي الهـــوى في أمسيـــاتي النـــاعســـه
مـــاذا تبقى فيـــك منهـــا غير سلـــوى بـــائســـه
وخيـــال طيف مستنيم في الضفـــاف الـــدارســـه
ورســـوم آمـــال تجف، وذكريـــات عـــابســـه

☆ ☆ ☆

مـــاذا تبقى لي ســـوى جرح وحـــزن واكتئـــاب
وســـآمـــة تنـــداح في صـــدري، وأطيـــاف السراب
متضـــاحكـــات، شـــاخصـــات، شـــاردات في الضبـــاب
تعـــدي وترجف في خيـــالي كـــالعنـــاكب والـــذئـــاب
هي بعض أحـــلامي، طـــواهـــا فيـــك طـــوفـــان الشبـــاب
يـــانهر لا تعجـــل، ففي شفتي ســـؤال لا يجـــاب

☆ ☆ ☆

يانهر لا تعجل، ودعني ألثم الموج الطليق
وخريره، والـــزرقـــة الريـــا بـــأنفـــاس الرحيـــق
وسكـــونـــه، وطفـــولـــة الأحـــلام والمـــاضي السحيـــق
دعني أغني، ربمـــــا تستـــــذكر الأمـــل الغريـــق
والـــذكريـــات الحـــانيـــات، ومرتـــع الحب العميـــق
دعني أغني، قبلمـــــا أفنى وتخطفني الطريـــق

☆ ☆ ☆

هـــل تـــذكر القمر الخضيـــل، يرود غـــابـــات المحـــال
هـــل تـــذكر الكروان يشـــدو في السفـــوح وفي التـــلال
هـــل تـــذكر الريـــح النـــديـــة والسنـــابـــل والظـــلال
هـــل تـــذكر المطر الشجي يرش أفنـــان الجبـــال
ومفـــاتن المرج المشعشـــع بـــالبراءة والجمـــال
ورؤى الليـــالي، والسنـــا الـــزاهي، وأعراس الخيـــال

☆ ☆ ☆

قـــد كنت أنهـل من رؤاهـــا الغـــافيـــات الحـــالمـــه
وأعب من أنغـــامهـــا المترقرقـــات الفـــاغمـــه
حتى أذوب وأنتشي من **رشرشـــاتهـــا** البـــاسمـــه
وأعـــود مخمـــورا بـــأسراري ونفسي الهـــائمـــه
أتشرب الإلهـــام من نعمى **خيـــالاتي** الـــواهمـــه
وأصبـــه في روحي الظمـــأى ودنيـــاي الســـاهمـــه
يـــانهر لملم نـــــاظري وضمني في مـــوجتين
أنـــا ظـــامئ متغرب، أخشى ضيـــاعي مرتين
وأخـــاف تحرقني السنـــون وألتظي من جمرتين
قف وانتظر يـــاســـاخرا حتى أرجـــع كلمتين
أواه من ذكرى ومن شكـــوى بـــلا أرجـــوحتين
بيني وبينـــك - لـو تبـوح - مـواجـــد في الضفتين

☆ ☆ ☆

هـــا قـــد رجعت من السفـــار المر، للفيض النقي
للصمت، تنثره الرؤى **في وجـــودي** المرهـــق
هـــاقـــد رجعت إليـــك يـــانبع الشبـــاب المـونـق
هـــاقـــد رجعت، تهيجني ذكرى صبـــاي المشرق
وتلفني أشبـــاح عربيـــد ينقر مفرقي
وأســـائـل الأيـــام : أين مراحنـــا ؟ مـــاذا بقي ؟

☆ ☆ ☆

يـــانهر، قـــد قلقت أحـــاسيـــي وفـــاض تـــوجـــدي
خلت الـــدروب وأدلجت، وألم ليـــل سرمـــدي
مـــاذا تبقى في دمي ؟ مـــاذا تبقى في غـــدي ؟
إلا بقـــايـــا ثـــورتي وتشردي وتمردي
الأمس قـــد ولى، وفي الغـــد ينطـوي مني غـــدي
يـــاليتني لم أولـــد، يـــاليتني لم أهتـــد

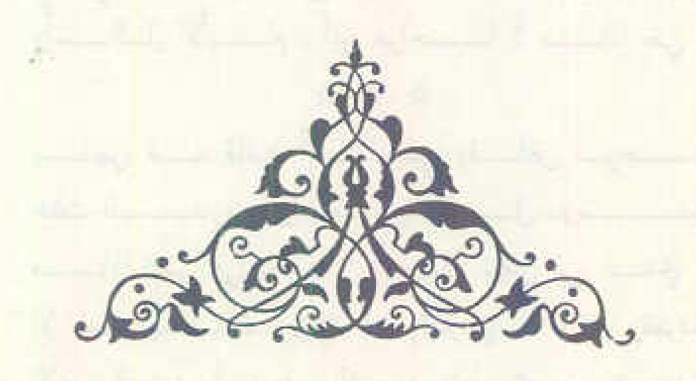
☆ ☆ ☆

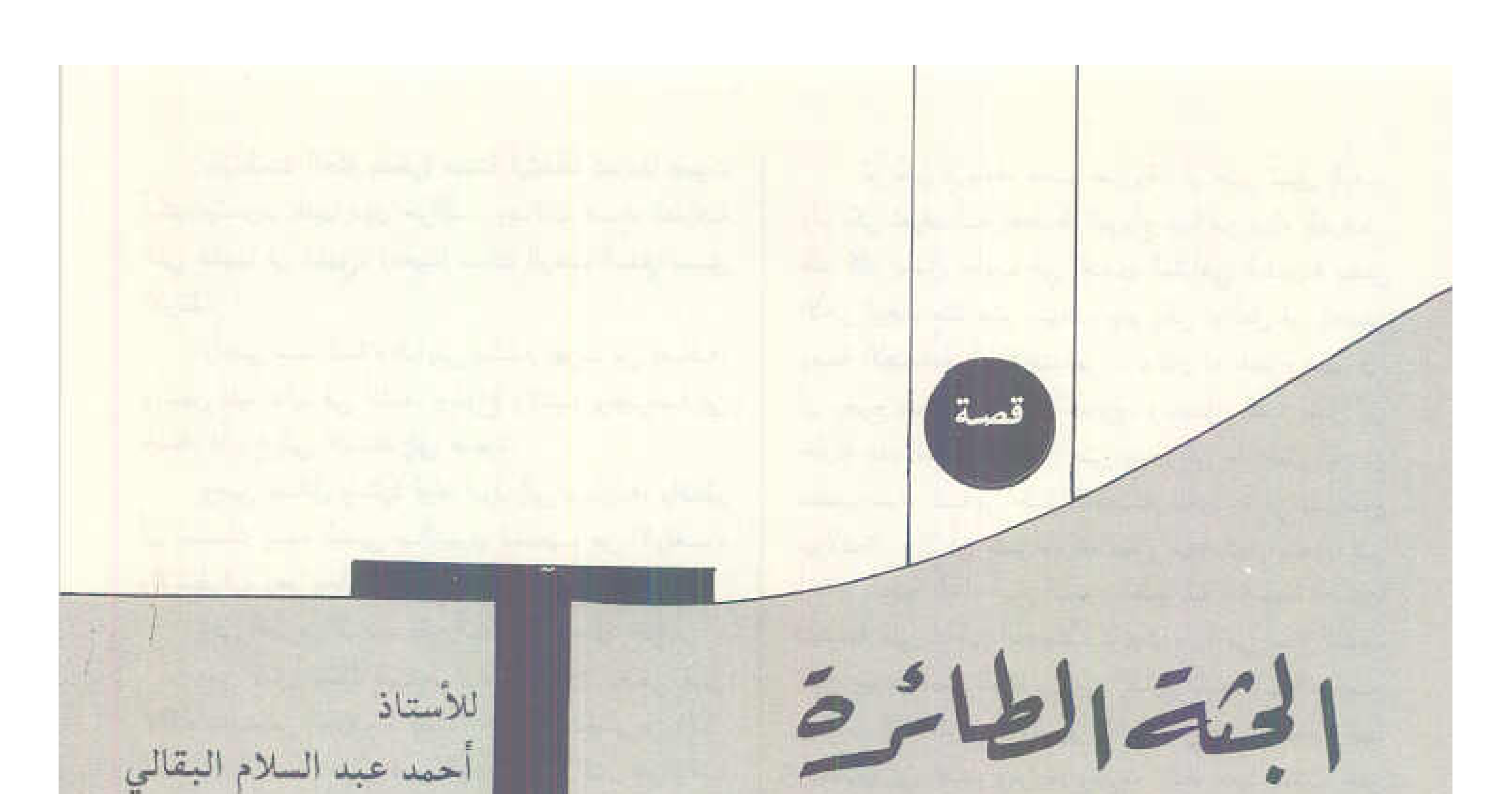
يـــانهر، مر أمــواجــك المترجرجــات العـــاتيـــات
أن ينتظرن هنـــا..! وأن يطــوين عني الــذكريــات
في الـلا نهـايــة، في الخلود، وفي العصـور الـلاهثـات
مرهـــا تـــدمر، تنــدفـق، وتلـج في جـوف الحيـــاة
أنـا من انـا ؟... روح معـذبـة... شتــات في شتــات
حس عليــــل، أبلـــــه... محض انفعــــالات وذات

☆ ☆ ☆

عبرت خطـــاي عليـــه، ليت خطـــاي لم تعبر عليـــه
أنـــا هـــو، وهـــو أنـــا، كـــلانـــا قـــائم في ضفتيـــه
قـــد كنت أحسب أنني أشكـــو جراحـــاتي إليـــه
فـــإذا بـــه متظلمـــا يفضي إليَّ بمـــا لـــديـــه
ويمـــد لي في لهفـــة ورضى وتحنـــان يـــديـــه
لملمت شكـــواه، ونمت على مـــواجـــع عبرتيـــه

الرباط **أحمد تسوكي**





﴿فسيكفيكم الله، وهو السميع العليم﴾.

صدق الله العظيم

لم ير عبد السلام الرايس الشخص الكامن له بين صخرتين يخفي رأسه في جورب نفسوي شفاف.

كان قد أوقف سيارته الفولفو الجديدة على جانب الطريق المهمل المهجور، وصعد الربوة لينظر من فوق حافة الجرف الشاهق إلى أمواج المحيط في صراعها الأبدي مع الصخور.

منذ صباه الباكر، كان يفتنه مشهد الانحدار الرأسي النازل عشرات الأمتار كجدار قلعة قديمة تنخره التخوم، والمغاور، والكهوف، وتنبت في شقوقه أجام القصب والعليق، وتعشش فيه الطيور.

كأن مصدر افتتانه وعورة الجدار الشاهق، واستحالة الوصول إليه بالوسائل العادية لاكتشاف مابه من أسرار أو كنوز... وكان أول ما يقفز إلى ذهنه، وهو يتفرج على الصخور السوداء البعيدة تحته، مشاهد خاطفة للموت السريع العنيف لمن يلقى بنفسه من هناك، تسبقها سباحة حرة في الفضاء.

مسح بعينيه الجانب الشمالي للخليج شبه الدائري الذي يقع عليه الجرف فرأى نوافذ سيارة تلمع، وحولها طفلان يلعبان، وفيما عداهما كان المكان خاليا مقفرا كعهده به دائما.

والتفت يسارا فرأى قطعة ورق من مصحف فانحنى لالتقاطها بغريزة غرسها فيه والداه منذ صباه. وأثناء انحنائه، أحس بمرور ظل كبير وسريع خلفه كظل طائر عملاق، وسمع حفيف ملابس، ووقع أقدام راكضة أعقبته صرخة رعب مروية في فضاء الجرف الواسع تردد أصداءها الكهوف والمغاور والشقوق.

واستوى بسرعة لينظر إلى مصدر الصوت، فرأى جثة شخص تسبح في الفضاء نازلة نحو الصخور السوداء وزبد الموج الأبيض.

وفي لحظة ذهول جنوني، ظن أن الساقط هو... وأنه الآن مجرد روح تخلفت لتنظر إلى جسدها هاويا إلى نهايته !

وارتطمت الجثة بصخرة مسننة ارتطاما شديدا بصوت أبكم، وتسمرت عليها دون حراك... وماتت أصداء الصرخة التي ظنها لن تنتهي، ومعها مات الرعب الذي سبق الارتطام !

وأحس عبد السلام الرايس بالدم يهرب من دماغه، وبنبض قلبه عاليا في أذنيه، وبفراغ ركبتيه وعجزهما عن حمله، فأسرع إلى الاستناد إلى صخرة.

وحين تماثل واسترد قواه، نزل إلى سيارته، واضطر أن يمسك يده اليمنى باليسرى ليمنعها من الارتعاد والاضطراب وهو يحاول إدخال مفتاح التشغيل في مكانه.

وفي الطريق انثالت عليه أسئلة لم يجد لها جوابا...

«من كان ذلك المنتحر ؟ وأين كان يختفي قبل الالقاء بنفسه من الجرف ؟ ولماذا اختار الانتحار من ذلك المكان بالذات ؟ وفي نفس الوقت الذي كان هو واقفا هناك ؟! وهل فعلا انتحر بمحض إرادته، أم دفعه شخص آخر لم يره هو ؟».

وخطر بباله سؤال لم يصدقه : «هل فعلا كان يريد الانتحار، أم كان يريد أن يدفع به هو إلى الهاوية ؟!».

وتذكر أن يدي الرجل المنتحر أو القاتل كانتا تسبقانه وهو يسبح في الفضاء كأنما كان يهم بدفع شخص أمامه...

ولكن، من هذا الذي يريد قتله ؟ ولماذا ؟ إنه لا يعرف أحدا يكرهه لدرجة التفكير في قتله...

انتظر قليلا - بل ربما كان هناك شخص يريد زواله... وله من الدوافع ما يكفي للترصد والتربص له في هذه البقعة الموحشة، ودفعه إلى حتفه بطريقة تبدو أقرب إلى انتحار أو حادث !

ذلك الشخص، هو «مرزوق ولد طونا»... وهو شخص معروف بذكائه المحدود، وشراسته الصامتة التي ربما كانت غطاء لطبع إجرامي مكبوت...

أما الدافع، فلابد أن يكون «ربيعة».

ربيعة، بنت خالة مرزوق، فتاة جميلة في السابعة عشرة، كانت والدة مرزوق كلمت اختها في شأن خطبتها لابنها، فوعدتها خيرا، إلا أن شيئا رسميا مثل خطبة، أو عقد قران لم يتم بينهما...

لم تكن «ربيعة» تحب «مرزوقا» أو حتى تميل إليه... ولم تكن تعرف أنه يخطط للزواج بها من وراء ظهرها - فقد كان يعمل خادما في إحدى المقاهي البلدية بنفس الأجر الزهيد منذ عشر سنوات. ولم يكن له أمل في تحسين وضعة الاقتصادي أو الاجتماعي... وكان له طموح مبهم في أن يخرج هو الآخر إلى الخارج، ويعمل، كما عمل ابن حارته عبد السلام الرايس، حتى يصل إلى ما وصل إليه من منصب سام كمدير أحد المطاعم الجيدة في (بوخوم بهولاندة)... إلا أن طموحه الغامض هذا كان يتحول إلى أحلام يقظة أثناء أيام الشتاء الطويلة بالبلدة الصغيرة المنسية على شاطئ المحيط، ليبعث حيا في أيام الصيف حين يعود العمال المحليون من الخارج بالسيارات الضخمة، والآلات الإليكترونية، والجيوب العامرة يبعث طموحه حيا ويتحول إلى حسد، ومرارة، وغيرة، تنشط معها عملية خلق الاشاعات المغرضة حول الناجحين، وتسقط عثراتهم، وتشويه سمعتهم.

وصار هاجس مرزوق، وأمله الوحيد في التقدم الاجتماعي، وكسب احترام الناس، هو الزواج ببنت خالته ربيعة...

أما ربيعة فقد كانت تعيش في إطار فكري غير الذي يضعها فيه مرزوق، كانت قد حصلت على الشهادة الثانوية، وانفتحت الطريق أمامها إلى الجامعة، وإلى المنحة الدراسية، وبالتالي إلى الاستقلال الاقتصادي والاجتماعي...

وحدث مالم يكن في حسبان الاثنين حين دخل عبد السلام الرايس المعادلة، وتقدم لخطبة ربيعة.

كان عبد السلام قد غادر المدينة والبلاد إلى الخارج، وربيعة، بنت دربه، ما تزال في العاشرة، ولكن مخايل الأنوثة، والجمال، وخفة الروح كانت واضحة عليها، تبشر بأنها ستكون في سن نضجها أنثى عظيمة الجاذبية...

غادر عبد السلام البلاد، بعد أن مرض والده، وترك له عائلة من أم وثلاثة أطفال صغار هو أكبرهم... ولا مصدر للرزق. خرجت أمه للعمل في البيوت، وأحس هو بالمسئولية كرجل في السابعة عشرة فترك المدرسة، وخرج يكافح لكسب لقمة العيش العسيرة في تلك البلدة الميتة، وكل عمل كان يحصل عليه في الخرازة أو الدرازة أو البناء

أو الصيد البحري كان يعتبره مؤقتا وأدنى من مستواه... كان يحس أنه مهيأ لعمل غير ذلك، ولمصير أحسن بكثير... كان كتلة طموح لا يمكن كبتها... فما كان ليرضى بالنصيب الذي رضي به الآخرون في هذه البلدة التي قال عنها أحد ظرفائها : «لو جمعت كل ما في جيوب أهلها من مال، لما استطعت دفع ثمن وجبة محترمة واحدة في مدينة كنيويورك أو باريس !» ولم يكن بعيدا جدا عن الحقيقة !

ولم تبق وسيلة للخروج من هذا «الجب» العميق، كما كان يسمي وضعه، إلا جربها... فوجد أن أكبر عائق يحبط طموحه هو عدم توفر جواز سفر عنده ! فللحصول على الجواز، تشترط السلطة أن يكون له عقد عمل بالخارج... وكيف يحصل على عمل في بلد أجنبي من بلدته الميتة ؟ كيف ؟!.

وبقي ثلاث سنوات يكافح من أجل الحصول على الجواز... وكتب عدة رسائل إلى معارفه الذين سبقوه إلى أوروبا من أهل البلدة يسألهم النصيحة، فبخلوا عليه حتى بالجواب...

وفي الحقيقة، كان أغلبهم إما حريصا على التفرد والامتياز بوضعه كعامل بالخارج، أو خائفا أن يكتشف أحد واقعه المزري هناك كعامل فاشل يزاول أحقر المهن التي يترفع عنها أهل البلد، أو يقضي بياض نهاره في مناجم الفحم القاتلة التي يصاب فيها أغلب العمال بمرض «الرئة السوداء»، أو يتسكع عاطلا يبحث عن عمل لا يجده، ويتسول قوت يومه من هنا وهناك، متوقعا أن يقبض عليه رجال الأمن في أية لحظة، ويلقوا به عبر الحدود...

وأخيرا حصل عبد السلام على جواز سفر واستطاع الافلات من الحدود...

وبعد سبع سنوات من الكدح والمغامرة، والتعرض للأخطار، والعمل بدون أوراق رسمية، وبأجر زهيد في المحاجر، والمفاحم، والمناجم، وأوراش البناء في إسبانيا، استطاع التسرب إلى فرنسا، ومنها إلى هولاندا، حيث اشتغل غاسل أطباق مؤقت في المطعم الذي أصبح يديره الآن !

وتعرف على عدد كبير من الفتيات الهولنديات وغيرهن، ولكن تدينه وطبعه المحافظ كانا يمنعانه من الزواج بإحداهن.

وتوفي أبوه وهو هناك، فحضر لدفنه... وأثناء تلك المدة رأى «ربيعة» وهي في الرابعة عشرة، فدخلت قلبه، وألهبت خياله بأنوثتها المبكرة، وخفة دمها، وبراءتها الصبيانية المحببة.

وحين عاد هذه المرة، وبعد ثلاث سنوات، عاد عازما على الزواج بها...

وقبل أن يخبر أمه بعزمه، عمل على مقابلتها وهي عائدة من البحر، وقال لها إنه يريد أن يكلمها في أمر هام، وعلى انفراد، وتواعدا على اللقاء ذلك العصر، حين تقيل البلدة، على سطحها المشترك...

وهناك صارحها بحبه لها منذ أن عاد إلى المدينة أول مرة، وبأنه حمل صورتها في خياله طوال هذه السنين لتؤنسه في ليالي وحدته الطويلة، وأيام شتاء أوروبا الباردة.

وبهرت الفتاة بسعد طالعها المفاجئ، فقد كان عبد السلام وسيما وأنيقا، ومحدثا بارعا... فلم تملك إلا أن توافق بالصمت الدال على الرضى، واحمرار الوجنتين...

سألته سؤالا واحدا، وكان جوابه شافيا «وماذا عن دراستي الجامعية ؟» قال : «ستدرسين هناك، وتتعلمين عدة لغات أخرى !».

وأرسل أمه لخطبتها من أمها حاملة هدايا نفيسة إليها وللعروس ولجميع أفراد العائلة... ونسيت أم ربيعة وعدها لابن أختها، وخصوصا بعد أن وافقت ابنتها على الخاطب الجديد...

وفي داخل الأسبوع تم عقد القران على أن يقام العرس في الأسبوع الأخير من شهر عطلته ليسافر مع عروسه إلى أوربا في شهر عسلهما، وبعده يلتحق بعمله.

☆ ☆ ☆

مر هذا الشريط سريعا متقطعا في ذهن عبد السلام الرايس، وهو يقود سيارته نحو قسم الشرطة لإخبارهم بالحادث، كانت صور الجثة الهاوية وصراخها المرعب تقطع

شريط أفكاره كعلامات تنقيط جنونية سوريالية.

وعهدت الشرطة إلى رجال الاطفاء والاغاثة بانتشال الجثة من مسقطها الوعر الخطير، فلم يستطيعوا الدخول إليها بمراكبهم، ودخل ثلاثة من رجال الضفادع وسط الأمواج، واستطاعوا بعد جهد جهيد أن يربطوها بحبل، ويخرجوها وهم يلعنون صاحبها الذي اختار لانتحاره هذا المكان الملعون.

وتأكدت مخاوف عبد السلام الرايس الذي كان يأمل ألا يكون الميت غريمه ومنافسه على الفتاة، «مرزوق ولد طونا»... فقد كان هو بعينه.

وعندها تأكد لعبد السلام، كذلك، أنه لم يكن ينوي الانتحار، بل كان ينوي القتل ! وقد شاء القدر أن يعاقب بفعلته عند ارتكابها ـ فسبحان الحكم الأعلى !

وعندها، كذلك، بدأ كابوسه المخيف، كيف سيثبت براءته من دم مرزوق ولد طونا ؟!

وحدث أخشى ما كان يخشاه، فقد وجهت التهمة إليه، ولم يقبل أحد من رجال الأمن أو القضاء حكايته للحادث كما أدلى بها، كلهم كانوا يحركون رؤوسهم غير مصدقين، وفي نفس الوقت مستغربين من أن يكون هو أول من بلغ عن الحادث. فقد كان يمكن أن يفلت لو لم يبلغ...

وانتشر الخبر في المدينة الهاجعة كالحريق ـ وشغل كل الناس ـ فهم لم يسمعوا بمثل هذا الحادث إلا في التلفزيون... أو السينما أما بلدتهم... فلا يقع فيها شيء أبدا...

واعتقل عبد السلام الرايس، وأرسل أخاه في طلب محام كبير يعرفه بمدينة كبيرة مجاورة... وسارت القضية بسرعة غير عادية، وفي غير الاتجاه الذي كان يأمله عبد السلام... وحاكمه الرأي العام وادانه...

وفجر الحادث كوامن الأحقاد في نفوس الفاشلين، والحاسدين الحاقدين على أبناء بلدتهم الذين استطاعوا الإفلات من «الجب» الجهنمي، والعثور على مكان تحت الشمس... كان واضحا أن الفاشلين يريدون الانتقام لفشلهم من نجاح عبد السلام الرايس بدفعه إلى المشنقة...

وأطلقت حوله الاشاعات المغرضة، وحيكت الحكايات عن جرائم اقترفها في صباه ضد الحيوانات الأليفة... وكتبت الصحافة عن الحادث بعناوين استهتارية تهويلية الهدف منها بيع الصحف، مثل «الحب القاتل» و«العشيق المجرم» و«الجثة الطائرة» و«الكذبة المضحكة» إشارة إلى حكاية عبد السلام للحادث...

وصار من المستحيل العثور على أي قاض غير متحيز أو متأثر بالجو العدائي السائد ضد المتهم.

ووجد شرطي قريب للهالك بعض الشهود من سكان منطقة الجرف أقسموا أنهم رأوا عبد السلام يدفع الضحية من حافة الجرف إلى حتفه... وأضاف بعضهم أنه رآه معه داخل سيارته متوجها به إلى مكان الحادث...

وفشلت كل جهود المحامي الكبير لتأجيل المحاكمة، أو نقلها إلى مدينة أخرى ليست حامية بالعداء للمتهم...

وحكم على عبد السلام الرايس بالاعدام شنقا حتى الموت، وهو ينظر إلى القاضي غير مصدق، وكأنه يحضر محاكمة شخص آخر...

وأغمي على أمه، وبكى إخوته كما لو كانوا في جنازته...

وصفق بعض الحاضرين من أهل «مرزوق ولد طونا» تشفيا من عبد السلام وعائلته، وهتفوا : «تحيا العدالة !» «عاش سعادة القاضي العادل !».

وفشلت محاولات المحامي، مرة أخرى، في استئناف القضية لعدم توفر أدلة أو شهود أو عناصر جديدة فيها...

وبسرعة غريبة، كذلك، صدق على حكم الاعدام، وتقرر موعد تنفيذه...

وجاء اليوم المحتوم، والساعة الرهيبة المشؤومة. وحضرت إلى السجن لجنة معاينة التنفيذ بعد فجر اليوم الموعود.

وجيء بعبد السلام الرايس في بدلة السجن خائفا خائر القوى ممتقع الوجه محمولا بين رجلين من شرطة السجن، وهو يكرر الشهادة، ويتوقف ليقول :

«مظلوم، يا عباد الله ! والله مظلوم !».

وأوقفوه على المربع، وتلا أحد الرسميين الحكم على الحاضرين، وأعطيت الإشارة للجلاد، فعصب عيني المحكوم

عليه، ووضع أنشوطة الحبل الغليظ حول عنقه، وأمسك بمقبض الذراع التي تفتح الأرض تحت قدمي المحكوم عليه.

وقبيل صدور الأمر بالتنفيذ بجزء من الثانية، دق جرس التلفون الموجود داخل الغرفة، فقفز الجميع، وانهار عبد السلام الذي ظنها النهاية فحمله الحارسان...

والتقط القاضي السماعة وانصت قليلا، ثم وضع السماعة، وتوجه إلى أعضاء اللجنة :

«تأجل التنفيذ، ظهر عنصر جديد في القضية».

وأمر بإعادة المحكوم عليه إلى زنزانته.

☆ ☆ ☆

في الليلة السابقة لتنفيذ الحكم، جلس المواطن الفرنسي، شارل أندريه، يشاهد بعض أشرطة الڤيديو التي صورها أثناء عطلته بالمغرب.

واسترعى انتباهه حادث لم يصوره هو، ولا زوجته ـ لابد أنه طفله الصغير كان يعبث بالكاميرا...

وأرجع الشريط عدة مرات ليتأكد أن ما يراه حادث حقيقي ـ وحين تأكد، طلب القنصل المغربي الموجود بالمدينة بالتلفون وأخبره بحادث الشريط...

وكان القنصل يتتبع المحاكمة في صحف بلاده، فاهتم للشريط اهتماما كبيرا، وعرض عليه أن يأتي بنفسه لأخذه لإرساله إلى هيأة المحكمة... فالمسألة مسألة حياة وموت !

ورأى القنصل الشريط في بيت المواطن الفرنسي، وبمجرد عودته إلى منزله، نادى السفير بالعاصمة، فاتصل هذا بوزير العدل في بلده وأخبره بمحتوى الشريط.

وعرض الشريط على هيأة المحكمة بمحضر المحكوم عليه، وجمهور غفير من المهتمين، فظهر واضحا أن الجاني الحقيقي هو «ولدطوننا» الهالك، وأن عملية انحناء عبد السلام الرايس للالتقاط ورقة من مصحف قرآن كانت حقيقية، وأن مرزوق اندفع إلى حتفه من فوق الجرف حين لم يجد أمامه الشخص الذي كان ينوي دفعه !

وحكمت المحكمة ببراءة عبد السلام، وزغردت أمه فرحا، وعانقته عروسه الشابة، وإخوته الصغار...

وقبل أن يغادر المحكمة، سأله القاضي، وفي عينيه بريق من المكر والشك والتحدي.

ـ هل مازلت تحتفظ بقطعة ورق المصحف التي التقطتها على الجرف ؟

وحاول عبد السلام أن يتذكر ماذا فعل بها... وكان يلبس نفس السترة التي كانت عليه يوم الحادث، فأدخل يديه في جيوبه، فعثر عليها وأخرجها، ومدها للقاضي الذي قرأها في سره، وأخذ يردد مقتنعا :

«صدق الله العظيم ـ صدق الله العظيم...».

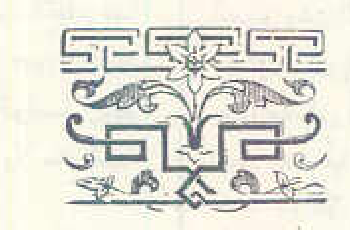
وعرض الورقة على هيأة المحكمة، ثم مدها إلى عبد السلام قائلا :

ـ ما كان ليقع عليك ظلم يا بني، وأنت تحمل هذه الآية الكريمة ! فاحتفظ بها معك دائما...

وقرأ عبد السلام ما بالورقة فإذا هو :

﴿فسيكفيكم الله، وهو السميع العليم﴾.

الرباط : أحمد عبد السلام البقالي





جـودة في الرأي وكمالٌ في العقل.

للأستاذ عثمان بن خضراء

هو يوسف بن تاشفين بن إبراهيم بن تورقيت ابن منصور ابن مصالة الحميري وفي ابراهيم يجتمع مع ابني عمه الأميرين اللذين كانا قبله : أبي زكرياء وأبي بكر ابن عمر بن ابراهيم بن تورقيت، وكنيته أبو يعقوب بنو سير بن إبراهيم علي أبو الطاهر تميم المعز ـ ومن وزرائه صهره سير ابن أبي بكر ـ.

كان رجلا فاضلا خيرا زكيا فطينا حاذقا لبيبا عطاردا يأكل من عمل يده، عزيز النفس، ينيب إلى خير وصلاح ـ كثير الخوف من الله عز وجل، أكبر عقابه الاعتقال الطويل، وكان يفضل الفقهاء ويعظم العلماء، ويصرف الأمور إليهم ويأخذ فيها برأيهم، ويقضي على نفسه بفتياهم ـ.

أقامت بلاد الأندلس في مدته سعيدة حميدة في رفاهية عيش وعلى أحسن حال ـ لم تزل موفورة محفوظة إلى حين وفاته رحمه الله تعالى ـ وكان الجهاد انقطع بها منذ تسع وسبعين سنة من مدة آل عامر إلى حين دخوله إليها ـ قدم أشياخ المرابطين فيها وكانوا أقواما ربتهم الصحراء، نيتهم صالحة لم تفسدها الحضارة ولا مخالطة الأسافل ـ.

قال (ابن اليسع) وكان ترتيبهم ـ في الأندلس أنهم لم يزيدوا فارسا على خمسة دنانير للشهر شيئا مع نفقته وعلف فرسه ـ فمن ظهرت نجدته وإغاثته وشجاعته أكرموه بولاية موضع ينتفع بفوائده وتركوا الثغور المواجهة لبلاد العدو ـ في حكم الأندلسيين لكونهم أخبر بأحوالها وأدري بلقاء العدو وشن الغارات، ولم يمكنوا من ولا يتها أحدا سواهم مع الإحسان إليهم ـ وكانوا متى ما وصلتهم خيل من العدو بعثوا بها إلى أهل الثغور ـ فلما قربت وفاته أوصى ابنه ولي العهد بعده أبا الحسن علي بثلاثة وصايا أحدها :

1) ألا يهيج أهل جبل درر ومن ورائه من المصامدة وأهل القبلة.

2) أن يهادن بنى هود، وأن يتركهم حائلا بينه وبين الروم.

3) أن يقبل من أحسن من قرطبة ويجاوز عن مسيئهم.

وقد مات في شهر ربيع الآخر سنة خمسمائة هجرية ودفن بقصره بحاضرة مراكش وحضر موته أبناؤه الأمير أبو الطاهر تميم وأبو الحسن علي مع من حضر من عترته الصنهاجية وأسرته اللمتونية - قبض وهو على أوله في العزم والجد في نصر الدين وإظهار الكلمة وعضد الإسلام - رحمة الله تعالى عليه -

خلافته :

وكانت خلافته من أول ولايته بالمغرب استخلاف ابن عمه الأمير أبي بكر بن عمر إياه وانصرافه إلى الصحراء إلى حين وفاته.

أخذ ابن عمه أبو بكر بن عمر في الحركة في الصحراء وولاه المغرب مكانه على صورة النيابة عنه، وقسم الجيش : فترك له الثلث من لمتونة وانصرف بالثلثين معه داخلا إلى الصحراء وذلك في سنة ثلاث وستين وأربعمائة - وقام يوسف بن تاشفين مدبرا الأمور قائما بالملك، واشتغل ببناء الحصن المسمى بحصن «قصر الحجر» برحبة مراكش وحصله تحت سور وأبواب وحصنه -

ولما كان في سنة أربع وستين وأربعمائة قوي أمره وعظمت شوكته، فاشترى جملة من العبيد السودان، وبعث إلى الأندلس فاشترى منها جملة من العلوج فأركبهم وانتهى عنده منهم مائتان وخمسون فارسا شراء ماله، ومن العبيد نحو الفين فأركبهم فرسانا، فغلظ حجابه وعظم ملكه واقترض على اليهود في تلك السنة فريضة ثقيلة اجتمع له منها مال استعان به على ما كان بسبيله.

ولما كان في سنة خمس وستين وأربعمائة وصل الأمير أبي بكر بن عمر من الصحراء وعاد إلى المغرب بعد أخذه بثأر قومه وأصلح من شأنهم، فنزل بأغمات خارج المدينة ونزلت محلته دائرة به - وألفى ابن عمه يوسف بن تاشفين قد استولى بالملك وطاعت له بلاد المغرب، فعلم أنه عزم على الاستبداد بالملك، وتسابق أكثر أصحابه ممن وصل معه إلى مراكش لرؤية بنيانها والسلام على يوسف ابن تاشفين أميرها - وكان قد سمعوا عن ضخامته وجزيل كرامته وإحسانه لإخوانه ومعارفه، فاجتمع عنده من القادمين كثير من الخلق، فوصى لهم على قدر منازلهم وأعطاهم بمقدار مراتبهم، وأمر لهم بالكسوة الفاخرة والخيول المسومة والأموال الجمة والعبيد المتعددة.

ولما تشوف الأمير أبو بكر بن عمر على أحوال ابن عمه يوسف بن تاشفين وعلم حبه في الملك وأنه قد استمال نفوس من معه بإحسانه وانقطع رجاؤه من الملك طلب منه تعيين يوم لاجتماعهما فيه - فخرج الأمير يوسف ابن تاشفين في جنوده وعبيده وتلقاه في نصف الطريق - فكان اجتماعهما ما بين أغمات ومراكش - فسلم عليه راكبا على دابته ولم تكن تلك عادته قبل... ثم ترجلا وقعدا على برنس، فسمى المكان بحصر البرنس، فهو يعرف بذلك إلى هذا العهد - فتعجب الأمير أبو بكر بن عمر مما رأى من ضخامة ملكه ووفور عساكره وترقية جنوده وتحدث معه، ثم قال : يا يوسف أنت أخي وابن عمي ولم أر من يقوم بأمر المغرب غيرك ولا أحق به منك، وأنا لا غناء لي عن الصحراء وما جئت إلا لأسلم عليك ونسلم الأمر إليك ونعود إلى الصحراء مقر إخواننا ومحل سلطاننا - فشكره يوسف ابن تاشفين على ذلك وأثنى عليه - وحضر أشياخ لمتونة وأعيان الدولة وأمراء المصامدة والكتاب والشهود والخاصة والعامة وأشهد على نفسه بالتخلي له عن الأمر بوطن المغرب.

فتوحاته :

في سنة ستة وستين وأربعمائة فتح الأمير يوسف بن تاشفين مدينة مكناسة واستنزل منها الخير الكثير من خزائن الزناتي.

وفي سنة سبعة وستين وأربعمائة فتح مدينة فاس.

وفي سنة ثمان وستين بعدها فتح مدينة تلمسان وكان أميرها العباس بن يحيى الزناتي.

ولما كان في سنة سبعين وأربعمائة شرع في تجديد العساكر ووفودها وبعث إلى الصحراء للمتونة ومسوفة وجدالة وغيرهم يعلمهم بما فتح الله تعالى عليه من ملك المغرب وطاعة أهله ويؤكد عليهم القدوم، فوفد إليه منهم

جموع كثيرة ولأهم الأعمال، وصرف أعيانهم في مهمات الأشغال فاكتسبوا الأموال وملكوا رقاب الناس وكفروا بكل مكان وساعدهم الوقت والزمان، وكثرت جموعهم وتوفرت عساكرهم وعظم ملك يوسف بن تاشفين وضم من جزولة ولمطة وقبائل زناتة، ومصمودة جموعا كثيرة وسماهم بالحشم، وضم طائفة أخرى من اعلاجه وأهل داخلته وحاشيته فصاروا جموعا كثيرة وسماهم الداخلين فاجتمع له في الطائفتين ثلاثة آلاف فارس.

وفي سنة أربع وسبعين وأربعمائة وفد عليه جماعة من الأندلس وشكوا إليه ما حل بهم من أعدائهم، فوعدهم بمرادهم وأعانهم.

وكان ممن كتب إليه حين ذلك «المتوكل على الله بن الأفطس جرت بينه وبين ملك الجلالقة خطوب كثيرة آل حال المسلمين بعمالته إلى الضعف والاستيلاء على بلادهم ـ وخاطبه ملك الجلالقة بكتاب يرعد فيه ويبرق ويتشطط عليه في أداء وظيفته من المال كل سنة ـ فأجابه بكتاب ورفع الخبر إلى الأمير يوسف بن تاشفين.... فبعث إلى الأندلس برسم أهل العدد وآلات واشترى الكثير من العدد والسلاح واقتناء الذخيرة والاجناد واختيار الرجال فبلغ جيشه إلى اثنى عشر ألف فارس كلهم نخبة أنجاد وجاز إلى الأندلس أربع مرات :

الجواز الأول :

في سنة تسع وسبعين وأربعمائة لما بلغ أهل الأندلس ما كان عليه الأمير يوسف بن تاشفين من القوة والاستعداد والحجة والجهاد وفد عليه جماعة من وجوهها فأخبروه بحالها وبكلب العدو عليها، وكان الطاغية «ادفنش» في سنة ثمان وسبعين وأربعمائة قد غلب على طليطلة واستولى على أعمالها وحازها لنفسه وكثر الروع على الأندلس واشتد الخوف، وتطرق المعتمد على الله ابن عباد لما رأى أمره في ادبار وأن الادفنش قد عزم عليه وشاور خاصته ووجوه دولته في شأن استدعاء يوسف بن تاشفين... فأشاروا عليه بمداراة الادفنش والناس معه ومهادنته وعقد السلم على ما يذهب إليه من الشروط وكيف ما أمكن، وأن ذلك أولى من تجويز المرابطين.

ثم إنه خلا بابنه وولي عهده الرشيد أبي الحسن عبيد الله وقال له : أنا في هذه الأندلس غريب بين بحر مظلم وعدو مجرم وليس لنا ولي ولا نصير إلا الله تعالى وإن إخواننا وجيراننا ملوك الأندلس ليس فيهم نفع ولا يرجى منهم نصرة ولا حيلة إن نزل بنا مصاب أو نالنا عدو ثقيل وهاهو اللعين ادفنش قد أخذ طليطلة من ابن ذي النون بعد سبع سنين وعادت دار كفر وها هو قد رفع رأسه إلينا وإن نزل علينا بطليطلة ما يرفع عنا حتى يأخذ اشبيلية، ونرى من الرأي أن نبعث إلى هذه الصحراء وملك العدوة نستدعيه للجواز ليدفع عنا هذا الكلب اللعين إذ لا قدرة لنا على ذلك بأنفسنا فقد تلف لجاؤنا وتدبرت بل تبردت أجنادنا وأبغضتنا العامة والخاصة ـ فقال له ابنه الرشيد : يا أبت أتدخل علينا في أندلسنا من يسلبنا ملكنا ويبدد شملنا ـ فقال أي بني والله لا يسمع عني أبدا أني أعددت الأندلس دار كفر ولا تركتها للنصارى فتقوم علي اللعنة في منابر الإسلام مثل ما قامت على غيري في حرز اللجما والله عندي خير من حرز الخنازير ـ فقال له يا أبتى : افعل ما أمرك الله فقال : إن الله لم يلهمني لهذا إلا وفيه خير وصلاح لنا ولكافة المسلمين فاستفتح بخطبته وجعل يستصرخه ويستدعيه بمكاتبات من إنشائه وإنشاء كتابه من خطه ما نصه :

بسم الله الرحن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

إلى حضرة الإمام أمير المومنين وناصر الدين محيي دعوة الخليفة الإمام أمير المومنين أبو يعقوب يوسف بن تاشفين القائم بعظيم اكبارها الشاكر لإجلالها المعظم لما عظم الله من عظيم مقدارها اللائذ بحرامها المنقطع إلى سمو مجدها المستجير بالله وبطولها محمد بن عباد سلام كريم يخص الحضرة المعظمة السامية ورحمة الله تعالى وبركاته كتب المنقطع إلى كريم سلطانها من اشبيلية في غرة جمادى الأولى سنة تسع وسبعين وأربعمائة وأنه أيد الله أمير المسلمين ونصر به الدين فإنا نحن العرب في هذه الأندلس قد تلفت قبائلنا وتفرق جمعنا وتغيرت أنسابنا بقطع المادة عنا من صنيعتنا، فصرنا فيها شعوبا لا قبائل وأشتاتا لا قرابة ولا عشائر فقل نصرنا وكثر شامتنا وتولى

علينـا هـذا العـدو المجرم اللعين «ادفنش» وأنـاخ علينـا بطليطلة ووطئها بقدمه وأسر المسلمين وأخذ البلاد والقلاع والحصون، ونحن أهل هذه الأندلس ليس لأحد منا طاقة على نصرة جاره ولا أخيه ولو شاءوا لفعلوا إلا أن الهواء والماء منعهم عن ذلـك ـ وقـد سـاءت الأحوال وانقطعت الآمال وأنت أيدك الله سيد حمير ومليكها الأكبر وزعيمها نزعت بهمتي إليـك واستنصرت بـاللـه ثم بـك واستغثت بحرمكم لتجوز لجهاد هـذا العـدو الكـافر وتحيـون شريعة الإسلام وتدينون على دين محمد عليه الصلاة والسلام ولكم بذلـك عنـد اللـه الثـواب الكريم والأجر العظيم والسـلام الكريم على حضرتكم السامية ورحمة الله تعالى وبركـاته ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».

فلمـا وصلـه الخطـاب أطلع عليه إخوتـه وبنـو عمه ومستشاريه فأشار عليه عبد الرحمن بن اسبط وهو من كتابه وكان أندلسيا بأن يكتب إليه بـأنـه لا يمكنـه الجواز إلا أن يعطيه الجزيرة الخضراء فيجعل فيها أثقاله وأجنـاده ويكون الجواز بيده متى شاء... وعند ذلك كتب له ما نصه :

«بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما :

«من أمير المومنين ونـاصر الـدين معين دعـوة أمير المومنين إلى الأمير الأكرم المؤيد بنصره لله تعالى المعتمد على الله أبي القاسم محمد بن عباد أدام اللـه كرامتـه بتقواه ووفقه لما يرضاه سلام عليكم ورحمة الله وبركاته أمـا بعد فإنـه وصـل خطـابكم الكريم فـوقفنـا على مـا تضمنـه من استدعائنا لنصرتك وما ذكرته من كربتك وما كـان من قلة حمايـة جيرانـك فنحن يمين لشمـالـك ومبـادرون لنصرتـك وحمايتك وواجب علينا ذلك من الشرع وكتاب الله تعـالى وإنـه لا يمكننـا الجواز إلا أن تسلم لنـا الجـزيرة الخضراء تكون لنا لكي يكون جوازنا إليك على أيـدينـا متى شئنـا، فإن رأيت ذلك فـاشهـد على نفسـك بـذلـك وابعث إلينـا بعقودها ونحن في إثر خطابك إن شاء الله».

ولما ورد هذا الخطـاب على ابن عبـاد، قـال لـه ابنـه الرشيد : يا أبت ألا تنظر إلى ما طلب ـ فقال له : يـا بني قليـل في حـق نصرة المسلمين ـ فجمـع ابن عبـاد القـاضي والفقهـاء وكتب عقـد هبـة الجزيرة الخضراء ليـوسف بن تاشفين وتسليمها لـه بمحضر ذلـك الجمع وبعث بهـا إليـه ـ وكـان ابنـه الراضي يـزيـد إذ ذاك صـاحب الجـزيرة فـأمر بإخلائها والانتقال عنها ـ

ولما وصله العقد والخطاب بالتأكيد في الجواز استنفر جميع حشوده وبعث في البلاد إلى جنوده ورحل إلى سبتة فأقام بها وأخذ في تجويز عساكره حتى لم يبق منهم أحد، وجاز في أثرهم ودخل الجزيرة.

ولمـا بلغ ابن عبـاد جوازه استعد للضيافـة الحـافلة والهدايا وقد كان يجمعها ويحتفل فيها لما احتل يوسف بن تـاشفين بـالجزيرة وشرع في بنـاء أسـوارهـا ومـا تشعت من أبراجهـا وحفر الحفير عليهـا وشحنهـا بـالأطعمـة والأسلحـة ورتـب فيها عسكرا نقيا من نخبة رجاله وأسكنهم بهـا ورحل نحو اشبيلية فتلقاه ابن عبـاد على مرحلـة من الجزيرة فسلم عليه وهم ابن عباد بتقبيل يديه فبادر لمعـانقتـه وسـألـه عن حاله وانبسـط معـه في الحـديث وهنـاه ابن عبـاد بـالسـلامـة ولحقت ضيـافـة ابن عبـاد جميع المحلـة على حـال كبرهـا وركب ابن عباد فدار بالمحلة ونظر إلى العساكر فلم يشك أن ذلـك الجمـع لا يخلـو من نصرة وأن اللعين ادفنش لا محالة مهزوم ـ فكان كما كان فحمد الله واثنى عليه وسجد للـه سجدة عفر وجهه في التراب تـواضعـا للـه سبحـانـه وتعالى ـ

ونهضت العسـاكر نحو اشبيلية ثم إلى بطليوس، وقد كان يوسـف بن تـاشفين كتب إلى سـائر الأندلس يستنفرهم إلى الجهاد ويستدعيهم للالتحاق بمحلته.

قـال أبو محمـد عبـد العزيز ابن الإمـام أحـد خواص المعتمد ابن عباد قـال : «كنت في عسكره عنـد توجهـه مع يوسف ابن تاشفين إلى لقاء أدفنش بن فرلندة ملك قشتـالـة فيغزوة الزلاقة...وهي أول غزوةغزاها المرابطون بالأندلس، وكـان النـاس يرحلون برحيـل أمير المسلمين يـوسف بن تاشفين وينزلون بنزوله تقديما لـه ورعيـا لمكـانـه من السر وعظيم الملك، ووفور العدد وجودة الرأي وكمال العقل...

فسمعنا طبوله تضرب، وقيل أمير المسلمين يتقدم إلى العدو... وكانت هذه الغزوة التي أظهر الله تعالى فيهـا دين الإسـلام ونصر حـزبـه ونفس عنـه كربـه، ولم يكن في الأنـدلس غزوة أعظم منهـا قتـل فيهـا من النصـارى نحو

ثلاثمائة ألف في موضع بالقرب من غرناطة سنة 1086 ميلادية.

ولما قضى الله تعالى بهذا الفتح الجليل والصنع الجميل قام المسلمون في جمع أسلابهم وضم عددهم مدة أيام، فامتلأت أيديهم بالغنائم الوافرة والسبي الكثير واكتسبت الناس فيها من آلات الحروب والأموال وسيوف الحلي ومناطق الذهب والفضة ما أغناهم... وكان يوم لم يسمع بمثله من اليرموك والقادسية فياله من فتح ما كان أعظمه، ويوم كبير ما كان أكرمه - فيوم الزلاقة ثبتت قدم الدين بعد زلاقها وعادت ظلمة الحق إلى إشراقها نفست مختنق الجزيرة بعض التنفس واعتز بها رؤوس الأندلس - فجزى الله أمير المسلمين وناصر الدين يوسف ابن تاشفين أفضل جزاء المسلمين بما بل من أرماق ونفس من خناق ووصل لنصر هذه الجزيرة من جبل وتجم إلى تلبية دعائها واستيفاء دمائها من حزن وسهل حتى هزموا على يده المشركون وظهر أمر الله وهم كارهون - ثم بعد ذلك عاد أمير المومنين إلى العدوة بعدما بلغه خبر موت ابنه أبي بكر -

الجواز الثاني :

في سنة 481 بعد الزلاقة بسنتين وفدت على أمير المسلمين يوسف ابن تاشفين بحاضرة مراكش وفود من الأندلس من أهل بلنسية ومرسية ولورقة وسبتة فشكوا له ما حل بأهل بلنسية من أهل الكبيطور وكان من ملوك الروم، حاصر بلنسية سبع سنين حتى دخلها وشكوا له ما حل بأهل مرسيه وأعمال لورقة وبسطة من شأن لبيط وهو حصن حصين على رأس جبل شاهق... ثم إن ابن عباد تحرك من اشبيلية في خاصته وعبر البحر إلى يوسف بن تاشفين فتلقاه بالدحلة على وادي سبو فتلقاه بصدر رحب وشكى له ضرر النصارى على حصن لبيط وعظم أذاه للمسلمين ولتوسطه في بلادهم ولا جهاد أعظم منه أجرا - فتلقى أمير المسلمين مقصده بالقبول ووعده بالحركة والجواز - وبعث الأمير يوسف كتابه لملوك الأندلس يستدعيهم للجهاد معه والموعد حصن لبيط وأحدق الجميع بهذا الحصن ومعهم ابن تاشفين وكان بداخله من الروم ألف فارس واثنى عشر ألف راجل، واتصلت الحرب على الحصن ليلا ونهارا، وكل أمير من أمراء الأندلس يقاتل في يومه بخيله ورجاله مداولة بينهم وتمادى ذلك أشهر واجتمع المعتمد بن عباد ويوسف ابن تاشفين وظهر لهما من حصانته ومنعته واستعصاء نقبه ما أيأسهم عنه، وأنه لا يتأتى لهم أخذه إلا بالمطاولة وقطع مادة القوم عنهم - وفي أثناء ذلك استصرخ أهل الحصن سلطانهم فأخذ في الحشد ويممه واقتضى نظر يوسف بن تاشفين التوسعة عن الحصن والتأهب للقائه ولما وصله اللعين وجد قوما جياعا لا يقدرون على إمساك الحصن فأحرقه وأخرج من فيه من قومه - وجرد يوسف من عسكره جيشا ينيف على أربعة آلاف فارس بعثه إلى بلنسية وانصرف من هنالك إلى العدوة فتحرك الجميع بحركته وعادوا إلى بلادهم.

الجواز الثالث :

سببه أنه لما كان على حصن لبيط تقل إلى ابن تاشفين على ملوك الأندلس كلام أوغر صدره عليه - ولما تبين لهم تغييره عليهم وإعراضه عنهم نظر كل واحد منهم لنفسه بغاية جرمه - ولما كان في سنة أربعة وثمانين وأربعمائة تحرك يوسف بن تاشفين إلى سبتة لجواز عساكره اللمتونية إلى الأندلس لمنازلة ملوك الطوائف وحصارهم في بلادهم - وفي أثناء مقامه بها أمر ببناء المسجد الجامع بسبتة والزيادة فيه حتى أشرف على البحر وبنى البلاط الأعظم منه، وأمر ببناء سور الميناء السفلى وشرع في جوازهم وقام هو بسبتة مترقبا لأنبائهم، وكان منهم بالأندلس ما هو مشهور الاستيلاء على بلادهم والغلبة على مملكتهم، باستثناء ولاية بني هود فإن أميرها أحمد الجرامي كان يهادي أمير المسلمين ويكاتبه ويوجه إليه ابنه عبد الملك ويطمئنه بأنه سد ضد العدو خصوصا لما هجم الافرنج على ثغور سرقطة واثخنوا وقتلوا وسبوا فاسترجعها من أيديهم ابن هود ودخلها عليهم عنوة - وعادت الطمأنينة إلى الأندلس لمدة طويلة، ومحا منها ملوك الطوائف.

الجواز الرابع :

كان جوازه الرابع إليها سنة ست وتسعين وأربعمائة

للتجول عليها والنظر في مصالحها وتفقد أحوالها - وكان معه أبناؤه منهم تميم وعلي -

وكان يوسف بن تاشفين كتب ولاية العهد لابنه الأمير أبي الحسن وذلك في سنة خمس وتسعين وأربعمائة ومن جملة ما اشترط عليه إقامة سبعة عشر ألف فارس بالأندلس موزعة على انظار معلومة يكون منها باشبيلية سبعة آلاف فارس، وبقرطبة ألف فارس وبغرناطة ألف فارس، وفي المشرق أربعة آلاف فارس وباقي العدد على ثغور المسلمين للذب والمرابطة في الحصون المصاينة للعدو.

وبعد هذه الانتصارات المبينة عظم شأن يوسف بن تاشفين ولقب بأمير المسلمين وأتاه تقليد الخليفة العباسي (المقتدي بأمر الله) على ما فتحه ولقبه ناصر الدين، ثم رجع يوسف إلى المغرب ظافرا.

لقد كان يوسف بن تاشفين كبير النفس... بعيد المرامي... طماحا إلى التبسط في الملك والاستيلاء على الممالك... شجاعا فاضلا داهية، وكانت علامته «الملك والعظمة لله».

قال في (ذرة السلوك) : يوسف بن تاشفين الرجل الصالح الذي لم يكن في ملوك المغرب قبله ولا بعده من هو مثله، ما عدا الإمام إدريس ابن عبد الله الكامل، وطالت مدة ولاية يوسف على ستين سنة، وكاتبه علماء الشرق مثل الغزالي والطرطوشي وغيرهما، وافتوه بخلع ملوك الأندلس والتحجير عليهم، وبعث له الإمام العباسي الخلعة واللواء وقال الزياني في «الروضة السليمانية» في الباب التاسع بعد أن ذكر يوسف بن تاشفين : لم يكن بعد عمر بن عبد العزيز أزهد في الدنيا ولا أعدل منه. ورد فيه على من لمزه بأنه لا يفهم معنى الشعر، ورد على من فضل الأندلس على بر العدوة.

والرسالة التي كتبها له الإمام الطرطوشي بعد أن ذكر حديث الإمام مسلم : «لا يزال أهل المغرب ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله» ما نصه :

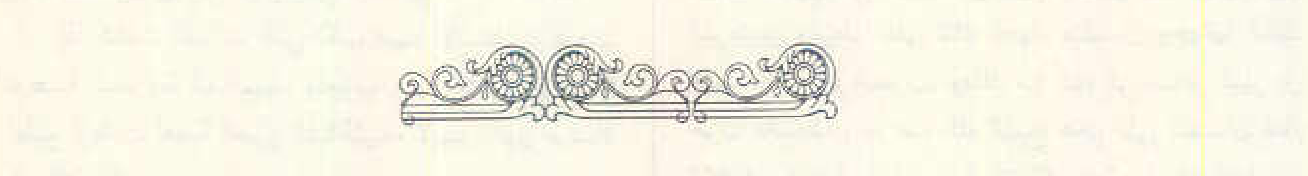
وهل أرادكم رسول الله ﷺ إلا لما أنتم عليه من التمسك بالسنة، وطهارتكم من البدع، واقتفاء أثر السلف الصالح.

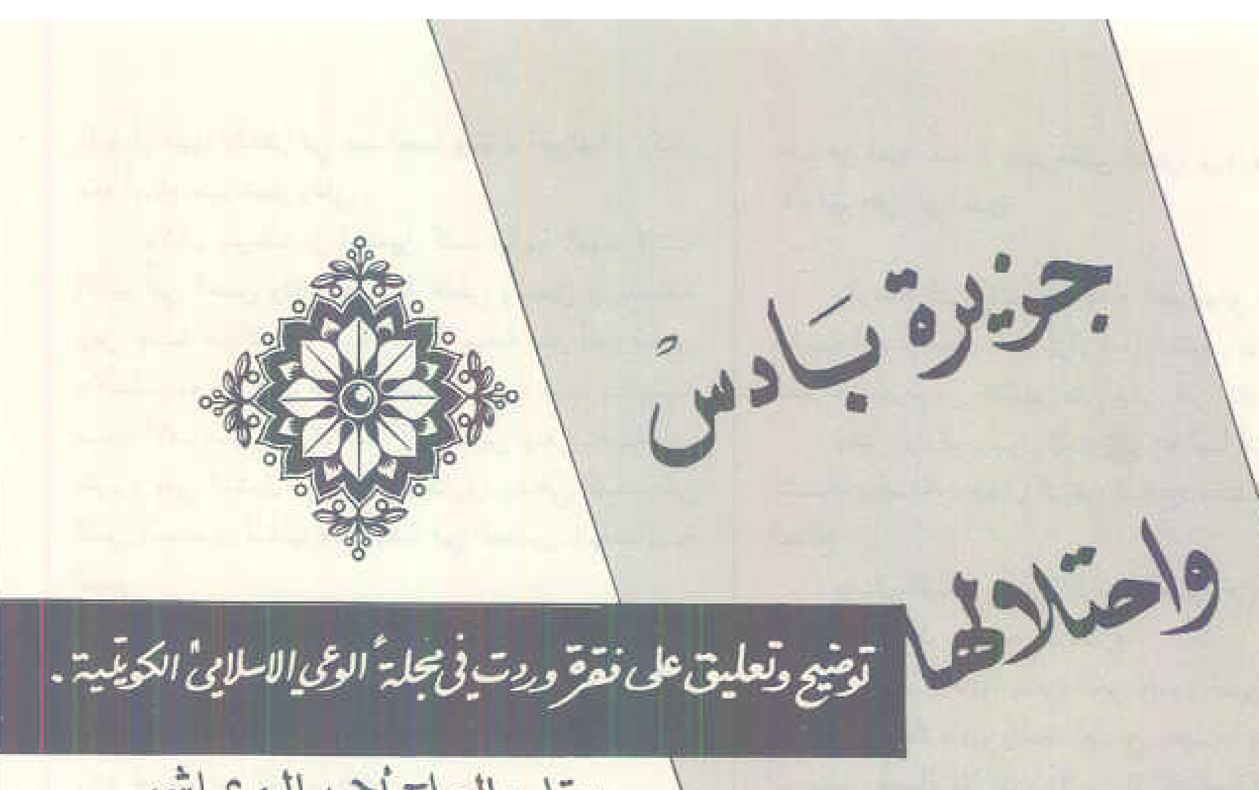
وقال القاضي أبو بكر بن العربي في «عارضة الأحوذي، في شرح جامع الترمذي».

«المرابطون قاموا بدعوة الحق ونصرة الدين وهم حماة المسلمين الذائدون والمجاهدون دونه، ولو لم يكن للمرابطين فضيلة ولا تقدم ولا وسيلة إلا وقعة الزلاقة التي أنسى ذكرها حروب الأوائل وحروب داحس والغبراء مع بني وائل لكان ذلك من أعظم فخرهم، وأبقت الأندلس مسلمة لعدة قرون.

قال صاحب «المعجب» «فانقطع إلى أمير المسلمين من أهل كل علم فحوله حتى اشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم، واجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار».

وبالجملة، فقد كان يوسف بن تاشفين بطلا شجاعا صالحا متقشفا على ما فتح الله عليه من الدنيا، وكان محبا في الفقهاء والصلحاء مقربا لهم، صادرا عن رأيهم وأجرى عليهم الأرزاق من بيت المال، وكان متواضعا حسن الخلق كثير الحياء جامعا لخلال الفضل - رحمه الله تعالى -





جزيرة بادس واحتلالها الجائر

توضيح وتعليق على فقرة وردت في مجلة «الوعي الاسلامي» الكويتية.

بقلم : الحاج أحمد البوعياشي

ان جزيرة بادس التي نلقي الأضواء في شأنها بمناسبة إعلان المغرب المطالبة باستردادها إلى حضرة الوطن ضمن الجيوب الشمالية الآخر : سبتة، ونكور، ومليلية، والجزر الجعفارية.

وبالطبع، فإن هذه الجزيرة التي كانت تصاقب مدينة الصلاح والعلم بادس التاريخية والتي كانت ملجأ طبيعيا ترسو بجدرانها السفن والزوارق التي تقصد المدينة للأغراض المختلفة، أن يكون بها اهتمام خاص، كما أنها كانت ملجأ لسكان المدينة المصاقبة عندما يداهمهم عدو بريا، يعتصمون بها إلى أن ينجلي المد لهم.

إذا كانت الفترات التي نكب فيها الأندلس، عرفت القرصنة البحرية العالمية، وتجوب هذه الشواطئ فإنه بالطبع ازدادت أهمية الجزر الشاطئية، لأنها تكون مرساة سفن القرصنة.

فقد تجلى التهافت على هذه الجزر منذ أن قامت الدولة الوطاسية، التي جعلت همها حماية شواطئ شمال المغرب ومن ضمنها طرد البرتغال من سواحله، فكافحت ضده في البلاد الهبطية فطردته من مدن أصيلا والعرائش وطنجة.

وقد أدى انهاكهم في طرد هؤلاء الغزاة من هذه الجهة إلى ترك سواحل سوس والجنوب عورة ذلك ما أدى إلى قيام الدولة السعدية الشريفة، فقامت على دعوى حراسة مراسي الجنوب التي تركها الوطاسيون عرضة للاحتلال الأجنبي.

وقد قدر للسعديين أن ينتصروا وتوطدت أركان دولتهم، وتغلب محمد المهدي الملقب بالشيخ إلا أن علاقة هذه الدولة مع جيرانها : أتراك الجزائر لم تكن حسنة، بل تأزمت الأمور بينهم إلى حد بعيد وذلك لأن السعديين يرون أن الأتراك غاصبون إذ استولوا على تركة دولة بني زيان بتلمسان، ويرون أن ذلك التراث حق مغربي فطالما كان المغرب في عهد المرابطين والموحدين وأوائل المرينيين مسيطرا على تلك الجهة، فتلمسان وجهاتها كانت إقليما من أقاليم المغرب، وذلك ما أدى إلى تنافر كبير بل حرب فالسلطان أبو عبد الله الشيخ هجم على تلمسان عام 957 هـ ودخلها وأجلى عنها الأتراك بينما سليمان القانوني العثماني أرسل بعثة سرية، اغتالت أحد أولاد السلطان

محمد الشيخ، ويدعى عبد القادر، وكان وزيرا لأبيه، وعدوا لدودا للأتراك، وكان من الشجاعة بمكان.

ولم يقتصر عمل الأتراك على هذا الاغتيال، بل هيأوا حملة حربية لمساعدة أبي حسون الوطاسي فاتح عام 961 هـ فاستولى على فاس، إلا أن السلطان السعدي استجمع قواه فرد عادية أبي حسون الوطاسي فقتله واسترد فاسا في شوال 961 هـ (1555م) وقد بقي أبو حسون محتلا لها تسعة أشهر.

ولما لم يحصل الأتراك على مبتغاهم طالبوا من السلطان السعدي تحديد الحدود الشرقية وتعيينها فأوفدوا في أواخر نفس العام من قبلهم الفقيه الصالح أبا عبد الله محمد بن علي الخروبي الطرابلسي، وكان مقيما في الجزائر إلا أنه لم يحصل على طائل، ذلك ما اضطر الأتراك إلى الاعتماد على العمارات البحرية وقرصنتها، فكانت سفنها تجوب شواطئ الشمال، ويحتلون جزيرة بادس كمركز لتهديد المغرب.

على أن الباعث لاحتلالهم هذه الجزيرة لم يكن للتهديد فقط، بل غرضهم كان هو الاستلاء على المغرب أسوة بالجزائر، وقد يكون هو السبب الحقيقي لتأزم الأمور بينهم وبين المغرب وذلك أيضا ما جعل المغرب يبعد خطرهم عن حدوده بمهاجمتهم في تلمسان، لأن الباب العالي التي لا تكاد الشمس تغرب عن ممتلكاته في القارات القديمة يعز عليه أن تستعصى عليه دولة في أقصى المغرب.

وضعية احتلالها

استرعت انتباهي على الخصوص فقرة وردت في مجلة الوعي الإسلامي عدد : 224 بتاريخ شعبان 1403 هـ ماي 1983 التي تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت الشقيق، ضمن مقال تاريخي هام تحت عنوان : «معركة وادي المخازن» جاء في تلك الفقرة عندما أتى على ذكر الغالب بالله السعدي الذي صب عليه مؤرخ الدولة السعدية جام غضبه.

حيث وصفه «بالتواطؤ مع الكفرة وبخاصة بعد إعادة البريجة للبرتغاليين والتنازل عن ميناء بادس للإسبان».

ولكن لما أن المغرب الآن في معركة سياسية مع الدولة الإسبانية لاسترجاع تلك الشواطئ الشمالية التي لا زالت تحت نير الاحتلال الإسباني فإني أريد أن أعلق على مقال الأستاذ حسن عشّيرَ أن أحمد طه توضيحا لوضعية احتلال جزيرة بادس (وليس ميناء بادس كما جاء في المقال).

ذلك لو اعترفنا بأن الجزيرة سلمت للإسبان من طرف أي ملك من ملوك الدولة المتعاقبة على المغرب لكان للإسبان أن يتمسكوا بالعقد ولكن الواقع أن الاحتلال كان جائرا وبالقوة وأن المؤرخين المغاربة في إبانه كلهم أنكروا أن يكون الغالب بالله قد سلمها طواعية.

وانا نجد النص الكامل لواقعة الاحتلال الإسباني في مؤلف «نزهة الحادي في أخبار ملوك القرن الحادي» لابن عبد الله محمد الصغير المراكشي المعروف باليفراني المتوفى ما بين 52 ـ 1154 هـ (1737) حسبما نقله الناصري في الاستقصاء الذي جاء فيه «ذكر بعضهم أن السلطان الغالب بالله لما رأي عمارة ترك الجزائر واساطنهم لا ينقطع ترددها على جزر بادس ومرسى طنجة، وتخوف منهم، اتفق مع الطاغية أن يعطيه جزر بادس، ويخليها له من المسلمين، فتنقطع بذلك مادة الترك عن المغرب، ولا يجدون سبيلا إليه فنزل النصارى عن حجز بادس وأخرجوا المسلمين منها ونبشوا قبور الأموات وحرقوها وأهانوا المسلمين كل الإهانة، ولما بلغ خبر نزولهم لولده محمد وكان خليفة علي فاس خرج بجيوشه لإغاثة المسلمين فلما كان بوادي اللبن بلغه استيلاؤهم عليها فرجع وتركها لهم».

ولكن هذا النص لم يعتمده لا اليفراني ولا صاحب الاستقصاء وإنما جلباه لأجل نقصه ورده فقد قال صاحب الاستقصاء عقبه نقلا عن اليفراني «هكذا وجده في ورقة مجهولة المؤلف».

وقال أيضا في صحيفة 55 في نفس الجزء نقلا عن اليفراني موضحا أسباب عدم الاعتماد على النص المذكور ومؤكدا بصراحة أنها أكذوبة على الغالب بالله من أحد خصوم الدولة السعدية فقال معددا مسائل قيلت ضده وهي

«ومثل ما ذكره بعضهم أن السلطان الغالب بالله أعطى جزر بادس للطاغية لتنقطع بذلك مادة الترك» ومثله ما ذكره عنه أيضا أن قائده بني تودة أخذ أسوار البريجة وعزم على فتحها من الغد فكتب إليه السلطان المذكور ينهاه عن ذلك.

ثم قال أي اليفراني «هذه أمور شنيعة ولست أدخل في عهدتها لأني رأيتها في أوراق مجهولة المؤلف اشتملت على ذم هذه الدولة السعدية وظني أنها من وضع أعدائها لحطهم من قدرهم وإخراجهم من النسب الشريف ووصف دولتهم بالدولة الخبيثة :

ونظرا لكون اليفراني هو المصدر الوحيد الذي نقل ما جاء في الورقة المجهولة فإنه تبرأ منها ونقضها عروة عروة، فلم يبق للكتاب أيا كانوا أن يعتمدوا نصا مردودا أساسا لكونه لم يستند إلا على ورقة مجهولة في موضوع خطير كتفويت السيادة على جزء من الوطن خصوصا وأن القضية قضية وطنية هامة تخص الوحدة الترابية فالواجب يقضي باليقظة في إصدار الرأي المخالف لمصالح البلاد ذلك أن الثابت تاريخيا أن الجزيرة كانت محل صراع بين قراصنة الأتراك وقراصنة الإسبان للاستيلاء عليها لمكانها الاستراتيجي الحربي ولأن مدينة بادس التي بإزاء الجزيرة كانت مرفأ لفاس وتازة وهي صلة الوصل بينهما وبين الأندلس عندما احتله الإسبان زمن الغالب بالله السعدي بعدما هجموها بأسطول مكون من 92 سفينة حربية إسبانية وبرتغالية تجر جيشا ضخما من مرتزقة الألمان والصقليين والطليان، وزيادة على الإسبان والبرتغال وامتنع الغالب بالله من الاعتراف بالأمر الواقع بعقد معاهدة مع الإسبان لشرعية الاحتلال، وللاستدلال على ذلك ننقل هنا ما جاء في السلسلة الأولى السعدونية، ل.ث. صفحات 15 ـ 63 ـ 141 ـ 151 وج. ل. ص. 263 فقد جاء ملخص الجميع، أنه «تكررت الحملات مرات متعددة فكانت قراصنة الإسبان من مليلية يغيرون عليها بينما قراصنة الجزائر «الأتراك» يتخذونها مقرا لهجومهم على سواحل الأندلس لاقتناص السفن المتوجهة إلى الهند يعاونهم في ذلك قراصنة تطوان والعرائش وكانت قراصنة مليلية يؤدون لملك إسبانيا خمس أسلابهم ولولائهم كانوا يحملون إلى إسبانيا والبرتغال سنويا أزيد من مليون من العملة الذهبية.

وكان الجند الريفي يتصدى للإسبان الذين يحتلون جزيرة بادس وقد طردوهم منها عام 929 هـ وبقي الوطاسي أبو حسون ثم السعديون مالكين لبادس إلى عام 1554 (961 ـ 962 هـ) حيث احتلها الأتراك نحوا من عشر سنوات ثم استرجعها الإسبان، وهدموا مدينة بادس فتخربت واحتفظوا بجزيرتها معززين بـ 92 سفينة برتغالية وإسبانية مع جنود مرتزقة من الألمان والصقليين والإيطاليين ثم استرجعها الأتراك، وقد رفض السلطان إمضاء معاهدة للاعتراف بالأمر الواقع، ووجه قائدين لاسترجاع الحصن».

وعليه فإن النصوص التاريخية العربية ضد القول بأن أية سلطة مغربية قد فوتت الجزيرة إلى الإسبان ولا يمكن تزكية استيلائهم عليها بطرق الاتفاق أو المعاهدة السرية أو العلانية، وإنما احتلالهم إياها هي من سلسلة الاعتداءات الإسبانية على الشواطئ المغربية في ذلك التاريخ، ويا ما أكثر ما ردت على أعقابها تجر أذيال الهزائم، ولم يغنها أنها تمسكت بكل ناعق مغامر ينقم على الدولة المغربية، مثلما فعلت مع الشيخ المأمون بن أحمد المنصور الذي فر أمام أخيه السلطان زيدان إلى إسبانيا حيث استعان بملكها ليغزو المغرب مدعيا الأحقية بالملك من أخيه، واستجابت إسبانيا لمطلبه «مسرة حسوا في ارتغاء» كما يقول المثل وطلبت منه أن يمكنها من العرائش بعد إخلائها من المغاربة فجاء أي المأمون يجر من ورائه خراب وطنه في سفن الأعداء، فنزل بجزيرة بادس ثم ارتحل إلى القصر الكبير وأمر أحد قواده بإخلاء العرائش وتمكينها من الأعداء، وقد يكون الإسبان عرجوا عن جزيرة بادس لتزكية احتلالهم بوجود هذا الناعق الذي يرومون من استعماله دمية في يدهم لأغراض مدسوسة.

ولكن لا هذا الناعق ولا الجيش الإسباني استوفى مراده، فالشيخ المامون قتل بفج الفرس ما بين تطوان وطنجة بتاريخ 1022 على يد المقدم أبي الليف (الاستقصاء ج.6.ص.22) وتركت جثته في الخلاء طعمة للغربان، والجيش الإسباني رجع مفلولا من حيث أتى، فلم تكن

هناك تركية ولم يكن هناك خلود في العرائش بفضل صمود المغاربة أمام المغيرين.

وعلى كل فإن الإسبان احتلوا أول ما احتلوها عام 914 هـ (1508م) وبنوها وحصنوها وكان أول من احتلها الربان «بيد رونافارو» بدعوى مراقبة السفن التي كانت تأتي من البندقية للإغارة على سواحل إسبانيا ضمانا لتجارتها التي تسوقها إلى مرسى بادس كل سنة وكان الاحتلال بواسطة قوة «لارمادة» وأقام عليها رئيسا هو «خوان دى قيالولس» إلى سنة 1522 حيث انتزعها الأتراك من أيديهم بعد هجوم عليها من طرف جنود ألبسوا لباس الإسبان فظن هؤلاء أن إغاثة أرسلت إليهم من دولتهم حتى إذا تمكن الأتراك من الجزيرة أسروا الحامية الإسبانية.

ومن هنا بدا التنافس الشديد على احتلالها بين الأتراك والإسبان وكلاهما أجنبيان عن المغرب، كانت سفن الأتراك بقيادة خير الدين بربروس تجوب عباب البحر المتوسط مترصدة تحركات الأسطول الإسباني في تلك المياه.

وعندما تمكن الإسبان من الاستيلاء على الجزيرة للمرة الثانية، طردوا منها الحامية التركية مخلفة هناك 21 مدفعا تركيا جاءت قوة صالح الرائس التركي حاكم الجزائر سنة 1555 فهجمت الجزيرة ودكت تحصيناتها ثم استولت عليها في عهد أبي حسون الوطاسي، الذي بانقضاء عهده انقضى عهد الوطاسيين ولمع نجم السعديين حيث تمكن السلطان محمد الشيخ من تأسيس الدولة الجديدة وكان لزاما أن يقطع الطريق عن الأسطول التركي أعداء الدولة الفتية والمؤازرين للوطاسي أبي حسون مؤازرة سافرة.

وفي خضم أحداث كثيرة جرت بين السعديين والأتراك سواء أيام محمد الشيخ أو خلفه الغالب بالله حيث تصعدت تلك الأحداث إلى معارك وجها لوجه سنة 1557م إذ تحرك الأتراك بجيوش جرارة لاحتلال فاس فالتقت بهم جيوش الغالب بالله بوادي اللبن فكانت الهزيمة على الأتراك وفروا متحصنين في جزيرة بادس وكانت تحت أيديهم.

وفي سنة 1564م جهز فيليب الثاني أسطولا بحريا صليبيا يتكون من 92 سفينة حربية محملة على ظهرها قوة كبيرة خليطة من الإسبان والطليان والألمان والبرتغال والإنجليز بقيادة الجنرال «غرسيا طولور» ففاجأت هذه القوة حامية الأتراك في الجزيرة وحاصرتها، ثم سقطت في يد الإسبان في غشت 1566م ومن هذا التاريخ وهم يحتلونها احتلالا جائرا غير مبني على أي اتفاق من طرف سلاطين المغرب كما أسلفنا.

وكان الغرض من هذا الاحتلال، أمرين اثنين أولا : قطع الطريق عن الأسطول التركي الذي أقض مضجع الأسطول الإسباني، وذلك حتى لا يجد الأسطول التركي ملجأ إليه على شواطئ الشمال وقد عمد الأسطول الإسباني أن يسد في وجه الأتراك كل ملجإ ومن ذلك ما قام به من سد مصب وادي مرتيل بإغراق خمس سفن محملة بالأحجار والجير في مدخل الوادي، لأنه بعد احتلالهم لمليلية والنكور وبادس وسبتة، لم يبق مفتوحا إلا وادي مرتيل الذي كان يكون دلتا ترسو فيها السفن فرارا من العواصف وللتزود بالمواد الضرورية، وكانت السفن تدخل الوادي إلى تامودة بضواحي تطوان.

وقد جرت مشاورة في ذلك بين قائد أسطول البوغاز «دوق الفارودي بانان» وبين ملك إسبانيا فليب الثاني وكان إغلاق المدخل في يوم 9 مارس 965.

ومن ذلك التاريخ أصبح مصب الوادي لا يصلح للملاحة لوجود تلك السفن في قعر الوادي تتجمع عليها الرسوب الذي يجرفها الماء من الجبال.

ومن ذلك التاريخ والإسبان يقبعون في تلك الجزيرة رغم أن الاستراتيجية الحربية العالمية قد تغيرت ولم يبق أي مطمع لإسبانيا في تعكير جو المغرب بواسطة هذه الأسافين.

وعلى العكس، فإن الاستراتيجية الاقتصادية التي حلت محل الاستراتيجية الحربية لا تجد لها أي مبرر لهذا الاحتلال، بل يعتبر حملا ثقيلا على الدولة الإسبانية من هذه الناحية التي يئن العالم ومن ضمنها إسبانيا تحت وطأتها.

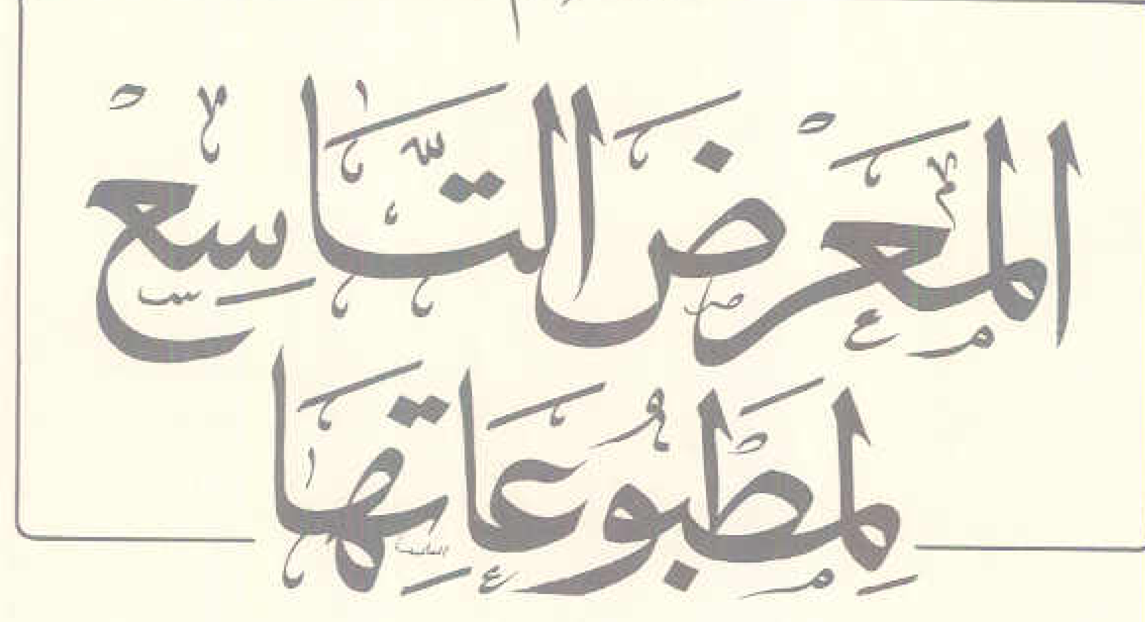
الحاج أحمد البوعياشي

مطبعة فضاله . المحمدية . المغرب
رقم الايداع القانوني 1981/3

بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

تنظم

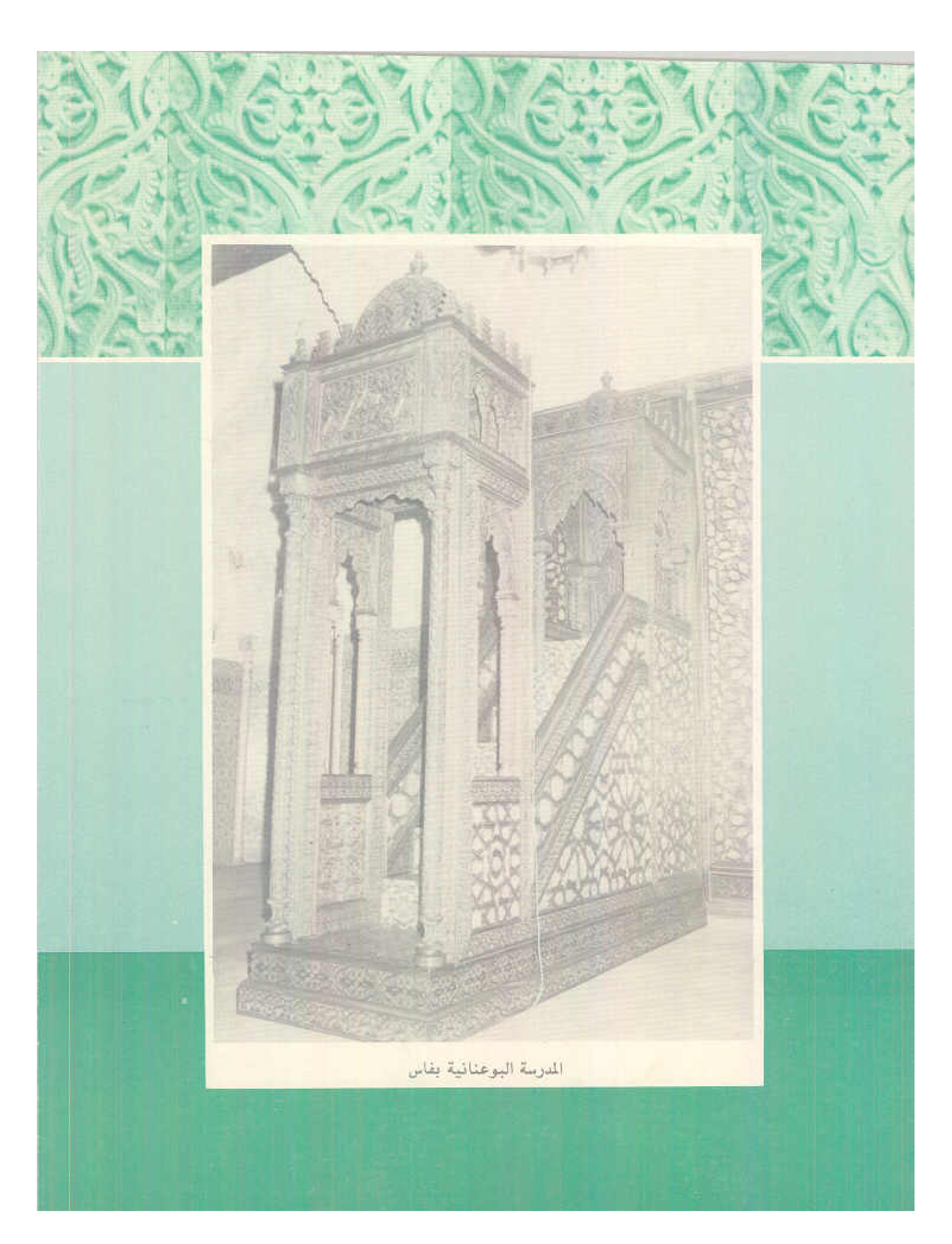


من 22 إلى 29 صفر 1406
7 14 نونبر 1985

بقصر البلدية بمدينة مكناس

بمناسبة المعرض، وتشجيعا للطلبة والمثقفين والمهتمين، تنظم مكتبة الأوقاف عرضا خاصا تخفض فيه أثمان المطبوعات بنسبة

30%



المدرسة البوعنانية بفاس